

13.6.2014

أندريا هيراتا

عساكر قوس قزح

رواية

دار المنى

أندريا هيراتا

عساكِر قَوْس قُزَح

لاسْكار پِلانجي

النص العربي: سكينة ابراهيم

دار المنى

First published in Indonesia by Bentang Pustaka under the title
Laskar Pilangi
First English Translation by Angie Kilbane, published by Bentang Pustaka, Indonesia

First American edition published in the United States by
Sara Crichton Books/Farrar, Straus and Giroux in New York, 2013

ISBN 978 91 87333 17 0

Printed at Scandbook, Falun

Jacket: Peter-Andreas Hassiepen, Munich
Picture © MILES Films & MIZAN productions
Timur Angin

Bokförlaget Dar Al Muna AB
Box 127
182 05 Djursholm
Sweden

www.daralmuna.com

إلى أُمّي ن.أ. مستورة سيمان،

إلى أبي سيمان سعيد هارون،

إلى مُعلِّمَيّ إيبو مُسلِمة هفصري

وباپاك هرفان إفَندي نور، وإلى

رفاق طفولتي العشرة الأحبّاء،

عساكر قوس قزح - لاندرا هيراتا [sic]

١

عشرة تلاميذ جُدد

كنت مجرّد صبي صغير عندما جلست في ذلك الصباح على مقعد طويل خارج مدرسةٍ، يُظللني فرع شجرة فيلسيوم عتيدة. كان أبي يجلس إلى جانبي، ذراعه تعانق كتفي، ورأسه لا ينفكّ يومئ وهو يبتسمُ في وجه الأهالي والأطفال الجالسين على المقعد المواجِه لنا. كان يومًا مهمًا: اليوم الأوّل في المدرسة الابتدائية.

كان صفُّ المقاعِد الطويلة ينتهي عند بابٍ مفتوح وخلفه حجرة الدراسةِ. إطار ذلك الباب مقوّس، حاله في الحقيقة حال المدرسة شبه المتداعية التي بدت كما لو أنها قد تنهار في أي لحظةٍ. عند مدخلِ الباب وقف مُعلّمان مثل مُضيفَين يرحبان بضيوفٍ مدعوين إلى حفلةٍ؛ المعلّم باپاك ك.أ. هرفان إِفَندي نور أو پاك هرفان اختصارًا، مدير المدرسة، وهو رجل كبير في السنّ حليم الوجه، ومعلّمة صبية تضع جلبابًا؛ إيبو ن. أ. مُسلِمة هفصري، أو بو مُس اختصارًا. وكانا مثل أبي يبتسمان.

لكن ابتسامة بو مُس بدت مفتعلةً: كانت قلقة؛ وجهها متشنجٌ وينتفض بعصبية. لم تكفّ عن تفقُّد عدد التلاميذِ الجالسين على المقاعِد الطويلةِ. وجعلها اضطرابها لا تكترث بالعرق الذي سال على عينيها، ملطِّخًا ماكياجها ومخططًا وجهها حتى ظهرت كما لو أنها خادمة الملكة في مسرحية قريتنا التراثية «دُل مُلوك».

«تسعة تلاميذ، تسعة فقط يا پيماندو غورو، ما زلنا بحاجة إلى تلميذٍ آخر،» قالت بنبرة مخنوقة للمدير. عاينها پاك هرفان بنظرةٍ ضبابية.

أنا أيضًا اضطربتُ. اضطربتُ بسبب هلع بو مُس، وبسبب شعوري بأن ذراع أبي تثقل جسمي كلّه. ومع أنني رأيته مرتاحًا في الصباح، إلا أن ذراعه القوية الملتفّة حول رقبتي فضحت ضربات قلبه المتسارعة. لم يكن سهلاً على عامل منجم في السابعة والأربعين من العمر، لديه أولاد كُثر وراتب ضئيل أن يرسل ابنه إلى المدرسة. كان من الأفضل له أن يرسلني إلى العمل مساعِدًا في كشك بقالة صيني في السوق، أو إلى الساحل لأشتغل عاملاً وأساهم معه في التخفيف من أعباء العائلة المادّية. إنَّ إرسالَ طفل إلى المدرسة عَنَى التقيُّد لسنوات بمصاريفَ إضافية، وبالنسبة إلى عائلتنا لم يكن هذا بالأمر البسيط.

يا لأبي المسكين.

لم أجرؤ على النظر في عينيه.

لم يكن أبي الوحيد الذي يرتجف اضطرابًا. فقد أظهرت وجوه الأهالي الآخرين أنهم، مثل أبي، انجرفوا بأفكارهم إلى سوق الصباح ومخيلاتهم تصوّر لهم مزايا اشتغال أبنائهم عمّالاً. فهؤلاء الأهالي ليست لديهم قناعة كافية بأن تحصيل أولادهم للعلم الذي يستطيعون تحمّل نفقاته إلى المرحلة الإعدادية فقط، يمكن أن يجعل مستقبل عائلاتهم مشرقًا. وما جاؤوا هذا الصباح إلا رغمًا عنهم، إما كي يتفادوا التوبيخ من المسؤولين الحكوميين لعدم إرسال أولادهم إلى المدرسة، أو إذعانًا لمتطلّبات العصر التي تستلزم تحرير أولادهم من الأُميّة.

كنتُ أعرف جميع الأطفال والأهالي الجالسين قبالتي، باستثناء صبي متّسخ، شعره أحمر ومجعّد ما فتئ يحاول جاهدًا التملّص من قبضة أبيه الذي صحب ابنه لابسًا بنطلونًا من القطن الرخيص ودونما حذاء ينتعله.

أمّا بقية الأطفال فهم كلّهم من أصدقائي المقربين الذين أعرفهم جيدًا. مثل ترابياني القابع في حضن أُمّه، أو كوتشاي الجالس إلى جانب أبيه، أو سهارى التي غضبت من أمها في وقت سابق لأنها أرادت دخول الصفّ من فورها. أو شهدان الذي لم يرافقه أحد. كُنا جيرانًا، جميعنا من جزيرة بيليتونج، من أصول ملايوية، والأفقر على الإطلاق. وبالنسبة إلى هذه المدرسة، مدرسة المحمدية الابتدائية، هي

أيضًا كانت الأفقر. أفقر مدرسة قرية في بيليتونج. الأسباب التي جعلت الأهالي يسعون إلى تسجيل أولادهم فيها لا تتجاوز الثلاثة. أولاً؛ لا تتطلّب ابتدائية المحمدية دفع الرسوم المدرسية، ويمكن أن يساهم الأهالي بأي شيء يطيقونه وفي أي وقت يستطيعون. ثانيًا، خشي الأهالي من ضعف نفوس أطفالهم بحيث يمكن أن يقودهم الشيطان إلى طريق الضلال بسهولة، لذلك أرادوهم أن يحصلوا على توجيهات إسلامية متشدّدة منذ نعومة أظفارهم. ثالثًا، ولا أي مدرسة أخرى ترضى باستقبال أطفالهم.

بو مُس التي تضاعفَ تجهّمها ركّزت نظرها على الطريق الرئيس، أملاً في وصول تلميذ جديد آخر. وما رأيناه من يأسها أفزعنا، لأن وزارة جنوب سومطرة للتربية والتعليم أصدرت بيانًا تحذيريًا: إذا قلّ عدد تلاميذ مدرسة المحمدية الابتدائية الجُدد عن العشرة، فهذه المدرسة، أقدم مدرسة في بيليتونج، ستُقفل. ولذلك انتاب القلق بو مُس وپاك هرفان خوفًا من إغلاق المدرسة، وانتاب القلق الأهالي خوفًا من التكاليف، ونحن الأطفال التسعة العالقون في الوسط، انتابنا القلق خوفًا من ألا يتسنّى لنا ارتيادُ المدرسة أبدًا.

في السنة الماضية بلغ عدد تلاميذ المحمدية أحد عشر فقط. وفي هذه السنة وصل تشاؤم پاك هرفان حدًا كبيرًا، إلى درجة أنه أعدّ سرًا خطاب إغلاق المدرسة.

«ننتظر إلى الساعة الحادية عشرة،» قال پاك هرفان مخاطبًا بو مُس والأهالي الذين أخذ اليأس منهم مأخذه. كنّا صامتين. وكان وجه بو مُس منتفخًا بسبب دموعها المحبوسة. فذلك اليوم هو يومها الأوّل في التعليم؛ هو يوم لم يفارق أحلامها منذ وقت طويل جدًا. تخرّجت قبل وقت قريب في مدرسة البنات المهنية «سَكولا كپانديان پوتري»؛ إحدى المدارس الثانوية في عاصمة المقاطعة الحكومية. ولا يتجاوز عمرها خمس عشرة سنة. وإذ وقفت هناك كالتمثال تحت الجرس، لم تفارق عيناها فناء المدرسة الفسيح والطريق الرئيس. إلا أن أحدًا لم يظهر. واصلت الشمس ارتفاعَها إلى كبد السماء لتلاقي منتصف اليوم. كان انتظار تلميذ جديد آخر أشبه بالقبض على الريح. شعرت أنا والأطفال الآخرين بالحزن، فنكّسنا رؤوسنا.

في الحادية عشرة إلا خمس دقائق ما عادت بو مُس قادرة على إخفاء تعاستها. أحلامها الكبيرة بخصوص هذه المدرسة راحت تتهاوى حتى قبل أن تبصر النور. واثنتان وثلاثون سنة من عمر پاك هرفان في الخدمة المجانية المتفانية التي لم تلق تقديرًا شارفت على الانتهاء.

«تسعة فقط يا پيماندو غورو،» قالت بو مُس التي ما عادت قادرة على التفكير بوضوح، مردّدة الشيء نفسه الذي يعرفه الجميع.

أخيرًا، انتهى الوقت. بلغت الساعة الحادية عشرة وخمس دقائق، ومجموع التلاميذ لم يتجاوز التسعة. نحّيتُ ذراع أبي عن كتفي. بكت سهارى في حضن أمها. سهارى التي كانت تضع جلبابًا وتلبس جوربًا وحذاءً وقميصًا، وتحمل كتبًا وزجاجة ماء وحقيبة ظهر؛ كلّها جديدة.

مضى پاك هرفان إلى الأهالي وحيّاهم فردًا فردًا. كان تأثير ذلك مدمّرًا. ربّت الأهالي ظهره ليواسوه، لمعت عينا بو مُس من الدموع المترقرقة فيهما. استعدّ پاك هرفان ليلقي خطبته الأخيرة. وعندما بدأ ينطق كلماته الأولى «السلام عليكم»، صاح تراپاني وأشار إلى طرف فناء المدرسة مروّعًا الجميع بصياحه.

«هارون!»

التفتنا ننظر. لمحنا من بعيد صبيًا طويلاً ونحيلاً يتجه نحونا بمشية خرقاء. ملابسه وتسريحة شعره بمنتهى الأناقة. يلبس قميصًا أبيض طويل الأكمام دسّه تحت بنطلونه القصير. كانت ركبتاه تتلاصقان معًا وهو يمشي، بحيث بدا جسمه المتهادي قُدمًا على شكل x. تصحبه امرأة سمينة في منتصف العمر تحاول بصعوبة بالغة التمسّك به. كان ذاك هارون؛ صبي طريفٌ وواحد من أصدقائنا.

يبلغ هارون من العمر خمس عشرة سنة، أي بعمر بو مُس، لكنه على شيء من التخلّف العقلي. وإذ أقبل نحونا شبه راكض بدت عليه سعادة قصوى، كما لو أنه يتحرّق شوقًا للانضمام إلينا. لحقته أمّه وهي تتعثّر خلفه محاولة أن تمسك يده.

لمّا وقفا أمام پاك هرفان كانا معًا يلهثان.

«يا باپاك غورو،» قالت أمّ هارون وهي تلتقط أنفاسها، «رجاءً اِقبل هارون.

مدرسة ذوي الاحتياجات الخاصة تقع في جزيرة بانجكا، ولا نملك المال لنرسله إلى هناك. والأهم من هذا، ارتياده المدرسة هنا أفضل من أن يبقى في البيت ويتفرّغ لمطاردة دجاجاتي.» ابتسم هارون ابتسامة عريضة كشفت عن أسنانٍ طويلة صفراء.

وكذلك ابتسم پاك هرفان. تطلّع إلى بو مُس وهزّ كتفيه. «هذا يجعلهم عشرة.»

هارون أنقذنا! صفّقنا وهلّلنا. سهارى التي ما عادت تطيق الجلوسَ أكثر، انتصبت واقفةً لتعدّل طيات جلبابها، وبحزم ألقت حقيبتها على ظهرها. احمرّ وجه بو مُس. انحسرت دموعها، ومسحت عن وجهها العرق الذي خطّط ماكياجها وأفسده.

٢

الرجل الصَّنبورة

بدت بو مُس كبرعم زنبقة عملاقة من زنابق جبال الهمالايا. كان جلبابُها بلون زنبقة بيضاء غضّة، وثيابها تفوح بعطر زهرة الفانيليا. تقدّمت نحو كلّ فرد من الأهالي الجالسين على المقاعد الطويلة، مستهلّةً مع الجميع محادثات ودّية قبل مباشرة النداء على الأسماء. كان الجميع قد دخل حجرة الدراسة وحصل على رفيق مقعده، باستثنائي وباستثناء الصبي الضئيل المُتَّسخ صاحب الشعر الأحمر المجعّد الذي لا أعرفه. عجز ذاك الصبي عن البقاء ساكنًا، وكانت رائحته تشبه رائحة المطّاط المحروق.

«پاك تشيك، سيشارك ابنك مقعده مع لِينتانج،» قالت بو مُس لأبي.

أوه، هذا اسمه إذًا، لينتانج. يا له من اسم غريب.

بمجرّد سماعه القرار، تملّص لينتانج من قبضة أبيه، قفز، وانفلت مسرعًا إلى الصفّ ليعثر على مقعده بمفرده. كان مثل صبي صغير يمتطي مُهرًا؛ مفعمًا بالابتهاج وغير راغب بالنزول عنه، ومدركًا أنه في هذه اللحظة قد قفز فوق ظهر القدر وأمسكَ العِلم من قرنَيه.

اقتربت بو مُس من والد لينتانج الذي يشبه شجرة صنوبر ضربتها صاعقة: داكن اللون وذابلاً، نحيلاً وصلبًا. كان صياد سمك، إلا أن ملامح وجهه بدت أقرب إلى ملامح وجه راعٍ وديع، توحي أنه رجل دمث طيب القلب ومتفائل. وبخلاف صيادي السمك الآخرين، تكلّم بهدوء. لكنه على أي حال، ومثل معظم الإندونيسيين،

لم يكن مدركًا أن تلقّي العلم هو من صلب حقوق الإنسان.

كانت عائلة لينتانج من تانجونج كالبومبنج؛ قرية لا تبعد كثيرًا عن البحر. للوصول إلى هناك، عليك أن تمرّ عبرَ أربع أراضٍ من قشّ النخيل، وهي مناطق مستنقعات تقشعرّ لها أبدان الناس في قريتنا. في تلك المساحات المخيفة، ليس من غير المألوف أن تواجه تمساحًا بحجم شجرة جوز الهند يعبر الطريق. تقع قرية لينتانج الساحلية في أقصى شرق سومطرة، ويمكن القول إنها المنطقة الأفقر في جزيرة بيليتونج والأكثر عزلة. وبالنسبة إلى لينتانج يشبه القدوم إلى الحي الذي تقع فيه مدرستنا كالذهاب إلى منطقة مدينة حضرية، وليصل إلى المدرسة ينبغي عليه أن يبدأ رحلته على الدراجة مع صلاة الفجر، حوالي الساعة الرابعة صباحًا.

لا ريب في أن جميع الأجيال السابقة من رجال عائلته لم يقدروا على انتشال أنفسهم من الفقر، وهذا ما جعل امتهانهم صيد السمك حتميًا في المجتمع الملايوي. لكنهم عجزوا عن الاستقلال والعمل منفردين؛ ليس لعدم وجود البحر إنما لعدم توافر القوارب. وهذه السنة أراد والد لينتانج أن يكسر حلقة الأجيال تلك. لم يشأ لابنه البكر لينتانج أن يصبح صياد سمك مثله. بدلاً من ذلك سيجلس ابنه لينتانج إلى جانب الصبي الآخر ذي الشعر المجعّد؛ أي أنا، وسيركب الدراجة من وإلى المدرسة يوميًا. وإذا كان قدره أن يصبح صياد سمك، فإن من شأن رحلة الأربعين كيلومترًا على طريق الحصى الأحمر أن تكسر عزيمته. كانت رائحة الحريق المنبعثة منه التي لاحظتها سابقًا تفوح من خُفّ «الكونغاي» الذي ينتعله، خفّ الكوتشوك المصنوع من إطارات السيارات. وكان ذلك الخُفّ مهترئًا بسبب دواسات الدراجة التي واظب لينتانج على ركوبها منذ فترة طويلة.

آه! صبي بهذا الحجم الصغير...

عندما لحقتُ لينتانج إلى حجرة الدراسة، استقبلني بمصافحة قوية. تكلّم باهتمام بالغ وبلا توقّف، بلهجة أهالي بيليتونج المحلية وبطريقة طريفة ونموذجية على شاكلة أهالي المناطق النائية. ولم تكفّ عيناه عن التوهّج وهو يجيل نظره بحماسة

في جميع أنحاء الغرفة. كان أشبه بنبتة القرّاص الأميريكي. عندما تتساقط قطرات الماء على بتلاتها تطلق حبوب اللقاح؛ وهّاجة ومزدهرة ومفعمة بالحياة.

بعدئذٍ، أعطت بو مُس جميع الأهالي استمارات ليكتبوا أسماءهم ومهنهم وعناوينهم. شُغل الجميع بملء استماراتهم ما عدا والد لينتانج. بدت الاستمارة بين يديه مثل كائن غريب. فوقف مكانه وتعبير الحيرة مرتسم على وجهه.

«إيبو غورو،» قال ببطء، «اعذريني لأني لا أعرف القراءة والكتابة.»

ثم أضاف بنبرة حزينة إنه لا يعرف حتّى متى وُلد. فجأة غادر لينتانج مقعده وتوجّه نحو أبيه، أخذ الاستمارة منه وهتف: «أنا أستوفي بنود هذه الاستمارة لاحقًا يا إيبوندا غورو، بعد أن أتعلّم القراءة والكتابة!»

ذُهل الجميع من رؤية لينتانج، ذاك الصبي الصغير، يدافع عن أبيه. كان رأسه يتلفّتُ هنا وهناك مثل رأس بومة. وبالنسبة إليه، كانت مجموعة النثريات التي في صفّنا مُدهشةً، على الرغم من أنها لم تتعدّ مسطرةً خشبية، وإناءً خزفيًا على مكتب بو مُس هو نتاج مشروع فني لتلميذ في الصفّ السادس، ولوحًا قديم الطراز، ومجموعة طباشير مبعثرة في الأرض بعضها لم يبق منه سوى غبار أبيض.

راقب الرجلُ الصّنوبرةُ اندفاع ابنه المتّقد وعلى وجهه ابتسامة حلوة ومُرّة. وقد استوعبتُ ما رأيت. هذا الرجل الذي لم يعرف حتى متى وُلد، يتخيّل قلب ولده المكسور إذا اضطر إلى مغادرة المدرسة في السنة الأولى أو الثانية من الثانوية للأسباب الكلاسيكية المعهودة كشُحّ المال أو مطالب الحياة غير العادلة. بالنسبة إليه كان تحصيل العلم شيئًا محفوفًا بالغموض.

لن تبارحني ذكرى ذلك الصباح لعشرات السنين الآتية. ذلك الصباح الذي رأيت فيه لينتانج يقبض بطريقة خرقاء على قلم كبير غير مسنون كما لو أنه يمسك سكينًا كبيرة. ابتاع له والده النوع الخطأ من الأقلام؛ كان بلونين مختلفين، إحدى نهايتيه حمراء والنهاية الأخرى زرقاء. أليس هذا النوع من الأقلام هو ما يستخدمه

الخياطون ليحدّدوا العلامات على الأقمشة؟ أيًا كان نوع ذلك القلم، هو على أي حال ليسَ مخصّصًا للكتابة.

الدفتر الذي اشتراه أيضًا لم يكن الدفتر المناسب؛ لون غلافه داكن الزرقة، وأسطره ثلاثية. ألم يكن ذلك النوع من الدفاتر التي نستخدمها في الصفّ التالي، بعد أن نتعلّم طريقة وصل الحروف؟ أمّا الشيء الذي لن أنساه أبدًا، فهو أنني كنتُ في ذلك الصباح شاهدًا على صبي من الساحل، رفيق مقعدي، يمسك قلمًا ودفترًا للمرّة الأولى في حياته، ثم ستثبت السنون المقبلة أن كلّ ما يكتبه هو ثمرة ذهن متّقد، وكل جملة ينطقها هي شعاع نور باهر. ومع مرور الوقت، سيقشع ذاك الصبي الساحلي الفقير السحابة الداكنة التي خيّمت لفترة طويلة على هذه المدرسة، بعد أن تطوّر ليصبح أروع وأذكى شخص رأيته في جميع مراحل حياتي.

٣

خزانة العَرض الزجاجية

ليس من الصعب كثيرًا وصف مدرستنا. كانت من ضمن مئات وربّما آلاف المدارس الفقيرة في إندونيسيا، لو نطحها تيس مهتاج لتهدّمت وانهارت.

كان لدينا معلّمان فقط لجميع الموادّ والمراحل. ولم نحظ بلباس مدرسي رسمي، بل لم يحتو مبنى المدرسة حتى على مرحاض. وبما أن مدرستنا تقع عند طرف غابة، فكلّ ما علينا فعله عندما نضطرّ إلى تلبية نداء الطبيعة هو التسلّل إلى الأحراش. كان هناك بيت خلاء خارجي على أي حال، لكن إذا قصدناه فلا بُدّ أن يرافقنا المعلّم، لأن الأفاعي تندسّ فيه عادةً.

لم تتوافر لدينا عدّة الإسعافات الأولية أيضًا. وعندما نمرض، أيًّا كان نوع المرض؛ إسهال أو انتفاخ أو سعال أو زكام أو حكّة، يعطينا المعلّم حبّة كبيرة مستديرة تشبه زرّ معطف واقٍ من المطر. لونها أبيض ومذاقها مرّ، وبعد تناولها يشعر المرءُ بالامتلاء. وعلى الحبة ثلاثة حروف كبيرة تشير إلى أنها مؤلفة من الأسبرين والفيناستين والكافيين. كانت تلك الحبّة ذات سمعة أسطورية في جميع أنحاء وضواحي بيليتونج، باعتبارها دواءً سحريًا يمكن أن يشفي أي مرض.

وهذا العلاج الشامل هو الحلّ الذي قدّمته الحكومة تعويضًا عن قلّة الأموال المخصّصة للرعاية الصحية في البيئات الفقيرة.

أما المسؤولون ومديرو المدارس أو أعضاء الجمعية التشريعية، فنادرًا ما زاروا مدرستنا. زائرها الروتيني الوحيد كان رجلاً يلبس مثل النينجا؛ على ظهره

أنبوب كبير من الألمنيوم، يتدلّى منه خرطوم يقطر خلفه، ولطالما بدا لنا كأنه ذاهب إلى القمر. كان هذا الرجل يُرسَل من قبل وزارة الصحة ليبيدَ البعوضَ بالغاز الكيميائي. وقد اعتدنا أن نهلّل ونصيح بفرح كلما رأينا النفثات البيضاء تتصاعد كأنها إشاراتٌ دخانية.

لم تخضعْ مدرستُنا لأي حراسة لأنها لم تحتو على ما يستحقّ السرقة. والشيء الوحيد الذي دلّ على أن هذا مبنى مدرسة هو سارية العلم من الخيزران الأصفر، السارية التي عُلّقت عليها لوحة خضراء مائلة تعرض شمسًا ذات أشعة بيضاء، وفي وسطها تظهر الكتابة التالية:

س د م د
سيكولا داسار محمدية

وتحت الشمس مباشرة جملة مكتوبة باللغة العربية، وبعد أن تعلّمتُ هذه اللغة في الصفّ الثاني، عرفت أن تلك الجملة تقول: أمرٌ بالمعروف ونهيٌ عن المنكر. وهذا هو مبدأ المحمدية الأساس، ثاني أكبر مؤسسة إسلامية في إندونيسيا والتي يتجاوز عدد أعضائها ثلاثين مليونًا. تلك الكلمات رسخت في نفوسنا، وبقيت راسخة فيها طوال رحلتنا نحو سنّ البلوغ؛ وكنّا نحفظها عن ظهر قلب.

يبدو للناظر إلى مدرستنا من بعيد كأنها في طريقها إلى التهاوي. أعمدتها الخشبية العتيقة المائلة تكاد تنوء بحمل السقف الثقيل. وهي بحدّ ذاتها تشبه سقيفة تجفيف لبّ جوز الهند. وكلّ شيء فيها يدلّ على أن تشييدها لم يخضع للمبادئ المعمارية المناسبة. ولا يمكن إغلاق نوافذها وأبوابها لعدم تناظرها مع أطرها، إلا أن شيئًا لم يستدع إقفالها على أي حال.

أما جوّ الصفّ العام فيمكن وصفه بكلمات مثل: غير مستغَل بالكامل، ومذهل، وذو تأثير مُرّ. من ضمن أمور أخرى، يتجلّى عدم استغلاله في خزانة العرض

الزجاجية المتصدّعة التي يأبى بابها أن يبقى مغلقًا إلا إذا أُقحم بينه وبين إطاره لسان ورقي. في أي صفّ نموذجي، تضمّ هذه الخزانة عادة صور الخرّيجين المتفوّقين أو المدير مع وزراء التعليم أو نواب المديرين مع نواب وزراء التعليم. أو قد تستخدم لعرض إنجازات الطلاب المرموقين في المدرسة من يافطات وميداليات وشهادات وجوائز. لكن في صفّنا كانت خزانة العرض الزجاجية تقف في الزاوية خاوية على عروشها. كانت مجرد شكل ثابتٍ مثيرٍ للشفقة لا يحتوي شيئًا، لأن المسؤولين الحكوميين لم يرغبوا في زيارة معلّمينا، ولا طلاب فيها يمكن التفاخر بهم، ونحن بالتأكيد لم نحقّق أي إنجاز مرموق إلى الآن.

بخلاف صفوف المدارس الابتدائية الأخرى، خلا الصفّ من وسائل الإيضاح، وليس فيه أدوات جداول الضرب، ولا تقويم، ولا حتّى صورة رئيس إندونيسيا أو نائبه أو رمز دولتنا: الطائر الغريب بذيله المؤلف من ثمان رِيَش والذي ينظر دائمًا إلى اليمين. الشيء الوحيد المعلّق في صفّنا كان مُلصقًا جداريًا خلف مكتب بو مُس مباشرة، وقد عُلّق هناك ليغطي فجوة كبيرة في أحد ألواح الجدار. ويُظهر ذاك المُلصق رجلاً كثَّ اللحية يلبس رداءً طويلاً فضفاضًا ويحمل غيتارًا يتدلّى بأناقة من فوق كتفه. عيناه الحزينتان المشتعلتان توحيان أنه قد شهد بالفعل تجارب الحياة الهائلة، وعزم بتصميم على مقاومة أنواع الشرور التي على وجه البسيطة كافّة. كان يختلس النظر إلى السماء، وأشكال نقود كثيرة تسقط منها نحو وجهه. وذاك الرجل ليس إلا «روما إراما» المتخصّص بفنّ «الدانغدت» الغنائي، مطرب الجماهير الريفية الملايوية الأوّل؛ نسختنا من إلفيس بريسلي. في أسفل المُلصق خُطّت عبارتان لم أفهمهما عندما دخلت المدرسة، لكن في الصفّ الثاني ومع إتقاني القراءة عرفت أنهما تعنيان «روما إراما هوجان دويت!» أي «روما إراما: مطر النقود!»

ما على المرء ليقف على حالنا إلا أن يستعرض في مخيّلته أسوأ المشاكل الممكنة بالنسبة إلى حجرة دراسة في مدرسة ابتدائية: سقف تتخلّله فجوات واسعة جدًا، بحيث يشاهد التلاميذ الطائرات المحلّقة في السماء، ويضطرّون إلى حمل

المظلات أثناء الدراسة في الأيام الماطرة؛ وأرض إسمنتية تتحلّل باستمرار إلى تراب؛ رياح عاتية تزعزع أرواح التلاميذ خوفًا من سقوط المدرسة؛ وتلاميذ يريدون دخول الصفّ ولكن عليهم أولاً أن يطردوا الماعز منه. هذه الأمور كلّها اختبرناها وعانيناها.

٤

الدبُّ الأشهب

مثل مدرستنا، من السهل وصف پاك هرفان الذي تميّز بشارب غليظ متصل بلحية بنيّة كثّة، كامدة اللون وخطها الشيب. ويمكن القول باختصار إن وجهه كان مخيفًا قليلاً.

إذا حدث وسأل أي شخص پاك هرفان عن لحيته المتشابكة، لن يكلّف نفسه إعطاء أي تفسير وبدلاً من ذلك يناوله كتابًا عنوانه «كيوتامان ميمليهارا جينغوت» أي «فضل الاحتفاظ باللحية». وقراءة التوطئة وحدها تكفّلت بجعل أي شخص يشعر بالخجل من مجرّد السؤال.

في ذلك اليوم الأول، لبس پاك هرفان قميصًا بسيطًا لا بدّ أنه كان في مرحلة ما أخضر اللون قبل أن يتحوّل إلى أبيض. فذاك القميص ما زالت فيه بقايا آثار من اللون الأصلي. كان قميصه الداخلي مفعمًا بالثقوب، وبنطلونه باهتًا من كثرة الغسيل. حزامه الرخيص المتشقّق الذي يلتفّ حول خصره، من البلاستيك المجدول. من المرجح أنه دأب على استعماله منذ سنّ المراهقة. في سبيل التربية الإسلامية خدم پاك هرفان مدرسة المحمدية لعشرات السنين بلا مقابل. وأعال أهله من نتاج حديقة محاصيل في فناء بيته.

كان الأطفال الصغار يفزعون من رؤية پاك هرفان، لأنه بدا كثير الشبه بدبّ أشهب. إلا أنه استحوذ على قلوبنا من فوره تقريبًا. بهرَنا بكلّ كلمة قالها وكلّ حركة قام بها. كان طيبًا ولطيفًا. تميّز بسلوك يجمعُ ما بين حكمة وشجاعة رجل اختبر

صعوبات الحياة المريرة، وحصل علىَ علم بوسع المحيط. بدا مستعدًا أبدًا لتحمّل المخاطر كافّة، ومهتمًا حقًا بتبسيط شرح الأمور بحيث يستوعبها الآخرون بيسر.

حتّى في ذلك اليوم الأوّل، لم يخفَ علينا أن پاك هرفان كان في أوج نشاطه أمام التلاميذ. ويمكن القول إنه «غورو» حقيقي بكل الأبعاد التي تتضمّنها هذه الكلمة الهندية: شخص لا ينقل المعرفة فقط، بل أيضًا صديق طلابه ومرشدهم الروحي. كثيرًا ما شهدناه يرفع طبقات صوته أو يخفضها، ويداه تمسكان حافتي مكتبه وهو يشدّد على كلمات معينة، ثم يفتح كفّيه ويرفع يديه كمن يؤدي رقصة المطر.

إذا طرحنا أسئلة في الصفّ، يقبل نحونا بخطوات صغيرة وعيناه الوديعتان تتمعّنان فينا بنظرات ذات مغزى، كما لو أننا الأطفال الملايويون الأغلى. ولطالما همس في آذاننا بطلاقةٍ ما يحفظه من أبيات الشعر والآيات القرآنية، ثم يغرق في الصمت كشخص تراوده أحلام اليقظة عن حبّ مفقود منذ زمن بعيد.

كان الدرس الأوّل الذي تلقّيناه من پاك هرفان يدور حول ثباتنا على الإيمان والرغبة الجامحة في تحقيق أحلامنا. أقنعنا بأن الحياة قد تكون سعيدة حتّى مع الفقر، ما دام المرءُ يعطي بصدقٍ أكثر مما يأخذ.

كلّما تكلّم استمعنا إليه مأخوذين، نراقبه بشغف، وننتظر بفارغ الصبر سلسلة عباراته التالية. شعرت على نحو لا يُصدّق أنني محظوظ لأني هناك، وسط أولئك الأشخاص الرائعين. كان في تلك المدرسة الفقيرة جمال فريد، جمال لا أقايضه بألف مدرسة فاخرة.

بعد پاك هرفان، تسلّمت بو مُس الصفّ. وبدأت مرحلة التعارف. فتقدّم التلاميذ الواحد تلو الآخر، وعرّف بنفسه أو عرّفت بنفسها. أخيرًا جاء دور آكيونج. طُلب منه أن يأتي إلى الأمام، فأقبل يشعّ سرورًا، وما بين نفَسٍ وآخر ابتسم.

«رجاءً، أخبرنا باسمك وعنوانك،» خاطبت بو مُس بحنان الطفل الهوكيني.

رمقَ آكيونج بو مُس بنظرات متردّدة، ثم عاد إلى الابتسام. شقّ والده طريقه من بين حشد الأهالي، رغبة منه في رؤية ابنه وهو يتفاعل مع المعلّمة.

لكن، على الرغم من تكرار السؤال عليه، لم ينطق آكيونج كلمة واحدة. بل واصل الابتسام فقط.

«هيّا،» حثّته بو مُس من جديد.

لم يجب آكيونج إلا بابتسامته. استمرّ في استراق النظر إلى أبيه الذي أخذ صبره يزداد نفادًا مع مرور كلّ ثانية. كان في وسعي أن أقرأ ما يدور في ذهن الأب: *هيّا يا بني، تجالد وقُل اسمك! على الأقل قُل اسم أبيك، مرّة واحدة فقط! لا تجلب الخزي للهوكيين!* كان وجه الأب الصيني ودودًا، وكان مزارعًا، من طبقة الصينيين في بيليتونج، الأدنى في المكانة الاجتماعية.

حاولت بو مُس إقناعه بالتجاوب للمرّة الأخيرة. «حسنًا، هذه فرصتك الأخيرة لتقدّم نفسك. إذا شعرت أنك لستَ مستعدًا بعدُ، عليك أن تعود إلى مقعدك.»

وبدلاً من ظهور علامات الامتعاض عليه لفشله في الإجابة، ازدادت سعادة آكيونج. لم يقل أي شيء على الإطلاق. كانت ابتسامته عريضة ووجنتاه مصطبغتان بالحمرة. الدرس الثاني: لا تسأل شخصًا يعيش في مزرعة عن اسمه وعنوانه.

وعلى هذا النحو اختُتمت مرحلة التعارف في ذلك اليوم المشهود من شهر شباط.

٥

فلو

تعتبر جزيرة بيليتونج الصغيرة أغنى جزيرة في اندونيسيا. وهي جزء من سومطرة، لكن غناها جعلها تتفردُ بنفسها. وإلى هذه الجزيرة النائية تسلّلت حضارة الملايو القديمة من ملاكا، وكان ثمة سرّ بقي مدفونًا في الأرض إلى أن اكتشفه الهولنديون. ففي أعماق الأرض الموحلة تدفّق الكنز: القصدير. القصدير المبارك. القصدير الذي تساوي حفنة منه ما يزيد عن عشرات الدلاء من الأرز.

لو حدث وأولج المرءُ ذراعه في الطمي الضحل، أو بالأحرى في أي بقعة أخرى على الإطلاق، فإنها تعود إليه متلألئة، ملطخة بالقصدير. ومن قبالة الساحل، تبدو بيليتونج للناظر وهي تشعّ بالقصدير اللامع كمنارة ترشد قباطنة السفن.

لطالما لمعَ القصديرُ إلى وقت متأخّر من الليل. ولطالما أخذ استغلاله على نطاق واسع مجراه تحت كنف آلاف الأضواء التي تستخدم الملايين من كيلوواطات الطاقة.

مباركة هي الأرض التي يتدفّق فيها القصدير، لأنه مع القصدير تظهر دائمًا مواد أخرى: طين، كزينوتايم، زيركون، ذهب، فضّة، توباز، جالينا، نحاس، كوارتز، سيليكا، غرانيت، مونازيت، سيدريت، هيماتيت، بل حتّى يورانيوم. تحت البيوت القائمة على الركائز حيث عشنا حياتنا المحرومة، قبعت طبقات وطبقات من الثروة. وكنّا، نحن، أهالي بيليتونج مثل مجموعة جرذان تتضور جوعًا في مخزن يغصّ بالأرز.

قامت باستغلال هذا المورد الطبيعي العظيم شركة تُدعى پ ن تيما. ترمز پ ن إلى «پيروساهان نيغري» أو شركة مملوكة للدولة؛ وتعني تيما القصدير.

شغّلت شركة الـــ پ ن ست عشرة جرّافة. واستوعب المشروع جميع الأيدي العاملة في الجزيرة تقريبًا.

كانت أوعية الجرّافات الفولاذية بطول ملاعب كرة القدم، ولا شيء يستطيع الوقوف في طريقها. حطّمت الشعاب المرجانية، اقتلعت الأشجار ذات الجذوع التي تماثل أحجام البيوت الصغيرة، هدمت مباني الطوب بضربة واحدة، وسحقت قرى بأكملها. جالت في المنحدرات الجبلية، والحقول، والوديان والبحار والبحيرات والأنهار والمستنقعات. الضجيج الناجم عنها بدا أشبه بهدير ديناصورات مزمجرة.

غالبًا ما أجرينا في ما بيننا رهانات حمقاء، مثل كم دقيقة تستغرق الجرّافة لتحوّل أكمةً إلى أرض مستوية. وعلى الخاسر منّا أن يعود القهقرى من المدرسة إلى البيت. وحينئذ نبدأ في الضرب على الدفوف ونتبعه وهو يتهادى إلى الوراء مثل البطريق.

استولت الحكومة الإندونيسية على شركة الـــ پ ن من المستعمرة الهولندية. ولم تُصادر الأصول فقط، بل صادرت أيضًا العقلية الإقطاعية. وحتّى بعد أن تحرّرت إندونيسيا، بقيت معاملة شركة الـــ پ ن للموظفين المحليين تمييزية إلى أقصى الحدود. وكانت المعاملة تختلف باختلاف تصنيف الطبقات.

شغل المسؤولون التنفيذيون أعلى طبقة في الـــ پ ن. كان يُشار إليهم عادة باسم الموظفين. أما أدنى طبقة فلم تتألّف في الواقع إلا من أهالينا الذين عملوا لدى هذه الشركة حمّالي أنابيب، أو عمّال غربلة القصدير، أو عمالاً مياومين. ولأن بيليتونغ أصبحت قرية شركات، انتهجت پ ن شيئًا فشيئًا أسلوب الهيمنة. كانت مثل الإقطاعية: طبقة العامل فيها لازمته دائمًا حتّى خارج ساعات العمل.

عاش الموظفون، لا أحد منهم تقريبًا من الملايويين البليتونجيين، في منطقة مخصّصة للنخبة تُدعى المُلكية. وكانت هذه المنطقة تخضع لحراسة أمنية مشدّدة، ومحصّنة بسياجات وأسوار عالية وتحذيرات قاسية اللهجة منتشرة في كل مكان بثلاث لغات: الإندونيسية الرسمية ذات الطابع الاستعماري، والصينية والهولندية. تقول تلك التحذيرات *ممنوع دخول من ليس له حق*.

في أعيننا؛ أعين أطفال القرية الفقراء، بدت المُلكية كما تقول: *اِلزم حدودك*. وقد تعزّز هذا الانطباع بصفّ من أشجار طويلة ريشية الشكل تساقِط دوما كريات حمراء بلون الدم على أسطح السيارات الفارهة المحتشدة عند مخرج المرآب.

بُنيت منازل المُلكية الفاخرة على الطراز الفيكتوري. تتألّف ستائر نوافذها من طبقات عدّة، كستائر مسارح السينما. في تلك المنازل استقرّت عائلات صغيرة وعاشت بسلام مع طفلين أو ربما ثلاثة على الأكثر. كانت تلك المنازل مسالمة دائمًا ومعتمة ومتكتمة.

اكتسبت تلك المنازل ذات الطابع الفيكتوري مظهر قلاع النبلاء بسبب قيام المُلكية على بقعة أرض مرتفعة. وتشكّل كلّ منزل هناك من أربعة أقسام منفصلة: الحجرات الرئيسة، ومساكن الخدم، والمرآب، وقسم التخزين. جميعها متصلة بشرفات طويلة مفتوحة تحيط ببركة صغيرة. عند حفاف البركة تطفو زنابق الماء الزرقاء. وفي وسطها ينتصب تمثال طفل مكرّش؛ ذاك المانيكان البلجيكي الأسطوري الذي يتبوّل الماء دائمًا من عضوه الصغير المضحك والمحرج.

كانت غرف المعيشة في تلك البيوت مفروشة بالأثاث العتيق، كأرائك الخشب الوردي الفيكتورية، إذا جلس عليها المرء شعر أنه أقرب إلى ملك جليل. وعلى الجدران عُلّقت لوحات غامضة وباهظة الثمن. ولو حاولتَ يا صديقي أن تذهب من غرفة المعيشة إلى غرفة الطعام من غير أن تركّز بعناية ستضيع بسبب وفرة الأبواب في تلك المنازل.

يتناول ساكنو تلك البيوت العشاء وهم يرتدون أفضل ثيابهم، وينتعلون أحذيتهم أيضًا. إذا باشروا الأكل، بعد أن يضعوا مناديلهم على أحضانهم، لا يصدر عنهم أي

صوت. ويستمعون في تلك الأثناء إلى الموسيقى الكلاسيكية، ربما سيمفونية «هافنر رقم ٣٥ لموزارت». ولا أحد منهم يضع مرفقيه على الطاولة.

في ليلةٍ هادئة كان الجوّ في المُلكية ساكنًا جدًا. بل كان السكون مطبقًا تقريبًا. ومن أحد البيوت الفيكتورية ذات الأعمدة الطويلة تسرّب صوت بيانو. هناك جلست بنت صغيرة صبيانية، اسمها فلوريانا، أو فلو اختصارًا، تأخذ درس عزف على البيانو. كانت لسوء الحظّ نعسة نوعًا ما. وإذ أراحت ذقنها بيديها انبرت تتثاءب وتتثاءب بلا انقطاع. بدت أشبه بقطّة نالت من النوم ما يزيد عن حاجتها.

إلى جانبها جلس والدها، الرئيس المسؤول عن الجرّافات، والغضب يسيطر عليه من تصرّفها، مع شعوره بالحرج من معلّمة البيانو الخاصة؛ امرأة جاوية مهذبة في منتصف العمر.

كان والد فلو قادرًا على إدارة مناوبات آلاف العمال، وبارعًا في حلّ أصعب المشاكل التقنية، وناجحًا في الإشراف على أصولٍ بملايين الدولارات، ولكن عندما يواجه هذه البنت الصغيرة، الأصغر من بين أولاده، يقف عاجزًا مكتوف اليدين. وكلما رفع صوته أكثر وهو يوبخها، ازداد تثاؤبها اتساعًا.

بدأت المعلمة الخاصّة بعزف رموز دو، مي، صو، تي، متنقّلة ما بين أربع نغمات، مبيّنة وضعية الأصبع لكلّ رمز. إلا أنّ فلو تثاءبت من جديد.

مدرسة الـــ پ ن

كانت مدرسة الـــ پ ن في قلب مجمّع المُلكية، واعتُبرت دائمًا مركزًا للتميز، مكان مَن هم الأفضل. وفيها تتنافس مئات من التلاميذ الأكفاء على أعلى مستوى، وفلو واحدة منهم.

لا يختلف الفرق بين هذه المدرسة وبين مدرستنا عن الفرق بين الأرض والسماء. كانت صفوفها مزينة بالرسوم التعليمية، وجداول الضرب، والجداول

الدورية، وخرائط العالم، وموازين الحرارة، وصور الرئيس ونائب الرئيس، والرمز الوطني البطولي الذي يمثّل طائرًا غريبًا بذيل يتألف من ثماني رِيَش. كانت هناك أيضًا تماثيل تشريح، مجسّمات كرات أرضية، ونماذج النظام الشمسي. لم يستخدموا في تلك الصفوف الطباشير، بل استخدموا أقلامًا خاصّة كريهة الرائحة لأن ألواحَهم بيضاء.

«عندهم الكثير من المعلّمين،» زعق أمران إنسياني الذي ارتاد تلك المدرسة مرّة، أعلمني بهذا في الليلة السابقة على أوّل يوم لي في ابتدائية المحمدية. «كلّ مادّة لها معلّمها الخاص، بما في ذلك الصفّ الأوّل.»

عجزت عن النوم في تلك الليلة. أصابني الدوار وأنا أحاول إحصاء عدد المدرسين في مدرسة الــ پ ن، وأيضًا طبعًا بسبب تشوّقي الشديد للذهاب إلى المدرسة في الصباح التالي.

كانت مدرسة الــ پ ن المقرّ الأكثر تميزًا في بيليتونج. وفي أوّل يوم مدرسي تصطف عشرات السيارات أمامها، ويؤخذُ مقاس مئات الطلاب، ليس فقط من أجل زي مدرسي واحد بل من أجل ثلاثة أزياء مختلفة. في يوم الاثنين يرتدي التلاميذ قمصانًا زرقاء مطبّعة برسوم أزهار جميلة، وتقلّهم إلى المدرسة حافلة زرقاء. رؤية تلاميذ مدرسة الــ پ ن وهم يترجّلون من الحافلة ذكّرتني بصورة مجموعة أطفال بيض وجذابين ومجنّحين يحلّقون فوق الغيوم في التقاويم المسيحية.

لم تقبل مدرسة الــ پ ن إلا أبناء الموظفين الذين يعيشون في المُلكية. وقد ضُبطت بقانون رسمي نوعية رتبة الموظفين الذين يحقّ لهم تسجيل أطفالهم في المدرسة. وطبعًا، على البوابة عُلِّق التحذير الذي ينصّ على عدم دخول من ليس لهم حقّ.

وهذا عَنَى أن أبناء صيادي السمك، وناقلي الأنابيب، والعمال الأشدّاء الذين يغربلون القصدير، والمياومين مثل أهالينا، وخصوصًا أبناء بيليتونج المحليين لا يملكون أدنى فرصة في تلقي تعليم جيد، ولذلك اضطروا إلى الالتحاق بمدرسة المحمدية؛ المدرسة التي يمكن أن تنهار إذا داعبتها لمسة ريح قوية.

أما ما كان يستدعي السخرية الأعظم في حياتنا فهو أن مجد المُلكية وسحر مدرسة الـــ ب ن يموّلان مئة بالمئة من القصدير المستخرج من أراضينا. كانت الملكية معلَمًا من معالم بيليتونج، وقد بُنيت لتكفل استمرارية حلم الانتشار الاستعماري المظلم. هدفها منح السلطة لقلّة من الناس مقابل قمع العديد، وتعليم القلّة فقط لضمان انصياع الآخرين.

٦

أولئك الذين ليس لهم حق

لا ريب في أننا لو صغّرنا الصورة لرأينا أن قريتنا قد تظهر أغنى قرية في العالم. فأعداد المناجم المتغلغلة في جميع أنحاء أرضها تفوق التصور، والروبيات التي استثمرت منها تقدّر بالتريليونات. في المقابل، عندما نكبّر الصورة نجد أن ثروة هذه الجزيرة بقيت محصورة في مكان واحد، وما انفكّت تتراكم داخل أسوار قلعة المُلكية.

على مسافة ذراع واحد فقط خارج أسوار القلعة يمتدُّ مشهد مناقض يلفت الأنظار، إذ يبدو أشبه بدجاجة تجلس إلى جانب طاووس. هناك عاش أهالي بيليتونج الملايويين، وإن لم يكونوا قد أنجبوا ثمانية أطفال بعد، فمحاولتهم لإنجاب هذا العدد لم تنته. ولطالما برّروا ذلك بإلقاء اللوم على الحكومة لأنها لم توفّر لهم سبل ترفيه أخرى، وتاليًا ليس لديهم ما يشغلهم إلا محاولة إنجاب الأطفال.

لعلّه من المبالغ فيه أن نسمّي قريتنا موطن فقراء، لكن ليس من الخطأ القول إنها كانت قرية عمّال؛ قرية حطّ عليها كسوف لا نهائي منذ فجر الثورة الصناعية. فجزيرة بيليتونج التي كانت من أوائل المناطق التي احتلّها الهولنديون، بقيت تعاني من الاضطهاد على امتداد سبعة أجيال، ثم فجأة وفي طرفة عين، تبلّلت مئات السنين من البؤس في ليلة واحدة بأمطار العذاب: وصول اليابانيين.

بعد ثلاثة قرون ونصف قال الهولنديون «وداعًا»، وصاح اليابانيون «سايونارا» أو مع السلامة. لسوء الحظّ لم تكن تلك النهاية السعيدة بالنسبة إلينا، نحن أهالي بيليتونج.

فأرضنا انتُزِعت منّا مرّة أخرى ولكن بطريقة أكثر تحضّرًا. حُرّرنا آنذاك إلا أننا لم نصبح أحرارًا.

كان في وسعنا أن نرى أسوار المُلكية من باحتنا.

باحتنا المكتظّة بالشجيرات والأوراق المخملية وأزهار الخبّازى كانت مملّة. وقنوات المياه القائمة الراكدة وأعشاش البعوض التي مال عليها سياجنا المتشابك كانت مملّة أيضًا.

كانت دارنا المتهالكة القائمة على الركائز الخشبية محشورة في المنطقة نفسها حيث ينتصب مركز الشرطة، ومخازن الـــ پ ن التموينية، والمعابد الصينية، ومكتب القرية ومكتب الشؤون الدينية، وأماكن نوم عمّال أحواض السفن، وثكنات البحارة، وبرج الماء، ومخازن الملايويين الصينيين، وعشرات من «الوارنغ» أي أكشاك مقاهي الرصيف، ومحلات الرهونات المكتظة دومًا بالزوار. وعند طرف القرية، يتداخل في أحد المنعطفات مسكن قبيلة ساوانج المديد. كان مسكنهم طويلاً وكذلك قصتهم. وأعِد بأن أرويها لاحقًا.

استقرّ الملايويون الصينيون، كما يُدعون أحيانًا، في الجزيرة منذ زمن بعيد. استقدمهم الهولنديون في البداية ليشتغلوا عمّال قصدير. معظمهم كانوا خيك من هاكا، وهوكيان من فوكين، وتونغسانيون، وهو فوس، وشان تنغز، وثايو سيوس. وهذا المجتمع العرقي المتنوّع والقوي طوّر تقنياته الخاصة لاستخراج القصدير يدويًا. وما زال منقّبو القصدير الملايويون يستعملون مصطلحات تلك التقنيات إلى اليوم، وذلك مثل «آيتشانغ، وفوك، وكياو وخاكاني».

عاش الملايويون حياتهم كالدّمى. تسيطر عليهم أداة صغيرة مضحكة ولكن فعّالة للغاية تسمى الصفارة. في الساعة السابعة كلّ صباح تتبدّد السكينة مع هدير الصفارة من مكتب الـــ پ ن المركزي. وللتوّ يتحرّك العمّال وينفرون من مختلف أرجاء القرية ليتجمّعوا عند جانب الطريق. ثم لا يلبثوا أن يقفزوا إلى مؤخّرات الشاحنات وينحشروا فيها لتمضي بهم إلى مواقع الحفّارات.

تعود القرية إلى هدوئها، ولكن بعد لحظات، تتعالى أوركسترا النساء حالما يبدأن في سحق التوابل. وسرعان ما تُرجع أصوات المدقّات المرتطمة بالأجرنة الخشبية صداها من بيت إلى آخر. ثم عندما تشير عقارب الساعة إلى الخامسة تزعق الصفارة ثانية، فيتفرّق العمال ليعودوا إلى بيوتهم. وعلى هذا النحو جرى الأمر لمئات السنين.

قال أبي إن عائلتنا ما زالت على الرغم من كلّ شيء محظوظة.

واحدة من المزايا غير العادية التي يتصف بها الملايويون هي أنهم يعتبرون أنفسهم محظوظين دائمًا مهما ساءت ظروفهم. هذه هي فائدة الدين.

أتذكّر شيئًا قاله لي أبي قبل أيام من التحاقي بالمدرسة. «يا ولدي، أساتذة المحمدية مثل پاك هرفان وبو مُس، وكذلك صيادو السمك، وعمّال الزيت وعمّال جوز الهند وحرّاس السدود يعيشون في ظلّ ظروف سيئة. عليك أن تشكر الله على ما لدينا.»

تلك كانت أوّل مرّة أسمع فيها اسم بو مُس.

ثم قال أبي إنه سمع أن معلّمة المحمدية الشابّة الجديدة، أرادت أن تعلّم حتى يحظى أطفال القرية بفرصتهم من التعليم.

هذه كانت المرّة الأولى التي كرّس فيها قلبي بو مُس بطلةً.

كنت أنا وسهارى وكوتشاي وتراپاني وهارون ومهار أولاد عمّال الـــ پ ن. أما لينتانج فابن صياد سمك، وبوريك ابن حارس سدّ، وشهدان ابن عامل جلفطة قوارب، وآكيونج ابن مزارع صيني.

إذا افترضنا أن عائلتي وعائلات كلّ من سهارى وكوتشاي وتراپاني وهارون ومهار كانت جميعها تمثّل حبل الفقر، يمكن القول في هذه الحالة إن عائلات لينتانج وبوريك وشهدان وآكيونج كانت تقفز أحيانًا فوق هذا الحبل. ففي فترات هدوء الرياح، يجنون أرباحًا لا بأس بها من المحار وأشجار المطاط وبذلك يصبحون فوق مستوى الحبل، وما يتوافر لديهم من مال يزيد قليلاً عمّا لدينا. لكن في موسم

الأمطار الطويل، يصبحون تحت مستوى الحبل، وبالكاد يستطيعون تدبّر أمورهم لأنهم يغدون أفقر الفقراء في الجزيرة.

وعلى الرغم من تفاوت درجاتنا في الفقر، كانت هناك من هي أفقر منّا جميعًا، الصبية التي أرادت أن تصبح معلّمتنا، الصبية التي جاء أبي على ذكرها والتي لم أطق صبرًا على الاجتماع بها.

«نادوني بو مُس،» قالت باعتزاز، كما لو أنها انتظرت طول عمرها لتنطقَ تلك الكلمات. كان ذاك يومها الأوّل في التعليم.

أكملت بو مُس دراستها في مدرسة البنات المهنية وتخرجت أخيرًا فيها. تعادل هذه المدرسة في الواقع المرحلة الإعدادية. ولم تكن مدرسة تعليم عامّ بقدر ما هي مدرسة لإعداد الصبايا كي يصبحن زوجات جيدات، ففيها يتعلّمن الطهو والتطريز والخياطة. صمّمت بو مس على الذهاب إلى عاصمة المقاطعة تانجونغ باندان لتدخل المدرسة وتحصل على دبلوم يفوق في مستواه ذاك الذي تمنحه المدرسة الابتدائية حيث تنوي التعليم.

بعد تخرّجها في المدرسة المهنية عرضت عليها شركة الـ پ ن وظيفة أمينة مستودعات الأرز، وهذا مركز واعد جدًا. بل جاءها أيضًا عرض زواج من ابن رجل أعمال. لم تستطع زميلاتها مطلقًا فهم سبب رفضها هذين العرضين المغريين.

«أريد أن أصبح معلّمة،» قالت ابنة الخمسة عشر ربيعًا.

لم تقل جملتها بتحدٍ أو باستمتاع. لكن من كان حاضرًا عندما نطقت تلك الجملة أدرك أن بو مُس استخرجت كلّ حرف من حروف كلماتها من أعماق قلبها، وأن كلمة معلّمة ما فتئت تهدر في رأسها لأنها عشقت مهنة التدريس النبيلة. كان هناك عملاق ينام في داخلها، عملاق من شأنه أن يستيقظ حالما تلتقي بتلاميذها.

خيارها هذا جلب عليها لاحقًا مصاعب تفوق الخيال. لا أحد آخر أراد أن يعلّم في مدرستنا لأن التعليم فيها بلا مقابل مادي. والعمل مدرّسًا في مدرسة فقيرة

خاصّة، اعتُبِر في قريتنا بالتحديد، وفقًا لنكتة متداولة، مهنة يزاولها من يفتقر إلى شيء من سلامة العقل.

على الرغم من كلّ شيء أدّى پاك هرفان وبو مُس عملهما بإخلاص. وبعد يوم حافل من تعليم جميع الموادّ، تتفرّغ بو مُس لخياطة أغطية الطعام المزركشة. وتستمرّ في الخياطة إلى وقت متأخّر من الليل؛ فهذا مصدر رزقها.

كان شحّ المال هو مشكلتنا التي لا تنتهي أبدًا. وقد يسوء الأمر إلى درجة عجزنا عن شراء الطباشير. كلّما حدث هذا، تصحبنا بو مُس إلى الخارج وتستخدم الأرض كما لو أنها لوح كبير. جميع هذه العراقيل جعلت بو مُس بالتدرّج وبشكل غير متوقّع معلّمة شابّة صلبة، ذات جاذبية مميّزة في الحقيقة.

«أدّوا صلواتكم في أوقاتها، وستنالون جزاءً وفيرًا،» لطالما انبرت تنصحنا.

ألم تكن هذه الإفادة مستوحاة من سورة النساء في القرآن الكريم، ألم يأت على ذكرها مئات المرّات مئات الواعظين في المسجد، أما ردّدها في أغلب الأوقات أعضاء الجماعات الدينية؟ بطريقة ما، عندما تقولها بو مُس، تغدو تلك الكلمات ذات وقع مختلف وذات أثر أقوى، حيث تدوي في قلوبنا، وتجعلنا نشعر بالندم إذا تقاعسنا عن أداء الصلاة في وقتها.

في إحدى المناسبات اشتكينا من تسرّب الماء من سقف المدرسة. لم تستمع بو مُس لشكوانا وبدلاً من ذلك أخرجت كتابًا باللغة الهولندية وأرتنا صورة في إحدى صفحاته. كانت صورة حجرة ضيقة محاطة بجدران سميكة مرتفعة وقاتمة ومسوّرة بقضبان حديدية. بدت خانقة وموحية بالعنف.

«هذه كانت زنزانة سوكارنو في سجن باندونج. هنا أمضى مدّة محكوميته. ومع ذلك درس يوميًا وقرأ طوال الوقت. كان أول رئيس لنا وواحدًا من ألمع الناس الذين أنتجتهم أمّتنا.»

ذهلنا. وتبدّدت شكوانا. من تلك اللحظة فصاعدًا لم نشتك مطلقًا من حال مدرستنا. مرّة، كانت السماء تمطر بشدّة، وترعد متوعّدة. وراح المطر ينهال علينا

من السماء مباشرة. لم نحرّك ساكنًا. لم نرغب في أن توقف بو مُس الدرس، ولم ترغب بو مُس في التوقّف، فتابعنا الدرس ونحن نحمل المظلات. أما بو مُس فغطت رأسها بورقة شجرة موز. هطلت الأمطار بلا انقطاع طيلة الأشهر الأربعة التالية، ومع ذلك لم نتخلّف يومًا عن المدرسة، ولم نتذمّر ولا حتى قليلاً.

كان پاك هرفان وبو مُس مُعلّمينا، وصديقينا، ومرشدينا الروحيين. أريانا كيف نصنع بيوت الدمى من الخيزران، وبيّنا لنا كيف نتوضأ قبل الصلاة، نفخا الهواء في إطارات دراجاتنا، علّمانا أن نصلي قبل النوم، امتصّا السم من سيقاننا عندما تلسعنا الأفاعي، ومن وقت لآخر قدّما لنا عصير البرتقال الذي يعصرانه بأيديهما. كانا بطلينا المجهولين، أميري الطيبة، وبئرين ينضحان بالمعرفة في حقل جافّ مهجور.

٧

وعده الأول

يزرع المختصّون بعلم النبات أشجار *الفيلسيوم* عادةً لاجتذاب الطيور. وأوراق تلك الأشجار الوفيرة لا تعرف موسمًا. غالبًا ما تزورها الببغاوات الصغيرة البديعة، وقبل الانقضاض عليها، تمسح تلك الطيور الخضراء الجميلة المنطقةَ من فروع شجرة «جنتيري» باسقة وراء مدرستنا، مستكشفة إمكان وجود منافسين أو أعداء. ثم، بسرعة البرق تغوص تلك الطيور النهمة وتنهب ثمار شجرة الفيلسيوم بمناقيرها الحادّة كالأمواس. ولا تكفّ وهي تأكل عن التلفّت برؤوسها يمينًا ويسارًا بارتياب. الدرس رقم ثلاثة: إذا كنت فاتن الجمال فلن تعيش حياة مسالمة.

بعد الببغاوات الصغيرة يقبل سرب *طيور الزرزور*. تحطّ تلك الطيور بمنتهى الاطمئنان على الشجرة لأنها تدرك أنها ليست فريسة لأحد بما في ذلك البشر. فتستمتع ببقايا الثمار التي خلّفتها الببغاوات، ثم تتبرّز كما يحلو لها، حتى وأفواهها ممتلئة بالطعام. وحينما يتقدّم الوقت إلى العصر، تحطّ بصمت بعض طيور الخياط الرمادية على أغصان الشجرة. هادئة وجميلة، تلتقط اليرقات الزاحفة، وتأكل بشراهة أقلّ من الببغاوات، ثم تقلع طائرة بلا ضجيج كما جاءت.

نحن أيضًا، مثل تلك الطيور، كيّفنا أيامنا حول شجرة الفيلسيوم. كانت تلك الشجرة شاهدة على أحداث طفولتنا الدرامية. أقمنا البيوت الشجرية على أغصانها. لعبنا الغُميضة بين أوراقها الوارفة. على جذعها حفرنا عهود صداقتنا الأبدية. وعند جذورها النافرة جلسنا حول بو مُس نستمع إليها وهي تحكي لنا قصة «روبن

هود». وتحت ظلالها لعبنا قفزة الضفادع وتدرّبنا على المسرحيات وضحكنا وبكينا وغنينا ودرسنا وتشاجرنا.

عندما ينتهي اليوم المدرسي نتذمّر من العودة إلى بيوتنا. وعندما يقترب يوم الأحد، يوم عطلتنا، ننتظر حلول يوم الاثنين بفارغ الصبر.

على امتداد الأسبوع الأوّل كلّه لم نلمس أي كتاب.

قضينا تلك الفترة ونحن نستمع طوال الوقت إلى الحكايات التي قصّتها علينا پاك هرفان وبو مُس. أسرتنا الروايات السحرية من الأراضي البعيدة التي تتحدّث عن الحكمة وصراعات الحياة، مثل قصص العبر الواردة في كتاب «*ألف ليلة وليلة*».

ثم جاء اليوم الأوّل من الأسبوع الثاني.

حضرتُ إلى المدرسة مبكرًا جدًا. لم أطق صبرًا على رؤية پاك هرفان وبو مُس. دهشت لمّا فتحت باب الصفّ. طالعتني في الزاوية بقرة ناعسة، وفي الزاوية المقابلة رأيت ليِنتانج يجلس بهدوء تامّ، كتلك البقرة. على الرغم من أن بيته هو الأبعد، حضر لينتانج دائمًا قبل الجميع.

في ذلك اليوم السعيد، بعد التدرّب على إنشاد أركان الإيمان الستة بدأت بو مُس تعلّمنا الأبجدية.

«سبعة حروف في الأسبوع،» قالت. «وخلال شهر تتعلّمون الحروف كلّها، وبعد ذلك نتعلّم طريقة كتابتها!»

بعد ثلاثة أسابيع غمرني سرور لا يوصف لأني اكتشفت حروفًا جديدة غريبة مثل O و Q و V. نادرًا ما رأيت هذه الحروف الجديدة في الكلمات الإندونيسية. فانبريت بيني وبين نفسي أتساءل لماذا ابتكروا شيئًا لا يستخدم إلا قليلاً جدًا، وفيما استغرقت أتنهّد متعجبًا من الأمر رفع رفيق مقعدي يده.

«يا إيبوندا غورو،» صاح بانفعال.

رنت إليه بو مُس. «نعم لينتانج؟»

«أيمكنني الحصول على استمارة التسجيل في المدرسة؟ أريد أن أكتب بنودها.»

ابتسمت بو مُس، «صبرًا يا لينتانج. لم نتعلّم الأبجدية إلا توًّا. تأخذها لاحقًا في الصفّ الثاني عندما تتعلّم كتابة الجمل.»

«أرغب في فعل هذا الآن يا إيبوندا. لقد وعدت أبي.»

تردّدت بو مُس. «أوتستطيع؟»

«نعم يا إيبوندا،» أجاب لينتانج بنبرة واثقة.

بشكٍّ واضح فتحت بو مُس درج مكتبها وأخرجت منه الاستمارة. نهضنا كلّنا وتجمهرنا حول لينتانج.

أخذ قلمًا من وراء أذنه، عضّ نهايته وتناول الورقة. وفيما راقبت بو مُس أصابع لينتانج النحيلة والمتّسخة تنقش كلّ حرف من حروف الكلمات، رأيت بدنها يقشعرّ.

اسم التلميذ: *لينتانج ساموديرا باسارا*

اسم الأب: *شهباني مولانا باسارا*

حدّقنا ببلَهٍ أخرس. يستطيع لينتانج أن يكتب، ويستطيع أن يكتب جيدًا! حملقت بو مُس بالصبي كما لو أنه لؤلؤة في محارة. بعد لحظة قالت برقّة، «سبحان الله، اشكُر الله يا لينتانج، اشكُر الله يا لينتانج...»

ملأ لينتانج جميع بنود الاستمارة، ثم وبابتسامة ارتياح أعادها إلى بو مُس. لم يمض علينا في المدرسة إلا شهر، وتمكّن لينتانج أن يفي بوعده الذي قطعه على أبيه، مدافعًا عن كرامته.

٨

المرض العقلي رقم خمسة

أصبحت الشهور سنوات، وبدأنا نقترب من سنّ المراهقة قبل أن ندرك ذلك. ومع أن مدرستنا الفقيرة بقيت فقيرةً، ما فتئت روعتها تزداد في أعيننا.

وبالتدرّج غدونا أشقاءً من خلال تجاربنا المشتركة وما ألمَّ بنا من محن، وأصبحنا نعرف مراوغات بعضنا من الداخل والخارج.

كانت بُنية شهدان هي الأصغر، لكنه أكل دومًا أكثر من أي منّا. لم يرفض طعامًا قط. بدا الحال كما لو أن فمه غير قادر على التمييز بين الطعام اللذيذ والطعام المقزّز؛ فهو يبتلعه كلّه بلا استثناء. وذاك شيء يستدعي الحيرة نظرًا إلى ضآلة حجمه؛ إلى أين يذهب كل ما كان يلتهمه؟

أما آكيونج، رفيق مقعد شهدان، فكان وجوده بيننا شاذًا إلى حدّ ما. الله وحده يعلم ما اللوثة التي أصابت والده وهو الكونفوشيوسي الورع، ليلحِق ابنه الوحيد بهذه المدرسة الإسلامية. لا ريب في أن السبب يعود إلى حالة الفقر التي تعيشها أسرته الهوكيانية.

بيد أن مجرّد رؤية آكيونج كفيلة بجعل أي شخص يدرك لماذا قُدِّر له الانتهاء في هذه المدرسة الفقيرة. فمظهره يدلّ على أنه منبوذ حقيقي. بدا أشبه بفرانكشتاين، رأسه على شكل صفيحة وشعره كإبر القنفذ. عيناه مسدّدتان إلى الأعلى مثل نصل السيف، ولا أثر لحاجبيه تقريبًا. أسنانه كبيرة وناتئة. ونظرة واحدة إلى وجهه ستصيب أي معلّم بالكآبة وهو يتخيّل صعوبة حشر المعرفة في رأسه.

المثير للدهشة في هذا كلّه أن رأس آكيونج الشبيهة بالصفيحة استوعبت المعرفة بسرعة. وعلى العكس من ذلك، تبيّن أن الصبي الوديع، صاحب الوجه اللطيف والمظهر الذكي الجالس أمامه والذي يهزّ رأسه بدراية خلال الدروس لم يكن ذكيًا جدًا. وذاك اسمه كوتشاي.

كان كوتشاي سيئ الحظّ نوعًا ما: عانى في طفولته الأولى من سوء تغذية خطير؛ حالة أثرت تأثيرًا كبيرًا على بصره. فعيناه فقدتا قدرتهما على التركيز السوي، وعندما يتكلّم، يعتقد أنه ينظر إلى الشخص الذي يخاطبه، بيد أن عينيه في الواقع تنحرفان حوالي عشرين درجة إلى اليسار.

المزيج الذي تتكوّن منه خصائص كوتشاي: الانتهازية والأنانية واللجوء إلى شيء من الخداع، فضلاً عن تصرّف العارف بكلّ شيء والصفاقة والميول الشعوبية، هذا المزيج استوفى في مجمله جميع الشروط ليكون سياسيًا. ولهذا السبب عيّناه بالإجماع عريف الصفّ.

أن يتولّى المرء منصب عريف الصفّ ليس بالمهمة المستساغة. فقد كان لزامًا على كوتشاي أن يبقينا هادئين، لولا أنه هو نفسه لم يستطع أن يصمت.

في أحد الأيام، أثناء درس الأخلاق المحمدية، اقتبست بو مُس كلام الخليفة عمر بن الخطاب، أحد أصحاب النبي محمد (صلى الله عليه وسلم): أي شخص يُعيّن قائدًا ويقبل عطيةً تتجاوز أجره يرتكب معصية.

كانت بو مُس غاضبة بالتأكيد من الفساد المنتشر في إندونيسيا.

«وتذكّروا أن من يتولّى زمام القيادة يُكافأ أو يُعاقب بالعدل في الحياة الآخرة.»

ذُهل الصفّ بأكمله، إلا أن صدمة كوتشاي بدت عظيمة. باعتباره عريف الصفّ روّعه القلق من خضوعه للمُساءلة عن تصرّفاته بعد الموت، ناهيك عن نفوره من مراقبتنا وضبطنا. شعر أنه ما عاد قادرًا على تحمّل المزيد. فوقف وقال بحدّة بالغة، «إيبوندا غورو، يجب أن تعرفي أن أطفال الحمّالين هؤلاء لا يمكن ضبطهم! بوريك يتصرّف مثل المريض عقليًا. سهارى وآكيونج يتشاجران بلا

توقّف. هذا يصيبني بالصداع. وهارون لا يفعل شيئًا سوى النوم. وإكال، ما شاء الله يا إيبوندا، ذاك الصبي مُرسل من الشيطان!»

كان كونتشاي أفضل بكثير من غيره من السياسيين. ففي حين أنهم يلطّخون سمعة الآخرين في غيابهم، وقف كونتشاي وقال ما قاله في وجوهنا بلا مواربة.

«ما عدت أستطيع الاستمرار. أطالب بإجراء تصويت لانتخاب عريف صفّ جديد!» قال محتدًّا وقد انفجرت أخيرًا سنوات من الإحباط المتراكم فيه. حدّق في بو مُس، لكن عينيه استقرتا على مُلصق «روما إراما: مطر النقود».

صُدمت بو مُس. لا أحد أبدًا من تلاميذها سبق له أن احتجّ على شيء بهذه الطريقة المباشرة. فكّرت للحظة، وجاهدت لتعكس تعبير الحيادية على وجهها. طلبت منّا أن نكتب اسم عريف جديد على قصاصة ورق ونطويها. «وفقًا لمبادئ الديمقراطية، من حقّكم التصويت، وتصويتكم ينبغي أن يبقى سرّيًا.»

طوينا قصاصات الورق وأعطيناها لبو مُس. شُحنت حجرة الدراسة بالتوتر.

فتحت بو مُس أول ورقة وقرأت الاسم المُدوَّن فيها. «بوريك!» صاحت. شحب وجه بوريك وأخذ كونتشاي يقفز ابتهاجًا. ليس ثمّة ما هو أوضح من هذا على أنه هو نفسه قد صوّت لبوريك.

«الورقة الثانية،» قالت بو مُس. «كونتشاي!»

هذه المرّة كان بوريك هو من راح يقفز فرحًا.

«الورقة الثالثة... كونتشاي!»

ابتسم كونتشاي بمرارة.

«الورقة الرابعة... كونتشاي!»

«الورقة الخامسة... كونتشاي!»

وهكذا استمرّ الأمر إلى الورقة التاسعة.

كان هناك تسع قُصاصات فقط لأن هارون لا يُحسن الكتابة. ومع ذلك أصرّت بو مُس على احترام حقوقه السياسية. رفعت نظرها نحو هارون . بادرها هارون بابتسامته المُميزة كاشفًا عن أسنانه الطويلة الصفراء، وصاح بحدّة، «كونتشاي!»

خارت قوى كونتشاي وهو يُقرّ بهزيمته.

اعتاد أميرنا تراپاني أن يجلس عندَ الزاوية. كان تعويذةَ سعدِ صفّنا ورائعًا روعةَ الطائر الخياط الرمادي. رام الكمال في كلّ شيء وتميّز بوسامة الوجه. كان من الفتيان الذين تقع البنات في غرامهم من النظرة الأولى. شعره وبنطلونه وحزامه وجواربه وحذاؤه اللامع لطالما بدا كلّ ذلك نظيفًا ومهندمًا ولا تشوبه شائبة. فاحت منه دائمًا رائحة طيبة، وحتى قميصه لم يحدث أن نقص منه زرّ واحد.

لم يتكلّم تراپاني إلا عند الضرورة، وإذا فعل انتقى كلماته بعناية. عهدناه مهذّبًا، ومواطنًا شابًا واعِدًا، ونموذجًا لوعد الكشافة «داسا دارما براموكا». أراد أن يصبح معلّمًا ويقصد المناطق النائية المعزولة عندما يكبر، ليساعد على تحسين التعليم وظروف الحياة في مناطق الملايويين المتخلّفة. كل شيء في حياة تراپاني بدا مستوحى من نشيد «واجب بالأجر» الذي يدور حول محاربة الأمية.

كان تراپاني مقرّبًا جدًا من أمّه. لم يثر اهتمامه أي نقاش إلا ذاك الذي يتعلّق بأمه، ربّما لأنه الصبي الوحيد بين ست بنات.

سهارى، البنت الوحيدة في صفّنا كانت تشبه الببغاوات الصغيرة؛ حازمة ومباشرة. من الصعب إقناعها وليس من السهل التأثير فيها. من خصائصها الأخرى البارزة الأمانة، لم تكن تكذب قطّ. حتى لو اضطرّت إلى المشي على خشبة فوق بحر من النار المشتعلة، ويمكن أن تنقذ كذبةُ حياتها، لن تتسرّب من فمها ولا كلمة واحدة غير صادقة.

تبادل آكيونج وسهارى العداء، وكثيرًا ما جرى بينهما خصام هائل، ثم يتصالحان، وبعد ذلك يعودان إلى الخصام مجددًا، كما لو أنه مقدّر عليهما البقاء دائمًا على طرفي نقيض. مرةً، أتى تراپاني على ذكر كتاب رائع: «غرق سفينة فان دير ويجك»، رواية «بويا هامكا» الأدبية الأسطورية.

«أنا أيضًا قرأت هذا الكتاب،» علّق آكيونج بغطرسة. «آسف، لكنه لم يعجبني. فيه أسماء وأماكن كثيرة جدًا، وصعب علي أن أتذكّرها كلّها.»

سهارى التي قدّرت دائمًا الأدب الجيد شعرت بالإهانة فعوت في وجهه، «ما شاء الله! بأي حق تنتقد الأدب الممتاز يا آكيونج؟ لو كتب بويا كتابًا سمّاه الصبي

السيئ الذي يسرق الخيار، ربّما وجدته يلائم ذوقك الأدبي!»

من ناحية أخرى تعاملت سهارى مع هارون برقة.

هارون الذي كان حسن السلوك، هادئًا، وسريع الابتسام، عجز عجزًا كاملاً عن استيعاب الدروس. في أيامنا هذه يسمّى ما يعاني منه هارون «متلازمة داون». حينما تشرح بو مُس الدرس، يجلس هارون بهدوء والابتسامة لا تفارق شفتيه.

عندما تحين استراحة بعد الظهر، تجلس سهارى مع هارون دائمًا تحت شجرة الفيلسيوم. ارتبط الاثنان بحبل عاطفي فريد من نوعه كتلك الصداقة الغريبة غير المألوفة التي تنشأ بين الفأرة والفيل. كان هارون يتحمّس دائمًا لقصّ حكاية قطّته المخططة بثلاثة ألوان والتي ولدت ثلاث قطط مخطّطة أيضًا بثلاثة ألوان، وذلك في اليوم الثالث من الشهر. ولم تتوقّف سهارى قطّ عن الاستماع له بصبر، مع أن هارون روى هذه القصّة يوميًا، مرارًا وتكرارًا، آلاف المرات، على مدار السنة، وسنة بعد سنة.

كان العدد ثلاثة مقدّسًا حقًا بالنسبة إلى هارون. وقد ربط كلّ شيء بهذا العدد. وترجّى بو مُس لتعلّمه كيف يكتبه. وبعد سنوات من الجهد الدؤوب، نجح أخيرًا في كتابته. وهكذا أصبحت جميع أغلفة كتبه المدرسية مزينة برقم ثلاثة جميل وملون. كان مهووسًا بالعدد ثلاثة. وفي كثير من الأحيان انتزع أزرار قميصه مبقيًا على ثلاثة منها فقط. ارتدى دائمًا ثلاثة جوارب بعضها فوق بعض، وامتلك ثلاث حقائب، ووضع في كل حقيبة ثلاث قناني من صلصة الصويا، ولديه أيضًا ثلاثة أمشاط. ولمّا سألناه عن سبب شغفه بالرقم ثلاثة، تفكّر لبرهة ثم أجاب بمنتهى الحكمة، كأنه زعيم قرية يعطي نصيحة دينية، «يا رفاقي،» هتف بنبرة مَن عنده علم سابق، «الله يحبّ الأعداد الفردية.»

كثيرًا ما تأمّلت وجه هارون محاولاً استشفاف ما يجري في رأسه. وكلما رآني أفعل هذا ابتسم. لم يغب عنه أنه أكبرنا سنًا، وقد عاملنا باهتمام كما لو أننا كلّنا أخوته. جاءت أحيانٌ كان تصرّفه فيها مؤثرًا للغاية. مرةً، على نحو غير متوقّع، أحضر إلى المدرسة رزمة كبيرة وأعطى كلّ واحد منا درنة «كلاديوم» مسلوقة.

حصل كلّ واحد منّا على واحدة، أما هوَ فأخذ ثلاثًا. ومع أن تصرّفاته تشبه كثيرًا تصرفات الناضجين، إلا أنه كان في الحقيقة طفلاً محبوسًا في جسد شخص بالغ.

كان التلميذ السابع فارسنا الأشمّ، صاحب الدرع اللامع، بوريك.

في البداية، بدا بوريك مجرّد تلميذ عادي. ولا غرابة في تصرفاته. لكن مجرى حياته تغيّر إلى الأبد بعد أن حظي بمحض الصدفة بزجاجة قديمة لمنتج ينمّي الشعر من مكان ما في شبه الجزيرة العربية.

على تلك الزجاجة صورة رجل يلبس سروالاً داخليًا أحمر اللون؛ رجل طويل القامة وقوي وجسمه ضخم ومكسوّ بالشعر مثل الغوريلا.

منذ ذلك الحين، ما عاد بوريك مهتمًا بأي شيء إلا بزيادة حجم عضلاته. ونجح في مسعاه بسبب العمل الشاقّ والتمرين، واستحقّ عن جدارة لقب شمشون؛ لقب نبيل حمله باعتزاز.

ذاك بلا ريب غريب، لكن شمشون على الأقلّ اكتشف نفسه في سنّ مبكرة وعرف تمامًا ماذا يريد أن يصبح لاحقًا؛ سعى بلا تقاعس للوصول إلى هدفه. بطريقة ما تخطّى مرحلة البحث عن الهوّية التي تجعل المرء عادة يشكّ بنفسه إلى أن يصبح أكبر سنًا. كان شمشون أفضل حالاً من كثير من الناس الذين لا يكتشفون ذواتهم فيسلكون درب الحياة بشخصيات لا تمت لهم بصلة.

تركّز هوسه على كمال الأجسام وفُتن أيّما افتتان بصورة الرجل صاحب العضلات المفتولة. في أحد الأيام أغراني لألحق به، وكان الفضول قد نال مني مناله لعجزي عن فهم السرّ الكامن وراء نفخ عضلات الصدر.

«لا تخبر أحدًا!» همس وهو يتلفّت حوله. شدّ يدي وجرينا إلى كوخ الكهرباء المهجور خلف المدرسة. أدخل يده في حقيبته وأخرج كرة تنس شُطرت نصفين.

«إذا أردت صدرًا منتفخًا مثل صدري، هذا هو السرّ!» عاد إلى الهمس ثانية على الرغم من عدم وجود أي شخص آخر غيرنا. نظرت إلى شطري الكرة بدهشة وفكّرت: من الواضح أن الحصول على جسم مدهش يكمن في كرة التنس هذه! لا

شكّ في أنه اكتشاف عظيم.

«اِخلع قميصك!» أمرني شمشون.

ماذا ينوي أن يفعل بي؟

«سأجعل منك رجلاً!»

دلّ التعبير المرتسم على وجهه على أنه لا يستطيع أن يفهم لماذا لا يستخدم جميع الرجال هذه الطريقة؛ طريقة مختصرة للمظهر المثالي.

تردّدت، لكنني لم أملك خيارًا آخر. ففككت أزرار قميصي.

«هيّا بسرعة!»

فجأة، دفع شمشون شطري كرة التنس بقوة على صدري. ترنّحت وكدت أقع. أخذني على حين غرّة فوقفت بين يديه عاجزًا، وظهري يستند على بعض ألواح الخشب. ضخامة شمشون وقوته التي تعادل قوة حمّالَيْن زادتا في سوء الموقف. حاولت جاهدًا التملّص والانفلات.

عندئذٍ فقط فهمت. يفترض أن يعمل شطرا كرة التنس مثل عمل ذلك الشيء الغريب الذي يستخدمه الناس لفتح المجاري والمؤلّف من عصا خشبية وكأس مطاطية. وقد تراءى لرأس شمشون المجنون أن شطري كرة التنس يمكن أن يعملا كأداة لنفخ عضلات الصدر. وقبل أن أدرك ما يجري وقعت تحت نير التعذيب وأنا أسيرُ قبضة شمشون الجبّارة، بينما ألحفَ شطرا كرة التنس في شفط عضلاتي.

شعرت أن شطري الكرة الملعونين يمتصّان الحياة من داخلي. وتهيأ لي أن عينيّ ستقفزان من محجريهما. اختنقت، عجزت عن الكلام. أشرت إلى شمشون ليتوقّف.

«لم يحن الوقت بعد. عليك أن تذكر جميع أسمائنا وأسماء أهالينا أولاً، ثم ترى النتائج بعد ذلك!»

كان تعداد أسمائنا وأسماء أهالينا أحد اختراعاتنا السخيفة. كان إنجاز عمل ما خلال وقت معين يتطلّب منّا ذكر الاسم الكامل لكلّ واحد في الصفّ وذكر أسماء الأهالي. مثلا: ترابانى إهسان جاماري نور صديق، ابن زين الدين إلهام جاماري

نور صديق. أو هارون أردلي رمضان هسني برهان، ابن شمشول هازانا رمضان هسني برهان. لم تكن الأسماء الملايوية قصيرة قط. وما كنت لأستطيع بأي حال تحمّل تلك الأشياء التي تمتصّ الروح منّي طوال الوقت الذي يستغرقه ذكر أسماء التلاميذ وأسماء أهاليهم.

ثم فجأة وقع أحد الألواح الخشبية خلفي متيحًا لي المجال لأستجمع قوتي. من غير أن أتوقّف لأفكّر مرتين حشدت آخر ذرة عزم بقيت في جسمي، وبحركة إيقاعية واحدة ركلت شمشون بين فخذيه تمامًا بكلّ قواي المتبقية.

جأر شمشون وعوى. تحرّرت من قبضته، قفزت مبتعدًا وأطلقت ساقي للريح. استرقت نظرة خاطفة إلى الوراء ولمحت الصبي الهرقلي ينطوي متشبثًا بساقيه قبل أن يسقط ويخبط الأرض.

بقي صدري لأيام موسومًا بعلامتين داكنتي الحمرة؛ آثار حماقة تستعصي على التصديق.

سألتني أمي عن العلامات. ومع أنني أردت أن أكذب لم أستطع. فدرس الأخلاق المحمدية علّمنا كلّ يوم جمعة أن الكذب على والدينا غير مسموح، خصوصًا أمهاتنا.

اضطررت إلى فضح غبائي. ضحك أخي الكبير وأبي ملء شدقيهما حتى اهتزّا. ثم، وللمرّة الأولى سمعت نظرية أمي المعقّدة عن الأمراض العقلية.

«الجنون أربعة وأربعون نوعًا،» قالت بثقة خبير في الطبّ النفسي وهي تجمع التبغ وأوراق التنبول ومكوّنات أخرى من حاويات حفظ الدواء لتعدّ مضغة. ثم سحقت المعجون المركّب، حوّلته إلى كريات ومضغته. «وكلّما صغُر الرقم زادت خطورة المرض.» أردفت وهي تهزّ رأسها إلى الأمام والوراء محدّقة بي كما لو أنني مريض في مستشفى الأمراض العقلية. «المرض العقلي رقم واحد هو ما يصيب الناس الذين يفقدون رشدهم ويجوبون الشوارع عراة. أعتقد أن ما فعلته بكرة التنس تلك يُدرج في فئة النوع الخامس من الأمراض العقلية. هذا خطير للغاية يا إكال! عليك أن تتوخّى الحذر، إذا لم تستخدم الفطرة السليمة سيصبح العدد أدنى بكثير!»

يعتقد أهالي الملايو أن القدر مخلوق. ونحن كنّا عشرة طعوم للقدر. بدونا أشبه برخويات صغيرة نتشبّث ببعضنا ونتلاصق معًا لنحمي أنفسنا من أمواج بحر المعرفة العاتية. كانت بو مُس الدجاجة الحاضنة بالنسبة إلينا. وإذ أنظر في وجوه رفاقي واحدًا واحدًا أرى: هارون بابتسامته الهنية، ترابانى الوسيم، شهدان الصغير، كوتشاي الطنّان، سهارى الجسورة، آكيونج الساذج، والسابع شمشون الذي يجلس مثل تمثال «غانيشا». وهل التاسع والعاشر غير لينتانج ومهار؟ فما حكاية كلّ منهما يا ترى؟ كانا صبيين يافعين مميزين بحقّ. والحديث عنهما يحتاج إلى فصل خاص.

٩

شامان التماسيح

في صباح أحد الأيام، وصل لينتانج إلى المدرسة متأخّرًا خلافًا للعادة. وقد ذُهلنا لما سمعنا سبب تأخّره.

«ما استطعتُ أن أعبر الطريق، ففي وسطه سدّ طريقي تمساح جاثم هناك بضخامة شجرة جوز الهند.»

«تمساح؟» ردّد كوتشاي.

«رننت جرس دراجتي، صفّقتُ، كححتُ بصوت عالٍ وتنحنحت لعله يرحل. ولم يتزحزح. لم أملك حيلة سوى الوقوف كتمثال والتحدّث مع نفسي. ضخامته والقشور النامية على ظهره دلّت بوضوح على أنه حاكم ذلك المستنقع.»

«ما منعك من أن تعود أدراجك إلى البيت؟»

«بعد أن قطعت منتصف المسافة إلى هنا لم أحبّذ الالتفاف والعودة بسبب ذلك التمساح الغبي.»

حينها لم أستطع منع نفسي من تخيّل ما يفكّر فيه لينتانج في تلك اللحظة. *كلمة غائب ليست من ضمن مفرداتي، واليوم ندرس مادّة تاريخ الإسلام، وهي من أكثر المواد إثارة للاهتمام، وأريد أن أناقش الآيات الكريمة التي تنبأت بانتصار بيزنطة قبل سبع سنوات من حدوث ذلك.*

«ألم تحاول الاستنجاد بأحد؟» سألته سهارى بقلق.

«لم يكن هناك أحد. أنا فقط والتمساح العملاق والموت المحقّق،» أجاب لينتانج

بطريقة استعراضية. «وبدأت أفقد الأمل. ثم فجأة، سمعت شيئًا يخوض في الماء عند مجرى النهر قربي. دُهشت، بل فزعت!»

«ما كان ذاك يا لينتانج؟» سأله ترابانى بعينين متّسعتين.

«انبثق من المستنقع ما بدا أنه هيئة رجل. وأخذ يتقدّم نحوي بخطوات متعرّجة.»

«من كان؟» استفسر مهار بصوت مخنوق.

«بودينغا.»

شهقنا كلّنا وكممنا أفواهنا بأيدينا.

«خفت منه أكثر من خوفي من أي تمساح!»

فهمنا ما ألمح إليه. فالرجل الذي انبثق من بين الطحالب هو الرجل الذي لا يريد أن يعرف أحدًا. لكن، من في بيليتونج الساحلية لا يعرفه؟

«وماذا حدث؟» سأله بوريك بعصبية.

«مرّ بي كما لو أنني لست هناك. ثم اقترب من الحيوان الرهيب الذي يسدّ الطريق. لمسه! داعبه برفق وهمس له بشيء. كان ذاك غريبًا جدًا! استسلم التمساح له. بعد ثوانٍ،» تابع لينتانج بصوت منخفض، «غطس في المستنقع محدثًا ضجيجًا هائلاً كالذي قد ينجم عن سقوط سبع أشجار جوز هند.»

اعترانا الذهول ونحن نفكّر في كفاح لينتانج ليأتي إلى المدرسة. «وماذا عن بودينغا؟» سألناه بصوت جماعي.

«استدار بودينغا ويمّم صوبي. بدا جليًا أنه لم يتوقّع أي كلمة شكر. لم أمتلك الجرأة على النظر إليه. إلا أنه مرّ بي وأكمل طريقه.»

«أكمل طريقه؟ فقط هكذا؟» سألته.

«نعم، فقط هكذا. لكنني أعتبر نفسي محظوظًا. فقلائل هم الناس الذين شهدوا قوى بودينغا الخارقة.»

مع أنني في الحقيقة لم أشهد قطّ شيئًا من قوى بودينغا الخارقة، تزوّدت منه بدرسي *الأوّل* في الحياة عن هواجس الشؤم الداخلية المُسبقة. بالنسبة إلي، يرمز بودينغا إلى كلّ الأمور المتعلقة بالشعور بالحزن.

لا أحد رغب في اتخاذ بودينغا صديقًا. كان وجهه مجدورًا ومفعمًا بالندوب. رجل في الأربعين من العمر، اعتاد أن يغطي جسمه بأوراق شجر جوز الهند، وينام تحت شجرة نخيل ليومين وليلتين أحيانًا متقوقعًا على نفسه مثل سنجاب. وعندما يجوع يغوص إلى قاع البئر المهجورة عند مركز الشرطة القديم، يلتقط بعض سمك الحنكليس ويأكله وهو بعد في الماء.

كان بودينغا مخلوقًا حرًا. ليس من ملايو ولا من الصين ولا حتّى من ساوانج. لم يكن أيّ شخص. ولم يعرف أحد من أين أتى. ليس متديّنًا ولا يستطيع الكلام. ليس متسولًا ولا مجرمًا. واسمه غير مدوّن في أي من سجلات القرية. كان أصمَّ لأنه في أحد الأيام غاص عميقًا جدًا في نهر لينغانج بحثًا عن القصدير فنزفت أذناه.

في الوقت الحاضر يبدو بودينغا مثل قطعة خشب وحيدة طافية. قريبه الوحيد الذي يعرفه أهل القرية هو والده الأبترُ. يقول الناس إنه ضحّى بساقه في سبيل الحصول على سحر التماسيح. كان الأب شامان تماسيح مشهورًا. وعندما دخل الإسلام القرى بدأ الناس يقاطعون بودينغا ووالده لأنهما رفضا التوقّف عن تقديس التماسيح وعبادتها.

مات أبوه بعد أن ألقى بنفسه في نهر مارانج وجسمه ملفوف من الرأس إلى أخمص القدمين بجذور «الجاوي». أطعم جسده عن عمدٍ لتماسيح النهر الشرسة، ولم يتبقّ منه إلا الأرومة التي استعاض بها عن ساقه المقطوعة. ومنذ ذلك الحين دأب بودينغا على قضاء معظم وقته وحده وإلى فترات طويلة من الليل وهو يمعن النظر في مجرى نهر مارانج.

في مساءِ يومٍ ما تدفّق أهل القرية نحو ملعب كرة سلّة المدرسة الوطنية. كانوا قد اصطادوا تمساحًا هاجم امرأة تغسل الثياب في نهر مارانج. بسبب صغر سنّي آنذاك، عجزتُ عن شقّ طريقي وسط الناس المتجمهرين حول التمساح. ولم أستطع رؤيته إلا من بين سيقانهم..كان فمه الكبير مفتوحًا على مداه، تدعمه قطعة حطب. وكان بساق واحدة.

عندما شقّوا بطنه إلى نصفين عثروا على شعر وقلادة. وحينها رأيت بودينغا يندفع قدمًا من بين المتفرّجين. جلس القرفصاء إلى جانب التمساح ووجهه شاحب كالأموات. توسّل إلى الناس مناشدًا إياهم أن يتوقّفوا عن تعذيب الحيوان. فانتزعوا قطعة الحطب من فمه وتراجعوا إلى الوراء. يعتقد الذين يقدّسون التماسيح أنهم عندما يموتون يتحوّلون إلى تماسيح. لا ريب في أن بودينغا اعتقد أن ذلك التمساح هو ما أصبح عليه والده.

بكى بودينغا. ندّ عنه نحيب موجع. رأيت دموعه تنهمر على وجنتيه المجدورتين. وأنا أيضًا شعرت بدموعي تنهمر على وجهي ولم أستطع حبسها.

قيّد بودينغا التمساح وحمل جثّة أبيه إلى نهر لينغانج، سحبها على طول ضفّة النهر نحو الدلتا. ولم يعد من يومها.

خلقت تلك الحادثة في لا وعيي نموذجًا تصويريًا للشفقة والحزن. وفي السنين التي تلت، كلّما واجهتُ مواقف تدمي القلب تملّكت صورة بودينغا حواسي.

في ذلك المساء تلقّنت من بودينغا درسًا عن الهواجس الداخلية المسبقة. ولأوّل مرّة أدركتُ أن القدر قد يعامل الجنس البشري بطريقة مروّعة، وأن الحبّ يمكن أن يكون أعمى إلى أبعد الحدود.

في حين لم يختبر لينتانج تجربة عاطفية مع بودينغا كما حدث معي، لم تكن تلك أوّل مرة يواجه فيها تمساحًا وهو في طريقه إلى المدرسة. وليس من قبيل المبالغة القول إن لينتانج كثيرًا ما جازف بحياته من أجل تحصيل العلم. مع ذلك، لم يفوّت يومًا مدرسيًا واحدًا. كان يقود دراجته كلّ يوم ثمانين كيلومترًا في رحلة الذهاب والإياب. وإذا استمرت نشاطات المدرسة لفترة طويلة بعد الظهر، لم يصل إلى بيته إلا ليلاً. مجرّد التفكير في رحلته اليومية هذه لطالما جعلني أنكمش خوفًا.

في موسم الأمطار، ترتفع المياه التي تغمر الدروب إلى مستوى الصدر. وعندما يواجه لينتانج دربًا تحوّل إلى نهر، يترك دراجته عند شجرة في موضعٍ عالٍ نسبيًا، يلفّ قميصه وبنطلونه وكتبه ويضعها في كيس بلاستيكي، ثم يعضّ

على الكيس بأسنانه ويخوض في الماء سابحًا نحو المدرسة بأسرع ما يمكنه ليتفادى التعرّض إلى هجوم التماسيح.

اعتمد لينتانج على ساعة الطبيعة للاستيقاظ في الصباح، لعدم وجود ساعة في بيته. مرّةً هرع يؤدي صلاة الفجر لأنه سمع الديك يصيح. أنهى صلاته وركب دراجته منطلقًا إلى المدرسة. في منتصف طريق رحلته وفي وسط الغابة انتابه الشكّ لأن الجوّ كان شديد البرودة والدنيا حالكة الظلمة والغابة في سكون مطبق. لم يسمع أصوات الطيور تغرّد للفجر. أدرك لينتانج أن الديك قد صاح قبل أوانه، وأن الوقت لم يتجاوز منتصف الليل بعد. جلس تحت شجرة في قلب الغابة الدامسة، احتضن ساقيه، وقبع يرتعد بردًا منتظرًا طلوع الصباح.

في مرّةٍ أخرى انقطعت سلسلة دراجته، فدفع الدراجة عشرات الكيلومترات. ولما وصل إلى المدرسة كنّا نقترب من العودة إلى بيوتنا. آخر درس يومها كان درس الموسيقى. سرَّ لينتانج لأنه كان عليه أن ينشد أغنية «بادامو نيجيري» أو «من أجلك يا وطننا»، أمام الصفّ. كانت تلك الأغنية بطيئة وحزينة:

من أجلك يا وطننا نعطي العهد
من أجلك يا وطننا نخدم
من أجلك يا وطننا نكرّس حياتنا
أنت يا وطننا جسدنا وروحنا

ذهلنا ونحن نسمعه يغني بعاطفة جياشة. الإرهاق الذي عاناه لم يظهر في عينيه الظريفتين. بعد أن أنهى الأغنية مضى يدفع دراجته عائدًا إلى البيت على طول أربعين كيلومترًا.

تهيأ لوالد لينتانج أن ابنه سيتخلّى عن المدرسة خلال الأسابيع القليلة الأولى، ثم ثبت له أنه على خطأ. فحماسة لينتانج لم تخمد قطّ. غدا مدمنًا على فكّ رموز

المعرفة. لم يكن ينعم بالراحة عندما يعود إلى البيت، بل ينضمّ إلى بقية أطفال القرية الذين يماثلونه سنًا ليعمل حمّال جوز هند. ذاك هو الثمن الذي دفعه مقابل امتياز ارتياده المدرسة.

عندما كان لينتانج في الصفّ الأوّل طلب مرةً من أبيه أن يساعده في حلّ مسألة حسابية بسيطة. «تعال بابا، ما حاصل أربعة ضرب أربعة؟»

ذرع الأب الأرض ذهابًا وإيابًا. حدّق بأسى من النافذة في بحر جنوب الصين العظيم، مُعملاً جهده في التفكير. ولما ما عاد لينتانج ينظر، تسلّل بهدوء من الباب الخلفي وركض مثل الريح عبر سيقان الحشيش الطويلة. جرى الرجل الصّنوبرة بسرعة قياسية وبخفّة غزال ليطلب المساعدة من الناس في مكتب القرية. وبعد وقت قصير، مثل وميض البرق، تسلّل عائدًا إلى البيت ووقف فجأةً على أهبة الاستعداد أمام ابنه.

«أررر... أررر... أربعة عشر يا ولدي. هذا مؤكّد، لا أكثر ولا أقلّ،» أجاب وهو يلهث محاولاً التقاط أنفاسه، وفي الوقت نفسه ترتسم على وجهه ابتسامة تشعّ فخرًا.

نظر لينتانج بعمق في عيني أبيه وشعر بوخز في قلبه. منذ ذلك اليوم ازداد لهيب إقباله على المدرسة اشتعالاً. كان جسمه صغيرًا جدًا على دراجته، ولذا لم يستطع الجلوس على سرجها. بدلاً من ذلك اعتاد الجلوس على القضيب الذي يصل السرج بذراعي الدراجة. رؤوس أصابع قدميه لا تكاد تبلغ الدواستين. على هذا المنوال سلك طريقه ببطء يوميًا، جسمه يقفز صعودًا ونزولاً على القضيب الفولاذي وهو يعضّ شفتيه مستجمعًا قوته ليصارع الرياح.

يقع بيت لينتانج عند طرف البحر. كانت الدار كوخًا يقوم على ركائز متينة عالية تحسّبًا لارتفاع مستوى البحر كثيرًا جدًا. السقف مصنوع من سعف نخيل «الساغو» والجدران من لحاء شجر «الميرانتي». وكل ما يجري في الكوخ يمكن رؤيته من الخارج لأن جدران اللحاء القديمة التي مرّت عليها عشرات السنين،

متكسّرة ومهترئة مثل الطين في موسم الجفاف. المساحة في الداخل طويلة وضيقة وتضمّ بابين، واحد في المقدّمة والثاني في المؤخّرة. لم تقفل أي من النوافذ أو الأبواب. كان أهل البيت يربطون الأطر ليلا بخيوط القنّب المجدول رخيصة الثمن.

عاش أجداد لينتانج من أبيه وأمه معهم في تلك الدار. كانت بشرة الأجداد مجعّدة إلى درجة أن المرء إذا شدّها يستطيع احتواءها بكفه. ويوميًا ينحني الأجداد الأربعة على وعاء غربلة ليلتقطوا السوس من أرز الدرجة الثالثة، الصنف الوحيد الذي يمكنهم تحمّل ثمنه. ولطالما قضوا ساعات في تلك المهمّة الشاقّة، فالأرز كان فاسدًا إلى هذا الحدّ.

ضمّ البيت أيضًا شقيقي والد لينتانج الأصغر: أحدهما شاب يتيه في الطرقات طوال اليوم لأنه مريض عقليًا، والآخر عاجز عن العمل لأنه يعاني من التهاب الخصيتين نتيجة سوء التغذية. مع هؤلاء الأشخاص، ومع لينتانج وشقيقاته الخمس وأمّه كان البيت الطويل الضيق مزدحمًا للغاية. مجموع الأشخاص هناك أربعة عشر وكلهم اعتمدوا على الأب في تأمين المعيشة.

انتظر والد لينتانج يوميًا أصحاب القوارب من الغرباء أو الجيران ليعطوه عملاً. لم يحصل على نسبة مئوية مما يصطاده، ولكن تحصيل أجره اعتمد دائمًا على قدراته البدنية. كان رجلاً يكسب قُوته من خلال بيع طاقته الجسدية.

لا تسنح الفرصة للينتانج كي يتفرّغ للدراسة إلا في وقت متأخّر من الليل. كان من الصعب عليه بمكان العثور على بقعة فارغة في البيت بسبب ازدحامه، هذا فضلاً عن أنه عليهم جميعًا تشارك المصباح الزيتي. مع ذلك، وحالما يمسك كتابًا ينطلق ذهنه بعيدًا متسلّلاً من بين شقوق جدران اللحاء المتآكلة. بالنسبة إليه، كانت الدراسة وسيلة ترفيه تنسيه صعوبات الحياة. وكانت الكتب كالماء من النبع المقدّس في الحرم المكي، تساعده على تجديد طاقته ليقود دراجته عكس اتجاه الرياح يومًا بعد يوم.

ثم، في ليلة سحرية وتحت بصيص المصباح الزيتي يرافقه إيقاع المدّ والجزر،

تصفّحت أصابع لينتانج النحيلة نسخة مصوّرةً من كتاب قديم بعنوان «علم الفلك والهندسة». وسرعان ما انغمس الفتى دفعة واحدة في بحر كلمات «جاليليو» ضدّ علم الكونيات كما ناقشه «أرسطو». انتشى بأفكار الفلكيين القدماء المجنونة الذين أرادوا قياس المسافة من الأرض إلى مجرة أندروميدا والسديم الثلاثي. شهق لمّا اكتشف أن الجاذبية يمكن أن تحني الضوء. وأدهشته الكائنات المتنقّلة في زوايا سماوات الكون المظلمة والتي ربما لم تزرها إلا أفكار «نيكولاس كوبرنيكوس».

عندما وصل إلى الفصول التي تتحدّث عن علم الهندسة، استوعب لينتانج بسرعة فائقة التحلّل المعقد جدًا للأسطح رباعية الأبعاد ومسلّمات المتّجهات ونظرية «فيثاغورس». هذه الموادّ كانت أكبر بكثير من عمره وتحصيله العلمي، بيد أنه أمعن التفكير في تلك المعلومات تحت بقعة الضوء الخافت المنبعث من المصباح الزيتي، وفي تلك اللحظة بالضبط، في جوف الليل، تفجرّت تأملاته واختبر لحظةً سحريةً. فعلى الصفحات القديمة أمام وجهه، ضاعت الأرقام والحروف وهي تحلّق وتلجُ رأسه. كان كما لو أنه جالس إلى الطاولة نفسها مع روّاد الهندسة.

في اليوم التالي في المدرسة استغرب لينتانج حيرتنا في فهم إحداثية ثلاثية الأرقام.

ما سبب ارتباك أطفال القرية هؤلاء؟ تساءل صوت قلبه.

تمامًا كما قد يتعذّر على المرء إدراك ما هو عليه من غباء أحيانًا، لا يدرك بعض الناس في كثيرٍ من الأحيان أنهم من النخبة المختارة، وأن الله قدّر عليهم الاقتران بالمعرفة.

١٠

بطل لمرّتين

حدث هذا في شهر آب – شهر حافل بالأخبار السيئة دائمًا.

ما فتئت مدرستنا تتعرّض لمشكلة إثر مشكلة. كانت الضائقة المالية رفيقنا الدائم على مرّ السنين. وافترض الناس دائمًا أن مدرستنا ستنهار في غضون أسابيع. مع ذلك، والفضل لبو مُس وپاك هرفان، نظرنا إلى المدرسة على أنها أفضل شيء يمكن أن يحدث في حياتنا؛ أفضل بكثير جدًا من أن نصبح حمّالين، أو نشتغل بِبَشْر جوز الهند، أو نعمل رعاة أو جامعي ثمار الفَليفلة أو حرّاس متاجر. كنّا مثلاً حيًا على المثل القائل «ما لا يقتلك يجعلك أقوى». وفي حين ما بقي عددنا في الصفّ لا يتجاوز العشرة، بعد سنوات عدّة من عدم وجود قادمين جدد، جاءتنا دفعة تلاميذ أخرى لصفوف أدنى. لم يصلوا إلى العدد الذي أملنا به ولكنهم هناك كانوا.

في جميع الأحوال لم تبلغ أي محنة تعرّضنا لها صعوبة هذه المحنة. محنة انعطاف دراجة «دي كي دبليو» القديمة بعادمها الهادر نحو مدرستنا. أووه.. آآه.. ها هو قد عاد.

كان راكب الدراجة النارية رجلاً كبير السن ضئيل البُنية وسميك النظارات، جبهته عريضة ولامعة. الأوردة النابضة في صدغيه أوحت أنه غالبًا ما فرض على الآخرين جدول أعماله. ولا تخفى على أحد حقيقة أن الأشخاص الذين يدأبون على توبيخ الآخرين يفقدون عادةً قدرتهم على التعامل بخلُق حسن. اشتهر هذا الرجل بعدم مرونته في اللجوء إلى الحلول الوسط. كلمة واحدة منه يمكن أن تغلق

مدرسة بأكملها، يمكن أن تفصل المديرين، يمكن أن تحرم الأساتذة من الترقية إلى يوم تقاعدهم، أو ربما تنفيهم إلى جزيرة معزولة قد لا يظهر لها أثر على الخريطة، ليعلّموا الأطفال البدائيين وقرود المكّاك ذات الذيول القصيرة. مجرد لمح نظارة هذا الرجل جعلت فرائص جميع المعلّمين في بيليتونج ترتعد. إنه السيد صمديكون مفتش المدارس العام.

قبل سنوات، في ذلك اليوم المدرسي الأول، نجحنا في الانفلات من بين أصابع السيد صمديكون عندما أنقذنا هارون بإكمال عددنا إلى العشرة. لم يُسرّ السيد صمديكون لمّا حدث هذا. أراد أن يغلق مدرستنا منذ بعض الوقت، لأنها سبّبت عملاً إضافيًا مزعجًا للمسؤولين في وزارة التربية والتعليم. طالبوا مرارًا وتكرارًا بإجلائها من على وجه البسيطة. والسيد صمديكون نفسه تبجّح مرةً أمام مسؤول أعلى منه بقوله، «إيه، سأتكفّل بمشكلة مدرسة المحمدية. بركلة واحدة أستطيع أن أرديها أرضًا.»

تصوّرت في خيالي بعد تلك التصريحات المتغطرسة أن السيد صمديكون والمسؤولين شربوا نخبًا، وقارعوا في ما بينهم كؤوس حليب نخيل السكر؛ شراب الرشوة المفضّل للأساتذة الذين يسعون إلى الحصول على ترقية أو يرغبون في الانتقال من المناطق المعزولة.

وهكذا تمخّض ذهن السيد صمديكون عن شرط دبلوماسي ووجيه ليغلق مدرستنا. الشرط هو توافر عشرة تلاميذ. شرط تحقّق على نحو مفاجئ في اللحظة الأخيرة بقدوم هارون. وصل انزعاج السيد صمديكون من مدرستنا أبعد الحدود، خصوصًا من هارون.

كان هو شخصيًا المسؤول عن التأكّد من خضوعنا للامتحانات في مدرسة أخرى لأن المسؤولين اعتبروا مدرستنا غير مؤهّلة لإدارة امتحاناتها الخاصة. ولم يشعر بالرضا عنّا أيضًا لأننا لم نحصل على أي جائزة. ففي ظلّ نظام التعليم

التنافسي الحالي، يمكن أن تصِمَ مدرسة كمدرستنا النظام كلّه بعار العجز.

غدا وجه بو مُس بشحوب الأشباح عندما وصل السيد صمديكون في زيارة تفتيش مباغتة. وإمعانًا في زيادة سوء مجرى الأمور، كانت وحدها في المدرسة بسبب المرض الذي أقعد باك هرفان عن الحضور طوال الشهر الماضي. ومرضه، حسب ما قال المعالج المحلّي يعود إلى تنشّقه غبار الطباشير الرخيصة لعشرات السنين.

استرق السيد صمديكون النظر داخل حجرة الدراسة. حالما رأى خزانة العرض الفارغة ارتسم على وجهه تعبير استخفاف. فقد درج على رؤية الجوائز في خزانات العرض.

حتى قبل أن يحدث أي شيء آخر، ارتكبت بو مُس خطأ فادحًا بسبب ما اعتراها من قلق بالغ. «رجاءً تفضّل يا پاك،» قالت بأدب.

نظر إليها السيد صمديكون شزرًا وزمجر، «ادعيني السيد!»

كان معروفًا لدى الجميع أنه يرفض مناداته بلقب پاك صمديكون. ربما يعود هذا إلى تأثير أساتذته الهولنديين، أو ربما لأنه يريد الحفاظ على سلطته.

على أي حال، ومهما كان السبب، أصرّ على أن يقال له «السيد».

أخرج السيد صمديكون استمارة تفتيش المُنشأة. شخر ونخر مرّة تلو مرّة ليجعل خيبة أمله ظاهرة للعيان. في عمود لوح الطباشير والأثاث اضطر إلى إضافة خيار جديد: تحت (ه) سيئ أضاف (و) سيئ جدًا. في عمود الرموز الوطنية؛ صور الرئيس ونائب الرئيس والشعار الوطني، وفي عمودَي عدّة الإسعافات الأولية ووسائل الإيضاح اضطرّ إلى إضافة خيار جديد مرة أخرى: (و) معدوم. وفي عمود المرحاض ومرافق الإضاءة أضاف (و) مصادر طبيعية.

ثم جاء دور فقرة حالة التلاميذ. أخذ نفسًا طويلاً وعميقًا ونظر إلينا. كان معظمنا لا ينتعل أحذية، وثيابنا البالية تنقصها بعض الأزرار. أما قميص مهار فبلا أزرار على الإطلاق. تسمّر السيد صمديكون في أرضه لما رآني أنا ولينتانج

نتقلّد مقلاعين. تهتَه من مرأى بقع الجوافة تلطّخ قميص كوتشاي. في عمودَي حالة التلاميذ وتكامل هيئاتهم، لم يكن الخيار (و) سيئ للغاية كافيًا ليصِفنا، فأضاف خيارًا جديدًا من ابتكاره (ز) مُزرٍ.

سألَنا السيد صمديكون، «من لديه آلة حاسبة، وبوصلة وأقلام تلوين؟»

لم نجب ولا بكلمة. قطّب مهار جبينه. كنّا حاليًا في الصفّ الخامس ولا فكرة لدينا عن أي من تلك الأشياء.

التفت السيد صمديكون إلى بو مُس. «بو مُس، لم أر في حياتي صفًا مزريًا كهذا. أتُسمّين هذه مدرسة؟ هذا المكان لا يختلف عن حظيرة حيوانات!»

ازداد شحوب بو مُس التي وجدت نفسها محشورة في الزاوية.

«أطفالك هؤلاء يشبهون صيادي الغزال الفأر لا التلاميذ!»

ابتلعت بو مُس الإهانة، لكن بدا واضحًا أن الإهانة لم توهن ولا قيد أنملة من اعتزازها بنا.

«لا خيار آخر. لا بُدّ أن تُغلق هذه المدرسة!»

صُعقت بو مُس. كانت تستطيع الجلوس وتقبّل الإهانات، أمّا أن تسمح بإغلاق مدرستها فهذا ضرب من المستحيل.

«مستحيل يا سيد. مضى علينا ونحن ندرس هنا خمس سنوات.»

كانت بو مُس شجاعة حقًا. لم يحدث من قبل قطّ أن واتت الشجاعة أي معلّم ليتحدّى السيد صمديكون.

«ماذا عن أطفال القرية هؤلاء؟» تابعت بو مُس.

اهتاج السيد صمديكون. «هذه مشكلتك لا مشكلتي! انقليهم إلى مدارس أخرى.»

«مدارس أخرى؟ أقرب مدرسة حكومية تقع في تانجونج باندان. من المستحيل فصل هؤلاء الصغار عن أهاليهم. ولا يمكنهم أن يتحمّلوا نفقات ارتياد مدرسة هناك. مدرسة الـــ پ ن قريبة إلا أنهم هناك يرفضون قبول أطفال على هذه الدرجة من الفقر.»

تعكّر مزاج السيد صمديكون كثيرًا فأخذ يرغي ويزبد. أردنا أن نقف إلى جانب بو مُس لكن الخوف لجمنا كلّنا ما عدا هارون. هارون الذي ارتسمت الابتسامة على وجهه طوال الوقت من غير أن يفقه شيئًا مما كان يجري.

«لقد استوفينا شرط عشرة تلاميذ. وإذا كانت المسألة تتعلّق بعدّة الإسعافات الأولية، فنحن...»

«ليس هذا فقط!» قاطعها السيد صمديكون. «هناك هارون أيضًا!»

استغلقّ الكلام على بو مُس؛ فقد تطرّق الرجل إلى نقطة حساسة. وموضوع هارون شكّل لها دائمًا موطن ضعف. ولم تتردّد يومًا في الدفاع عنه.

على العكس من بو مُس سرّ هارون كثيرًا لمّا سمع اسمه يُذكر.

«ماذا عن هارون؟» سألت بو مُس أخيرًا بنبرة دفاعية.

«لا يمكنه ارتياد هذه المدرسة. إنها ليست المكان المناسب له. ينبغي أن يذهب إلى مدرسة خاصة بالمعوقين! في جزيرة بانجكا!»

حاولت بو مُس التمسّك بهدوئها. كنا نعرف مدى حبّها لهارون. وأدركنا في الوقت نفسه أن السيد صمديكون قد اتخذ قراره وأن بو مُس ليست إلا معلّمة في مدرسة قرية.

انتفخت أوداج بو مُس. «يا سيد،» قالت بصوت ضعيف، «هذه المدرسة هي أفضل مكان لهارون. وهو يبذل جهده في الدرس هنا، كما أنه سعيد للغاية مع رفاقه. رجاءً لا ترسله بعيدًا.»

لم يتأثّر السيد صمديكون. «الدرس؟ ما الممكن أن يدرسه هنا؟»

كان هارون في الواقع يتلقّى دائمًا معاملة خاصّة. وكلّما ترفّعنا صفًا ترفّع معنا على الرغم من عدم حصوله على تقرير رسمي.

أرادت بو مُس أن توضح أن حالة هارون قد تحسّنت كثيرًا في المدرسة، وأنه عثر على السعادة معنا. لم تكن ضليعة في علم النفس، لكنها رأت أن البيئة الطبيعية هي ما يحتاجه الأطفال المعوقون مثل هارون. إلا أن فمها بقي مغلقًا.

طلب السيد صمديكون من هارون أن يأتي إليه. لم تكن المحاباة شيئًا يعرفه

هارون. حاول الصبي أن يحيي السيد صمديكون بطريقة ودّية. لم يعرف أن مصير مدرستنا بين يديه. من غير أن يُسأل وفيما هو يحاول الاتكاء على كتف السيد صمديكون، قصّ هارون حكايته الخالدة عن قطته ذات الألوان الثلاثة التي وضعت ثلاث قطط في اليوم الثالث من الشهر، حتّى بو مُس حاولت جاهدة إسكاته.

«طيب، أريد أن أعرف ماذا تعلم هارون في السنوات الخمس الماضية.» شدّد السيد صمديكون بوضوح على جملة في السنوات الخمس الماضية لأنه أراد أن ينكر ما بذلته بو مُس من مجهود مع هارون، وأراد أن يفتّ في عضدها بالبرهنة على أن المدرسة ليست مناسبة لهارون. هارون، بقلبه الأبيض بقي خليّ البال وغافلاً عن المعركة الجارية. شعّ وجهه فخرًا لأنه يُسأل، شعر بأهميته. «ما هي طموحاتك المستقبلية يا هارون؟»

نظر هارون إلى السيد صمديكون بجدّية عظيمة. ابتسم بينه وبين نفسه. كان السؤال بالنسبة إليه مثل لعبة مسلية. طموحات؟

«ما يعنيه يا هارون، هو ماذا تريد أن تصبح عندما تكبر؟ أتريد أن تصبح طبيبًا أو مهندسًا أو ربّما طيارًا؟» أوضحت بو مُس بلطف.

«أوووه!» هتف هارون بنبرة شخص يعود بذهنه إلى الوراء سابرًا أغوار وعيه بعد غيبوبة دامت أسبوعًا كاملاً.

«شكرًا يا إيبوندا غورو،» تابع هارون وهو يرفع رأسه وينظر إلى السيد صمديكون. أشرق بريق في عينيه، ثم فجأة عاد وطأطأ رأسه. بدا كما لو أنه يعرف الجواب لكن الحياء يمنعه من البوح به.

«ماذا تريد أن تصبح يا هارون؟» سأله السيد صمديكون من جديد.

أشار هارون بخجل إلى ترابانى. نظر السيد صمديكون وبو مُس إلى ترابانى. ارتبك ترابانى.

«لا تخجل،» داهنه السيد صمديكون.

أشار هارون إلى ترابانى مرةً أخرى. لم يفهم أحد تصرّف هارون الغريب ذاك، أما أنا فعرفت. في يوم ما، ونحن في الصفّ الثالث، دعاني هارون لنتسلّق معًا قمّة

مئذنة جامع الحكمة. أراد مكانًا هادئًا لا أحد فيه ليساررني بطموحاته المستقبلية. لم يأتمن غيري بهذه المعلومة. ولأحافظ على السرّ رشاني بثلاث درنات «كلاديوم» مسلوقة. وضعت يدًا على الوجبة الثلاثية الخفيفة ورفعت الثانية عاليًا في الهواء لأقسم على عدم إفشاء سرّه.

بدا لي، عندما أشار هارون إلى تراپاني، أنه قد أفشى بنفسه السرّ ورفع الغطاء عن طموحه الخفي. فاعتبرت أن قيامه بهذا يحرّرني من قسم درنات «الكلاديوم». وإذ رأيت السيد صمديكون يحثّ هارون بلا هوادة ليجيب لم أستطع منع نفسي من الكلام.

«عندما يكبر يريد هارون أن يصبح تراپاني،» قلت. ذُهل الجميع. ابتسم هارون ابتسامة عريضة وطأطأ رأسه وأخذ جسمه يهتزّ وهو يحاول جاهدًا كبت ضحكه.

نال تراپاني إعجابنا كلّنا؛ كان أكثر واحد في مجموعتنا تهذيبًا وأناقة. ولذلك طمح هارون بصمت أن يصبح تراپاني عندما يكبر. المشكلة طبعًا هي أن هذا الطموح صعب التحقيق إلى حدّ بعيد، نظرًا إلى أن هارون أكبر بكثير من تراپاني.

شزر السيد صمديكون بو مُس بنظرة يقدح منها الشرر. ومع ذلك سعى إلى المزيد.

«طيب يا هارون، اختبار أخير. ما حاصل جمع اثنين واثنين؟»

هذه المرّة تمادى كثيرًا في إلحافه. اختار السيد صمديكون عن عمد سؤالاً بمنتهى السخف يستطيع حتى الأطفال-الذين لم يدخلوا المدرسة بعد أن يجيبوا عليه، كلّ ذلك للإمعان في إهانة بو مُس.

تقدّم هارون من السيد صمديكون بخطى واثقة. «يا سيد،» قال بهدوء، «أنت تمازحني، أليس كذلك؟»

«لا يا هارون، هذا سؤال جدي. أريد أن أعرف ما تعلّمت طوال هذا الوقت.»

«أوه يا سيد، لا ريب في أنك تمازحني! هذه مسألة حسابية بسيطة. لقد سبق أن تعلّمت الجمع، وأستطيع أن أصل في الجمع إلى المئات، لا مشكلة!»

«عظيم يا هارون.»

تشنّج وجه السيد صمديكون وهو يرى ثقة هارون. أدرك أنه ارتكب خطأ فادحًا. السؤال سهل للغاية! ندم على طرحه هذا السؤال السهل. على الأقلّ كان يمكنه أن يطلب حاصل ضرب اثنين في اثنين.

ضمّت بو مُس ذراعيها إلى صدرها. كانت متوترة، لكنها آمنت أن هارون قادر على الإجابة. لم تكلّ قطّ عن العمل معه بجهد على درس الجمع. صلينا إلى الله عزّ وجلّ، يحدونا الأمل في أنها محقّة. غدت عيون سهارى ومهار كالزجاج. كنّا مهووسين بحبّ مدرستنا الفقيرة ولم نشأ أن نفقدها. واعتقدنا أن هارون وللمرّة الثانية سينقذنا. أنه بطلنا المجهول.

«طبعًا أعرف،» أجاب وهو يكتّف ذراعيه. «سهل للغاية.»

«كم يا هارون؟»

ارتفعت ذراع هارون عاليًا وهو يصيح واثقًا من نفسه، «ثلاثة!»

١١

بَذْر

«لديكم فرصة أخرى واحدة فقط، وإذا لم ألمس أي تقدّمٍ فهذه نهايتكم!» هدّدنا السيد صمديكون.

انتهى أخيرًا التفتيش المباغت والمحرج، وبدأ السيد صمديكون يحدّد الإجراءات اللازمة لاستكمال تقريره. استدعى مصوّرًا ليلتقط صورًا لمدرستنا من زوايا مختلفة. وكلما التقط المصور صورة، سعى هارون إلى الظهور فيها. حينما بادر المصوّر إلى التقاط صورة جهة المدرسة الخلفية، ظهر رأس هارون فجأة من عند حافة النافذة، وعلى وجهه ابتسامة عريضة كشفت عن أسنانه الطويلة الصفراء. لم يمتلك أدنى فكرة أن تلك الصور تُلتقط لتحطّ من شأنه ولتغلق مدرستنا؛ كان تركيزه منصبًا على الوضعية التي يتخذها في الصور.

بعد أن طُبعت الصور وبدأ السيد صمديكون يستعرضها ظهر جليًا أن انحناء بناء مدرستنا إلى الجانب قد بلغ مستوى مقلقًا. لاحت مثل برج بيزا المائل تقريبًا. عرفنا أن السيد صمديكون سيوزّع التقرير والصور على أوسع نطاق يمكن أن يصل إليه.

لم يوهن أي من هذا من عزيمة بو مُس أو يزعزعها. نفخت فينا الروح كالعادة بالاقتباس من آيات القرآن الكريم.

«تجمّلوا بالصبر،» لاطفتنا. «فإن مع العسر يسرًا.»

بعددٍ قليل من الكلمات القوية، وبلا لجوء إلى خطاب طويل النفس، نفخت فينا بو

مُس روح التصميم لندافع عن مدرستنا مهما بلغت قسوة الظروف. ذاك يا صديقي ما يُسمى الموهبة القيادية أو الكاريزما.

لم تسمح بو مُس لمشكلة السيد صمديكون أن تثبط عزيمتها على الرغم من قلقها. خصوصًا أن لينتانج استطاع أن يستولي على انتباهها.

منذ ذلك اليوم الذي كتب فيه لينتانج بنود الاستمارة في الصفّ الأول، ساور بو مُس شعور بأنه صبي موهوب. لاحقًا، مثل حدّاد يسنّ نصل سكين، عملت بو مُس بدقّةٍ على شحذ عقل لينتانج. وشيئًا فشيئًا، وبين يديها الثابتتين بدأ ذكاؤه يتألّق.

كنّا كلّنا مسحورين بلينتانج. ربّاه! ذاك الصبي الذي يجمع الأصداف كان حادّ الذهن للغاية. عيناه المشرقتان تشعّان ذكاءً. وجبهته تضيء كأنها المصباح. ولم يدر پاك هرفان وبو مُس ما يمكن أن يقوما به من أجله.

كان الأسرع في طي الأوراق إلى أشكال هندسية. الأفضل في القراءة. أما موهبته الأكثر وضوحًا فتجلّت في الرياضيات. وبينما بقينا نتعثر ونتلعثم في جمع الأعداد الزوجية، تخطانا بمراحل وبرع في ضرب الأعداد الفردية.

تلقّنا كلّنا بصعوبة المسائل الحسابية، أما هو فتمرّس في قسمة الكسور العشرية، وحساب الجذور، والعثور على الأسس؛ بل استطاع حتى أن يفسّر بالكامل العلاقات العملية في الجداول اللوغاريتمية. نقطة ضعفه الوحيدة، إذا جاز أن تُسمّى نقطة ضعف، ظهرت في خطّه الفوضوي الذي يشبه خرابيش الدجاج. وربما يعود سوء خطّه إلى عجز مهارة أصابعه الحركية عن مواكبة فكره الذي يسابق الزمن.

«ثلاثة عشر ضرب ستة، ضرب سبعة، زائد ثلاثة وثمانين، ناقص تسعة وثلاثين!» تحدّتنا بو مُس من مقدّمة الصفّ.

نزعنا الأربطة المطاطية التي نحفظ بها ما لدينا مِن حفنات أغصان، أخذنا ثلاثة عشر غصنًا منها على ست دفعات، وجمعناها بشقّ النفس. ثم أعددنا سبعة أكوام أخرى من الأغصان ورقّمناها كما فعلنا بالمجموعة الأولى. وحسبنا عدد كلّ كومة غصنًا غصنًا وذلك لنعرف حاصل الضرب الثاني، ثم أضفنا ثلاثة وثمانين غصنًا وطرحنا بعد ذلك تسعة وثلاثين غصنًا. استغرقنا تقريبًا سبع دقائق لنحلّ المسألة.

كانت وسيلة فاعلة بالتأكيد إنما غير فعّالة.

في هذه الأثناء، أغمض لينتانج عينيه للحظة من غير أن يلمس غصنًا واحدًا، وبعد ما لا يزيد عن خمس ثوانٍ صاح، «خمسمئة وتسعون!»

لم يخطئ ولا بعدد واحد. حدث ذلك في أوّل يوم لنا في الصفّ الثاني.

«رائع أيّها الصبي الساحلي، ممتاز!» مدحته بو مُس. وأغراها هذا على اختبار الحدّ الذي تصل إليه قدرات لينتانج الذهنية. «ثمانية عشر ضرب أربعين ضرب ثلاثة وعشرين زائد أحد عشر زائد أربعة عشر ضرب ستة عشر ضرب سبعة!»

أمسكنا أغصاننا. بأقل من سبع ثوانٍ ومن غير أن يكتب لينتانج عددًا واحدًا، ومن غير تردّد، ومن غير أن يطرف له جفن صاح، «ستمئة وواحد وخمسون ألفًا وتسعمئة واثنان وخمسون!»

«بَدْر يا لينتانج! جوابك بجمال القمر المكتمل! أين كنت تختبئ طوال هذا الوقت؟»

بذلت بو مُس كلّ ما في وسعها لتكتم ضحكها الهستيري. كان غير وارد بالنسبة إليها أن تضحك بصوت عالٍ. معتقداتها الدينية تحول دون هذا. بدلاً من ذلك واصلت هزّ رأسها تعبيرًا عن اعتزازها بلينتانج، ونظرت إليه كما لو أنها أمضت حياتها كلّها تبحث عن تلميذ مثله.

نحن، من ناحية أخرى، تفجّرت فينا الأسئلة عن كيف استطاع لينتانج أن يقوم بذلك. فكانت هذه وصفته: أولاً، احفظوا عن ظهر قلب جداول ضرب الأعداد الفردية فهي مخادعة. اطرحوا جانبًا الأرقام الأخيرة في عمليات ضرب الأعداد الزوجية؛ لأنه من الأسهل أن تضربوا الأعداد المنتهية بالصفر، ثم أحسبوا الباقي الذي طرحتموه لاحقًا، ولا تأكلوا كثيرًا بحيث تصيبكم التخمة؛ التخمة تسدّ الأذنين وتبطئ عمل الدّماغ.»

كان جوابه بريئًا بما فيه الكفاية، ولكن من مجرّد التمعّن في هذا الجواب، مع أن لينتانج ترفّع للتوّ إلى الصفّ الثاني، يدرك المرء أنها مؤشّرات تدلّ على تعقيد معرفي عالٍ، وهذا يظهر جليًا في تطويره تقنياته الخاصة لتعيين مواضع الصعوبة وتحليلها ثم حلّها.

مع مرور الوقت، اكتشف لينتانج أن ميزة تركيبة عقله هي الذكاء الحَيزي. كان متقدّمًا جدًا في الهندسة متعددة الأبعاد. يمكنه بسرعة تخيّل أسطح شيء من زوايا مختلفة. ويستطيع حلّ القضايا الحديثة المعقدة الخاصّة بالتحلل ذي الأبعاد الرباعية، وعلّمنا كيف نحسب مساحة المضلّع عن طريق تكسير جوانبه باستخدام النظرية الإقليدية. وأودّ أن أقول إن هذه ليست مسائل سهلة.

لم يكن لينتانج لامع الذكاء فقط، بل أيضًا مبدعًا فكريًا. كان يُجري تجارب على صياغة حيل لتحفيز الذاكرة بهدف حفظ الأشياء عن ظهر قلب وتذكُّرها. وصمّم على سبيل المثال تركيبته الخاصة للجسم: الجهاز التنفّسي، الجهاز الهضمي، حركات البشر والفقاريات واللافقاريات وحواسّها.

لذا، إذا سألناه كيف تتبوّل الديدان، علينا أن نستعدّ لنسمع منه تفسيرًا دقيقًا وذكيًا جدًا وزمنيًا ومفصلاً عن طريقة عمل «الزُغيبات». ثم، وهو مسترخٍ كما يسترخي قرد يُفلّي القمل، يبدأ بمماثلة جهاز الدودة البولي بنظام إفراز أحاديات الخلية من خلال التشريح المغرق في التعقيد للحويصلة النابضة. وإذا لم يستوقفه أحد، يتابع بكل سرور ويشرح وظائف الطبقة الخارجية لأعضاء الجسم، و«كبسولة بومان»، والنخاع وجسيمات «مالبيغي» في نظام الإفراز لدى الإنسان. وبسبب تصميم حيل الذاكرة الخاصّة به التي يطلق عليها البعض اسم «جسر الحمار» استطاع لينتانج التبحّر في نظام الإفراز كلّه بسهولة سحق بعوضة منتفخة.

لطالما تملّكت الإثارة لينتانج كلما حان دوره ليكنس مكتب پاك هرفان. وعندما يكون هناك، يقرأ عن الهندسة والبيولوجيا والجغرافيا والتربية الوطنية والتاريخ والجبر ومواضيع أخرى مختلفة من مجموعة كتب پاك هرفان. بعض الكتب بالإنجليزية والهولندية. ولطالما أرشده پاك هرفان بصبر وأناة، وسمح له باستعارة الكتب.

كان هاجس لينتانج تعلّم أمور جديدة. وكلّ معلومة حصل عليها شكّلت فيه فتيل معرفة يمكن أن يفجّره في أي لحظة.

جرت الحادثة التالية يوم نجا من التمساح الجائم بعد أن أنقذه بودينغا شامان التماسيح.

«يشير القرآن أحيانًا إلى أسماء أماكن يجب أن تفسّر بعناية،» أوضحت بو مُس أثناء درس تاريخ الإسلام، مادة إلزامية في مدارس المحمدية، ومن المستحيل أن يحلم أحد بالترفّع صفًا مع علامة متدنية في تلك المادّة.

«على سبيل المثال، أدنى أرض غزاها الفرس في سنة....»

«٦٢٠ بعد الميلاد! غزت فارس إمبراطورية هيراقليطس التي وقعت أيضًا تحت تهديد بلاد ما بين النهرين والصقليين والمتمردين الفلسطينيين. وهاجمها كذلك الآفار والسلاف والأرمينيون،» قاطعها لينتانج. أصابنا الذهول وابتسمت بو مُس.

«تلك الأرض الأدنى هي...»

«بيزنطة! الاسم السابق لقسطنطينية، مدينة قسطنطين العظيم الأبية. بعد سبع سنوات، استردّت بيزنطة استقلالها، الاستقلال الذي ذُكر في القرآن الكريم وأنكره العرب من غير المسلمين. ما سبب تسميتها الأرض الأدنى يا إيبوندا غورو؟ وما سبب تحدّي القرآن الكريم؟»

«صبرًا يا صغيري. جواب سؤالك ينطوي على تفسيرات من سورة الروم التي تتضمّن على الأقلّ أربعة عشر عامًا من المعرفة. ندرس التفسير لاحقًا في الصفوف العليا.»

«غير ممكن أبدًا يا إيبوندا غورو. هذا الصباح كاد يبتلعني تمساح. ليس لدي وقت للانتظار. اشرحي كلّ شيء، واشرحيه الآن.»

هلّلنا ابتهاجًا، وللمرّة الأولى فهمنا معنى أدنى الأرض، حرفيًا هي الأرض الأقرب، وبالتفسير تعني الأرض الأكثر انخفاضًا. ذاك الموضع ليس إلا بيزنطة في الجزء الشرقي من الإمبراطورية الرومانية. أذهلنا اندفاع لينتانج لتحدّي نفسه. وإذا لم يشعر القلب بالغيرة من شخص يمتلك المعرفة، يمكن حينها أن تسلّط عليه أشعة التنوير ضوءها. فالذكاء مثل الغباء معدٍ.

«هيّا يا أولاد، لا تتركوا هذا الصبي الساحلي بشعره المجعّد يجيب وحده عن

الأسئلة،» حثّتنا بو مُس.

تزامن قولها هذا مع اللحظة التي شعرت فيها بالميل إلى الإجابة، يتملّكني الشعور بالتردّد، والإحراج وعدم التأكّد. ذلك أدّى عادة إلى مجانبتي الصواب. وعندئذٍ ينبري لينتانج إلى تصحيح أخطائي بدافع روح الصداقة.

اجتهدت في الدرس كلّ ليلة ولكنني لم أقترب قطّ ولا حتى قليلاً من لينتانج، ناهيك عن التفوّق عليه. علاماتي زادت قليلاً عن علامات بقية رفاقي وبقيت دومًا أدنى من علاماته. كنت دائمًا في ظلّ لينتانج. ومنذ الربع الأوّل في الصفّ الأوّل، حللت بشكل مستمرّ في المرتبة الثانية، ولم يتغيّر هذا قطّ، تمامًا كما يبدو لي سطح القمر مثل أمّ تحمل طفلها. كان صديقي ورفيق مقعدي الذي أحببته حبّي لأخي هو خصمي اللدود وعدوّي الأوّل.

لم ينعِم الله على لينتانج بالعقل فقط بل أيضًا باركه بشخصية حلوة. كلّما وجدنا نعاني من مصاعب في فهم الدروس ساعدنا بصبر وشجعنا بصدّق. تفوقه لم يشكّل تهديدًا للذين حوله، تألّقه لم يسبّب الغيرة، وعظمته لم يبدر عنها أدنى تلميح بالغطرسة. كان نسمة هواء عليلة لمدرستنا، مدرستنا التي تجاهلها الآخرون لفترة طويلة. شيئًا فشيئًا أصبح لينتانج وعقله الجاذب قوّتنا الدافعة. مضى إلى الأمام يحفّزه وقع طبوله الخاصة. وتبعناه ونحن نراه مثلنا الأعلى وترنيمتنا المُقفّاة.

ثم جاءت أخبار جعلت قلوبنا تتسارع. دُعيت مدرستنا لتشارك في مباراة تحدٍّ أكاديمي في العاصمة الإقليمية تانجونج باندان. ومسابقة التحدّي هذه تُعقد سنويًا، وتعتبر حدثًا مهيبًا بحقّ.

مضى على آخر مشاركة لنا في تلك المسابقة زمن طويل جدًا. ولطالما فشلنا فشلاً ذريعًا. ولذلك، لتجنّب الخزي قرّرنا ألا نتبارى مع أحد.

مع وجود لينتانج بيننا حدانا الأمل. كان منافسونا من مدرسة الـــ ب ن ومدارس الدولة أذكياء إلى أبعد الحدود، وفازوا دائمًا على المستوى الوطني، لكن لينتانج منحنا شعورًا بالثقة. أتراه يستطيع إلحاق الهزيمة بهم؟ أيقدر جسمه الهزيل على دعم مدرستنا المتداعية. المدرسة التي يُستبعد أن يأتيها أي تلاميذ جدد في السنة التالية؟

لم يملك لينتانج أي خيار ما عدا الانكباب على الدراسة بجدّ. ولذلك، جاءت بطاقة علاماته في الربع الأول من الصفّ الخامس رائعة. حلّت علامة تسعة في مادّة العقيدة والقرآن والفقه والتاريخ الإسلامي والجغرافيا وصولاً إلى اللغة الإنجليزية. وبالنسبة إلى الرياضيات والموادّ المشابهة لها مثل الهندسة والعلوم الطبيعية تجرأت بو مُس وأعطته علامة كاملة: عشرة. أدنى درجة عنده كانت ستة على مادّة الفنون. ففي هذه المادّة لم يقدر على منافسة الفتى صاحب الأطوار الغريبة، الهزيل والوسيم الذي يجلس في الزاوية. ذاك الفتى الساحر هو رفيق مقعد تراباني. واسمه مهار، وعلى شفتيه ترتسم دائمًا ابتسامة عابثة.

١٢

خانَ التناغم

أقبلت الفراشات المذنّبة الخضراء، تزور أطراف أوراق شجرة الفيلسيوم؛ تلك الفراشات الاستوائية الآسرة ذات الخطوط الزرقاء المخضرّة. ثم لم تلبث أن تبعتها أنواع أخرى: فراشات أبو دقيق الفضّة الأصفر الخالص وأبو دقيق الفضّة الدانوب

لا يستطيع سوى الخبراء التمييز بين النوعين المتشابهين في الاسم. ويطلق عليهما باللاتينية على التوالي *Colias crocea* و *Colias myrmidone*. والعين غير الخبيرة ترى أن النوعين معًا وعلى قدم المساواة يتمتعان بجمال لا تشوبه شائبة.

بخلاف الطيور الصغيرة ونزعاتها العدوانية والاستعراضية، هذه المخلوقات الكتومة قصيرة العمر وغير واعية بجمالها. وعلى الرغم من أنها كانت هناك بالمئات لم يندّ عنها صوت وهي ترفرف في الأرجاء. وإذا راقبها المرء بعناية يدرك أن كلّ حركة من حركاتها مهما بدت طفيفة تتناغم مع غيرها كخفقات القلب. كانت في الوقت نفسه تؤلّف مجتمعةً أوركسترا ألوانٍ قائدُها الغريزة، مشكّلة مشهدًا يضاهي حتى جنّة عدن. ومجرّد تأمّلها استحثّ فيّ دومًا رغبة كتابة الشعر.

على أي حال، في هذه الظهيرة المميزة، لم يقتصر التناغم على الفراشات وحدها. استمع معي:

«... فليلفلف علمي...

«...الرمز السابت الموقدس...

«...يلوح! يتحالك! يتحالك!»

كان آكيونج يغنّي نشيد إيبو سود «بيركيبارلا بينديراكو» أي «فليرفرف علمي» كأنه رقيب في تدريب عسكري. وكان الاستماع إليه مؤلمًا.

بينما غنّى، حدّق خارج النافذة مثبّتًا عينيه على كرمة القرع بإزاء الأغصان الواطئة لشجرة الفيلسيوم. لم يلق نحونا نظرة واحدة. بدا كما لو أن أذنيه قد انفصلتا عن صوته وهما تصغيان باهتمام إلى تغريد الطيور الهازجة الذي طغى على طنين إناث الخنافس الصفراء. لم يبال آكيونج بطبقة صوته ولم يكلّف نفسه عناء تنغيم غنائه.

الحقّ يُقال، لم نعره أي انتباه. لينتانج سارح في النظرية الفيثاغورسية. هارون مستغرق في النوم ويشخر. شمشون يرسم صورة رجل يرفع منزلاً. سهارى منهمكة في تطريز رموز عربية على رقعة التطريز والتي تقول: قُل الحقّ ولو كان مُرًّا. ترابانى يطوي ويفرد ويطوي من جديد منديل أمه. أما أنا وشهدان وكوتشاي فشُغلنا بالحديث عن أزياء تلاميذ مدرسة الـ پ ن وكيف سنعلّق دراجة معلّم الدروس القرآنية على أغصان شجرة «البانتان». مهار وحده استمع إلى غناء آكيونج بيقظة.

حجبت بو مُس وجهها بيديها وهي تحاول عبثًا كتم ضحكها بينما استمعت إلى العواء.

انتهى آكيونج ونظرت بو مُس نحوي: دوري. بعد أن وبّختني لإصراري دائمًا على أداء أغنية «اِقطع رأس الإوزة»، قرّرت هذه المرّة أن أرتقي قليلاً بأغنية جديدة: «إندونيسيا حرّة إلى الأبد» لـــ «سي سيمانجونتاك». عندما باشرت الغناء، رفعت سهارى نظرها من رقعة التطريز ورمتني بنظرة اشمئزاز. تجاهلت إهانتها وتابعت الغناء بحميّة.

«... هتافات الفرح.. فرح للجميع...

«... وطننا تحرّر... إندونيسيا حرّة...»

واصلت الغناء وأنا أتنقّل بحرّية من نغمة إلى نغمة. لم أمتلك أي سيطرة على صوتي، ناهيك عن تحقيق أدنى قدر من التناغم.

انهمرت الدموع على وجه بو مُس التي اهتزّ جسمها من شدّة مقاومتها الانفجار بالضحك. حاولت مستميتًا تحسين صوتي، لكن كلّما زدت مجهودي، زادت غرابة الصوت. هذا ما يعنونه بمصطلح غير موهوب. كافحت لأنهي الوصلة. لم يتعاطف رفاق صفّي معي. هم أيضًا عانوا من صوتي ومن النعاس والجوع والعطش في حرارة منتصف اليوم. غنائي زاد الأمور سوءًا.

أنقذتني بو مُس وهي تطلب مني التوقّف قبل أن تنتهي الأغنية العظيمة. ثم نظرت إلى شمشون.

اختار شمشون أغنية «قوي وطيد ومطوّق بالصلب» وهي أيضًا لـــ «سي سيمانجونتك». لاءمت الأغنية جسد شمشون الضخم، وأنشدها بصوت يصمّ الآذان وهو يحني رأسه ويضرب الأرض بقدمه.

«... قوي وطيد ومطوّق بالصلب!

«... سلسلة الروح مُحكمة!

«... منتصبة قلعة إندونيسيا!»

هو أيضًا لم يعرف شيئًا عن مفهوم التناغم، وحوّل الأغنية المحبوبة إلى واحدة لم نستطع تمييزها. بكلّ بساطة خان «سي سيمانجونتك».

قبل أن يتسنّى له الانتهاء من المقطع الأول طلبت منه بو مُس أن يعود إلى مقعده. تيبّس شمشون؛ لم يصدّق أذنيه.

«لماذا تطلبين مني التوقّف يا إيبوندا غورو؟»

هذا ما يعنونه بقولهم غير موهوب وغافل.

لاختصار الحكاية كان الغناء المادّة التي لا رجاء منها في صفّنا. لا أحد فينا تمتّع بهذه الموهبة، ولذلك حرصت بو مُس على تأجيل حصّة الغناء إلى آخر الدوام. والهدف منها تمضية الدقائق التي تفصلنا عن صلاة الظهر؛ التوقيت الذي يحدّد نهاية اليوم المدرسي.

«أمامنا خمس دقائق قبل الأذان. ممم.. لدينا وقت لسماع تلميذ آخر،» قالت بو مُس. لم نكترث بما أعلنته. كانت ظهيرة مُضنية. بين حين وآخر حطّت الطيور الهازجة الرشيقة ذات الأجنحة المخطّطة على حافة نافذة الصفّ وشدَت شدوًا رائعًا.

«حسنًا... من التالي؟»

التالي كان مهار.

«رجاءً تعال إلى مقدّمة الصفّ يا صغيري. أنشد لنا أغنية إلى أن يحين موعد أذان الظهر.» قالت بو مُس التي عاودت الابتسام متوقّعة أداءً مضحكًا آخر من أحد تلاميذها.

حتّى تلك اللحظة لم نكن قد سمعنا مهار يغنّي. كلّما جاء الدور عليه علا صوت الأذان حاسمًا وحال بينه وبين الحصول على فرصة. لذلك لم نعره اهتمامًا عندما قام وسلك طريقه إلى مقدّمة الصفّ. لمّا أصبح أمامنا لم يغنّ مباشرة. وقف وخُرْج قصَبِ الروطان على كتفه، لأنه كان قد جهّز نفسه للعودة إلى البيت. بعد برهة، ضمّ ذراعيه معًا إلى صدره كمنَ يصلي. كان ظاهرُ يديه مشحّمًا مثل الشمع والندوبُ ظاهرةٌ على أصابعه العشر وأظفارُه مشوّهة. منذ الصفّ الثاني عمل مهار بعد المدرسة أجيرًا يَبْشر جوز الهند في كشك منتجات صينية طبيعية. فعل ذلك ساعة تلو ساعة إلى أن يحلّ الظلام. اكتسبت يداه مظهرًا شمعيًا دائمًا لانكبابه على عَجْن بقايا جوز الهند. وتقطّعت رؤوس أصابعه وتشوّهت أظافره بسبب نصل المبشرة الحادّ التي يدير ذراع محرّكها شخص بالغ. كانت المبشرة تنفخ دخانًا أسود وتصدر صوتًا مروعًا. صوت الحرمان والكدح وحياة فقيرة بلا خيار آخر. اضطرّ مهار إلى العمل ليساعد عائلته على البقاء. فوالده ميت وأمه أقعدها المرض الشديد.

«سأنشد أغنية عن الحبّ يا إيبوندا غورو، حبّ حافل بالعذاب على وجه الدقّة...»

ربّاه! نحن لم نبادر قطّ إلى إعطاء مثل هذه المقدّمات، ولم نتطرّق قبلئذٍ إلى أغانٍ تتحدّث عن هذا الموضوع. عادة نغنّي الأغاني الوطنية أو الأناشيد الدينية بالعربية أو أغاني الأطفال.

«تحكي هذه الأغنية قصّة شخص مفطور القلب بعد أن سرق أعزُّ أصدقائه محبوبته.»

صمت وحدّق بعيدًا من خلال النافذة، بعيدًا وراء الغيوم المنجرفة. طارت عقولنا لما فتح خرجه وأخرج منه أداة موسيقية: قيثارة!

بدأ مهار يعزف بحذر بالغ مقدّمة كسرت السكون كما لو أنها هدير رعد آتٍ من بعيد. فعل ذلك وعيناه مغمضتان. ثم بعد مقدّمة سلسة انحدر إلى المقطع الأوّل من الأغنية.

كنت أراقص محبوبتي على أنغام فالس تينيسي
عندما رأيت صديقًا قديمًا،
عرّفته إلى محبوبتي، وبينما هما يرقصان
سرق صديقي محبوبتي منـي.

شهقنا إعجابًا. لم تكن الأغنية سوى «فالس تينيسي» الشهيرة التي تغنيها «آن موراي»! لا شائبة خالطت اهتزازات صوت مهار؛ واستيعابه للأغنية يفوق التصديق. بدا في الواقع كأنه يعاني بمرارة من فقدان محبوبة قلبه. فُتنّا، سُحرنا بصوت مهار المتألّق. وعندما انتهى حييناه وقوفًا. حاولت بو مُس جاهدة أن تخفي الدموع في عينيها. في منتصف نهار ذلك اليوم من تموز، في ذروة موسم الجفاف، ونحن ننتظر أذان الظهر، ولد فنان عظيم في مدرسة المحمدية الفقيرة.

١٣

المستغرق في أحلام اليقظة

فقط بعد أن شهدنا أداءه استوعبنا من هو مهار حقًا. كانت تصرّفاته طوال الوقت خرقاء، ثيابه خارجة عن المألوف وحديثه هراء. ونحن، غير مدركين أن كلّ تلك المراوغات ما هي إلا انعكاس موهبته الفنية، اعتبرناه صبيًا بوهيميًا غريب الأطوار. والآن اكتشفنا أن مهار قد وازن سفينة مدرستنا التي جذبها دماغ لينتانج وحرفها يسارًا. مع لينتانج ومهار أصبح في صفّنا مرمّيان. وبوجود هذين المرميين كلّ في موضعه غدا من المستحيل أن نشعر بالملل.

ولأن لينتانج ومهار جلسا متقابلين، كثيرًا ما انتهينا ونحن ننظر تارة إلى اليمين وتارة إلى اليسار، كما لو أننا نتفرّج على مباراة كرة طاولة ونحن محشورين بين اللاعبيْن، كنّا مثل بلهاء يتحدّانا «كولومبس» لنجعل بيضة تقف مستقيمة.

مرةً، خلال فترة الاستراحة بين الدروس، وقف لينتانج أمام الجميع ورسم مخطّطًا يوضح فيه كيف نصنع قاربًا من ورقة شجرة نخيل الهند. يتحرّك ذلك القارب بوساطة مروحة دافعة موصولة بمحرّك مأخوذٍ من جهاز تسجيل تدعمه بطاريتان. وليتحكّم بالمحرّك حتى يدفع القارب قام بحسابات رياضية وشرح لنا قوانين الهيدروليكا الأوّلية. استطاعت حساباته أن تقدّر سرعة القارب بناء على كتلته. أصابني الدوار من قارب ورقة نخيل الهند وهو يحوم في الدلو.

في مناسبة أخرى أرانا تصميم طائرة ورقية وخيط مزجّج من شأنها أن تجعلنا لا نُقهر في معارك الطائرات الورقية. المدهش في كلّ ذلك امتلاكه العديد من

الخطط والمسوّدات التي بقيت خامًا. تلك البذور تضمّنت في ما تضمّنته فكرة رفع الأشياء الثقيلة من قاع النهر، وخطّة بناء غريب يتحدّى قوانين الهندسة المعمارية والهندسة المدنية؛ وأخيرًا وليس آخرًا خطّة تجعل البشر قادرين على الطيران.

أما بالنسبة إلى مهار، فما انفكّ يستولي على الساحة مرّة بعد مرّة. كان صاحب بصيرة فنية. وإلى جانب تبحّره في الموسيقى لمتابعته مذيعي الراديو المحلّي «صوت التجلّي» أو «سوارا بينغيجوانتهان» على الموجة القصيرة، كان مطّلعًا على بعض أبيات القصائد عن الطيور البيضاء في شاطئ تانجونج كيلانيانج، وعلى الهجاء الذي يسخر من الملايويين الذين أصبحوا فجأة أغنياء. هذا عدا عن عزفه المميّز على القيثارة الذي لطالما هدهدنا وسكّن من روعنا.

أصبح مهار بسبب خياله الخصب أكبر معجب بالأساطير الخرافية، وجميع الأشياء التي تفوح منها رائحة الخوارق والغيبيات. في وسع المرء أن يسأله عن أقاصيص بيليتونج الأسطورية القديمة، وسيجده مطّلعًا على أدقّ تفاصيلها؛ من حكاية تنين بحر الصين الجنوبي الخرافية إلى قصّة الملك بذيل القرد الذي يُعتقد أنه حكم جزيرتنا مرةً.

كان مهار مهووسًا أيضًا بسيد الفنّ القتالي «بروس لي». حيطان بيته تغطيها صور سيد «الكونغ فو» بوضعيات مختلفة. وقد توسّل إلى بو مُس مرارًا وتكرارًا لتسمح له أن يعلّق مُلصقًا لمحبوبه «بروس لي» في حركة التنين الغاضب، عيناه متوهّجتان وسلاحه عصا مزدوجة وعلى خدّه ثلاثة خدوش متوازية لأن عدوّه قد خمشه.

يعتقد مهار اعتقادًا جازمًا أن المخلوقات الفضائية ليست موجودة فقط بل أيضًا أنها في يوم ما ستنحدر إلى جزيرة بيليتونج متنكّرة بزي العاملين في المستشفى حتى تحقن الناس باللقاحات في عيادة الـــ ب ن، وبزي حراس المدارس والمؤذنين في جامع الحكمة، أو ربما بزي حكّام كرة القدم. كان مهار في بعض الأحيان مثيرًا للسخرية إلى أبعد الحدود. فهو على سبيل المثال قد تصوّر بأنه رئيس جمعية

الخوارق الدولية التي من شأنها أن تقود الحرب ضدّ المخلوقات الفضائية، سلاحها المستخدم في ذلك أوراق نبتة المخملية.

في إحدى الأمسيات، بعد يوم حافل بالمطر الغزير، افترش السماء من ناحية الغرب قوس قزح مثالي، تجلّى على شكل نصف دائرة باهرة الإشراق تضمّ سبعة أطياف من اللون. انبثق من دلتا الجينتانغ مثل سجادة متلألئة وامتدّ ليزرع نفسه في غابة الصنوبر عند جبل سوليمار. انحنى وتراقص، وبدا مثل حشد ضخم من العذراوات العائمات في بحيرة نائية.

غزونا شجرة الفيلسيوم وكلّ منّا يطالب بأغصانه الخاصة. وسرعان ما غدت الشجرة العتيدة مرتع جدلنا الصاخب ونحن نستعرض نظرياتنا الشخصية المتعلّقة بالمشهد السحري الذي يجتاح شرق بيليتونج. أحببنا كثيرًا القصص التي نرويها، وأصبحت عادة لدينا أن نتسلّق الشجرة بعد كلّ عاصفة ماطرة بحثًا عن قوس قزح. ولهذا السبب، أطلقت علينا بو مُس اسم لاسكار پلانجي: لاسكار تعني عساكر، وپلانجي تعني قوس قزح. وبذلك أصبحنا عساكر قوس قزح.

جاءت الحكايات الأكثر إثارة من مهار بالطبع. كنّا نضغط عليه دائمًا ليروي لنا حكاية. وفي البداية يتظاهر بالخجل والتردّد، في حين تقول النظرة في عينيه هذه قصّة خطيرة! لن يقدر أحد منكم على صون هذه المعلومات الحساسة للغاية!

ثم بعد أن يشاور نفسه يستسلم. ليس بسبب إلحاحنا وإنما بسبب رغبته التي لا تقاوم في التباهي. «أتعرفون شيئًا يا رفاق؟» انبرى يسأل يومها وهو يحدّق في المدى. «أقواس قزح هي في الحقيقة أنفاق زمنية! وإذا قدّر لنا أن ننجح في عبور قوس قزح، سيتسنى لنا لقاء أجدادنا الأوائل في بيليتونج وأسلافنا من الساوانج.»

لاح الندم على مهار كما لو أنه أفشى للتوّ سرًّا عائليًا بقي مدفونًا لسبعة أجيال. فتابع بنبرة متوتّرة. «في الحقيقة أنتم لن ترغبوا في لقاء أهالي بيليتونج البدائيين ولا الأجداد الساوانج،» نصحنا بمنتهى الجدية.

«لماذا يا مهار؟» سأله آكيونج بصوت متخوّف.

«لأنهم كانوا أكلة لحوم بشر!»

غطّى آكيونج فمه بيديه الاثنتين، وكاد يقع من على غصنه بعد أن أفلت قبضتيه. منذ الصفّ الأول، كان آكيونج تابع مهار المخلص. صدّق بكلّ كيانه أي شيء يقوله مهار. واعتبره معلّمه ومرشده الروحي. الاثنان جعلا من نفسيهما عضوين في طائفة الحماقة الجماعية.

ربّت لينتانج ظهر مهار، مقدّرًا حكايته المذهلة، ولكن متكلّفًا الابتسام ومصطنعًا السعال ليداري ضحكه. وبعد ذلك لبثنا نواصل إبداء إعجابنا بروعة قوس قزح إلى أن غربت الشمس.

تردّدت أصداء أذان المغرب من مسجد إلى مسجد بين أعمدة البيوت الملايوية العالية. وابتلع الظلام نفق الزمن. كنّا قد تعلّمنا أن نصمت خشوعًا حينما يعلو نداء الأذان.

«اهدأوا وأصيخوا السمع إلى التكبير،» هكذا اعتاد أهالينا أن يرشدونا.

فكّرت مليًا في حكاية مهار واسترجعتها في ذهني. بهرني القسم المتعلّق بشعب بيليتونج القديم أكثر من انبهاري بنفق الزمن.

نحن الملايويون أناس بسطاء عمومًا، نكتسب حكمة الحياة من معلّمي الدروس القرآنية والحكماء في المسجد بعد صلاة المغرب؛ تلك الحكم منقولة عن الأنبياء، أو مأخوذة من حكاية «هانج تواه» وأسجوعات «الغويريندام». نحن عرق قديم. وهناك خبراء يقولون إن الملايويين في بيليتونج ليسوا من أصول ملايوية فعلاً.

نحن في الحقيقة لا نعطي هذا الرأي أهمّية لسببين: أهالي بيليتونج أنفسهم لا يفهمون هذه الأمور، وكذلك لأننا لسنا حريصين على أن نكون بدائيين. بالنسبة إلينا أهل الساحل كلّهم ملايويون من بيليتونج إلى ماليزيا، وذلك استنادًا على نزوع مشترك بين الجميع يتمثّل في التحيّز للإيقاعات شبه الجزيرية وضرب الدفوف والتقفية. هوّيتنا لا تقوم على اللغة ولون البشرة والنظم العقائدية أو حتى بُنية الهيكل العظمي. نحن عرق يقوم على المساواة.

في الأسبوع الماضي عندما ثُبّت نظام الصوت في المسجد، ذهبنا لنتفرّج على فوضى الأسلاك التي سُمّيت «أدوات العصر الجديد السحرية». ونحن هناك، روى لنا مؤذّننا السبعيني قصّة أذهلتني.

كانت القصّة عن جدّه الأكبر الذي عاش مع قبيلة بدو رحل، يجوبون سواحل بيليتونج، يرتدون ثيابًا مصنوعة من لحاء الشجر، ويأكلون الحيوانات التي يطعنونها بالحراب أو يحاصرونها بين جذور الأشجار. ينامون على أغصان أشجار «السانتيجي» ليتجنّبوا التعرّض لهجوم المخلوقات المفترسة. وأثناء اكتمال القمر يشعلون النار ويعبدون القمر والنجوم في الأعلى. اقشعرّ بدني من التفكير بمدى التقارب بين مجتمعنا وبين الحضارة البدائية.

«تحالفنا مع الساوانج منذ أمدٍ بعيد. كانوا بحّارة مهرة يعيشون في القوارب ويبحرون من جزيرة إلى جزيرة. في خليج بالوك بادلَ أجدادنا غزلان الفأر وثمار الروطان والراتنج بالملح الذي تعدّه نساء الساوانج.» أعلمنا المؤذّن.

مثل السمك الذي يعيش في الأحواض نسينا منابع الماء. بعد كلّ تلك السنين من العيش جنبًا إلى جنب مع الساوانج لم نملك أدنى فكرة أنهم في الواقع ظاهرة أنثروبولوجية. شكّل شعب الساوانج مثل الشعب الصيني عنصرًا مهمًّا من تراثنا.

يتميّز السوانج، إلى جانب الملايويين، بل إلى جانب الصينيين بدرجة أكبر، بتكوين مختلف جدًا. هم مثل سكان أستراليا الأصليين: بشرة داكنة، وفكّان قويان وعينان عميقتان وجبهة رقيقة، وجمجمة ذات بنية تشبه الجماجم التوتونية وشعر مثل المقشّات.

استخدمت شركة الـــ ب ن ذكور هذه القبيلة حمّالين لنقل أكياس القصدير من محطّات الغسل إلى العبّارات في الموانئ. وتقوم العبّارات بنقل القصدير إلى مصانع الصهر في جزيرة بانجكا. أما النساء فكُلّفن بمهمّة نسج أكياس القصدير. وقد احتلّ أولئك الرجال والنساء فئة العمال الأدنى في بيليتونج، لكنهم كانوا سعداء لأنهم حصلوا على أجورهم كلّ يوم اثنين. طبعًا من الصعب القول ما إذا كان المال يبقى إلى يوم الأربعاء، إذ لا تجري في دماء الساوانج قطرة شحّ واحدة. اعتادوا

أن يصرفوا أموالهم كما لو أنه ليس هناك غد، واستدانوا كما لو أنهم يعيشون إلى الأبد.

بسبب سوء إدارتهم للمال، كثيرًا ما أصبح الساوانج ضحايا النموذج السلبي في أوساط غالبية الملايويين والصينيين، وبذلك غدت جميع الأمور السيئة مرتبطة بهم. هذه المحاولات لتشويه سمعتهم عكست شخصية أقلّية من الملايويين والصينيين الذين يخشون فقدان وظائفهم بسبب إحجامهم عن أداء الأشغال الشاقّة. أثبت التاريخ أن الساوانج شعب نزيه، يعيش حصريًا ضمن مجتمعه، ولا يدسّ أنفه في شؤون الآخرين، ويوظّف أخلاقيات قوية في العمل. لم تحصل له قطّ مشاكل مع القانون. وأكثر من ذلك لم يتهرّب مطلقًا من ديونه.

رضي الساوانج بتهميش أنفسهم. بالنسبة إليهم تألّفت الحياة من كبير عمال مستعدّ لأن يدفع لهم أجورهم مرّة في الأسبوع، ومن أعمال شاقّة لا يقبل عرق آخر القيام بها. لا يوجد تسلسل هرمي في ثقافتهم ولذلك لم يدركوا مفهوم «مسافة السلطة». الأشخاص الذين لا يفهمون حضارتهم قد يعتبرونهم غير مهذّبين. الشخص الوحيد الرفيع بينهم هو رئيس القبيلة، وهو عادة شامان، والمنصب ليس وراثيًا.

أسكنتهم شركة الـــ ب ن في دار طويلة مساحاتها مفصولة بقواطع. وسكنت تلك الدار ثلاثون عائلة. لا يوجد سجلّ دقيق عن أصولهم. ومن المحتمل ألا يكون علماء الأنثروبولوجيا قد حدّدوا خريطتهم الوراثية. أيعرف صانعو السياسة أن معدّل المواليد لديهم منخفض جدًا ومعدّل الوفيات عال جدًا إلى درجة أنه لم يبق سوى عائلات قليلة تحمل دم الساوانج الخالص؟ أتعمل أمواج الزمن على اجتياح لغتهم الجميلة ومحوها؟

١٤

بطاقة علامات للأمّ

ارتفع حبل سميك أسود فوق مستوى المياه المتدفّقة وامتدّ مقوّسًا على سطح النهر. أحد طرفيه مربوط بفرع شجرة مطاط قديمة ومتآكلة، بدا أشبه بذراع منبثقة من قلب المجرى المائي. وشمشون هو من قذف بالحبل إلى هناك.

تبلغ المسافة من حافة النهر إلى فرع شجرة المطاط نحو سبعة عشر مترًا. ويعني هذا أن عرض النهر يقارب ثلاثين مترًا، والله وحده يعلم كم يبلغ عمقه. جرى التيار بخفّة وسرعة. ولمع سطح الماء تحت لهيب الشمس.

أمسك آكيونج المتمركز عند حافة النهر طرف الحبل الآخر. تسلّق شجرة «كيبانغ» مقابلة لشجرة المطاط ثم عقد طرفه حول أحد فروعها.

اهتزّ جسدي وأنا أشقّ طريقي نحو شجرة المطاط متشبّثًا بالحبل وماضيًا بيد فوق أخرى. انزلق الحبل بوصة تلو بوصة تحت وطأة قبضتي الخانقة. تعلّقت مثل جندي قيد التمرين؛ وما بين حين وآخر انزلقت ساقاي من على الحبل ولامستا سطح الماء المتسارع، وجعلتا دمي يتخثّر في عروقي. بالكاد كنت أرى ظلّي على الماء الكامد. لو سقطت، سيُعثر علي عالقًا بين جذور «المانغروف» قرب جسر لينغانج، على بعد خمسين كيلومترًا من هنا.

كان كلّ هذا المجهود الذي بذلناه؛ وهو بالمناسبة يخالف أوامر أهالينا، في سبيل الحصول على ثمرة المطاط وزيادة قيمة رهاناتنا في حلبة «الطِراق». كانت تلك الثمرة شيئًا يكتنفه الغموض. ولا يمكن بالتأكيد استنتاج قوّة صلابة قشرتها من

شكلها ولونها. وهنا كَمَن إغراء لعبة «الطِراق» الأسطورية القديمة. لعبة تقوم على وضع ثمرتي مطاط فوق بعضهما ثم تُضربان بكفّ اليد، والثمرة التي لا تتعرّض للكسر هي الثمرة الفائزة. «الطِراق» لعبة اعتدنا أن نفتتح بها موسم الأمطار في قريتنا، لعبة إحماء تحضيرية لألعاب أكثر إثارة عندما تهطل الأمطار بغزارة من السماء. هناك مفتاح جوهري واحد للعبة «الطِراق»، ويتمثّل هذا المفتاح في أن أشجار المطاط التي تحمل الثمار الأقسى هي دائمًا في أعماق الغابة، ويتطلّب الحصول عليها بذل العناء الفائق أو التصميم الجريء والأرعن.

عندما يزداد لسع سياط المطر المنهمر على القرية تخبو هالة «الطِراق» شيئًا فشيئًا. وعندما لا يعود هناك من يلعبها، ندرك أننا اقتربنا من نهاية شهر أيلول، وأن الكآبة ستحطّ على العالم كلّه، العالم كلّه باستثنائنا. كان أسى شهور السنة الأخيرة والقلق بشأنها للكبار فقط. أمّا نحن فجلبت لنا نهاية هذه السنة العديد من الأشياء الممتعة، ولكلّ منها قصتها الخاصّة بها. وسأرويها لك يا صديقي تِباعًا.

يأتي لينتانج في المرتبة الأولى. أبلغنا أنه اشترى أخيرًا إطارًا جديدًا ومتينًا لدراجته وأصلح سلسلتها. وذلك ليتسنّى له اصطحاب أمه خلفه. وهذه تكون أوّل مرة تحضر فيها أمه إلى المدرسة لتتسلّم بطاقة علاماته. كلّما أتى لينتانج على ذكر أمه شعّت عيناه. كان عادة يتسلّم بطاقته بحضور أبيه. وقد بدا واضحًا كوضوح النهار أنه يتوهّج فخرًا لأنه هذه المرّة سيهدي بطاقة تفوّقه لأمّه.

كان لينتانج ووالداه أوّل القادمين وأوّل الذين شغلوا مكانهم على المقعد الطويل. غادر الأب البيت في منتصف الليل ليقطع طريق الرحلة مشيًا لأنهم لا يملكون إلا دراجة واحدة. وحالما أطلّ الصباح، تبعه لينتانج مع أمّه على الدراجة.

بعد أن حضر جميع أولياء الأمور والتلاميذ، ألقى پاك هرفان خطابًا قصيرًا. أخبر جميع الحاضرين أن لينتانج هو فخر المحمدية. وإعرابًا عن تقديره لأمّ لينتانج التي قطعت المسافة الطويلة إلى المدرسة، دعاها پاك هرفان لتلقي كلمة.

كانت خجولة ومتردّدة في البداية، فقد سبق أن سلك الحظّ العاثر دربها؛ عانت من شلل الأطفال في طفولتها، وأصبحت تمشي مستعينة بعكّاز. نهض لينتانج ليمسك ذراع أمه.

تسلّمت أمّ لينتانج بطاقة علامات ابنها من پاك هرفان. ارتعشت يداها وهما تمسكانها. فتحت الصفحة الأولى غير مدركة أنها تمسكها رأسًا على عقب. مثل والد لينتانج وأبي ومعظم أهالينا، لم تكن أمّ لينتانج تعرف القراءة أو الكتابة.

شكرت بو مُس وپاك هرفان. كانت لهجتها العامّية صعبة الفهم لأنها تعود إلى لهجات الملايويين النائية. قالت، بطريقة أو بأخرى، إن هذه أوّل مرّة تغادر فيها قريتها، وابتسم الجميع بمرارة عندما قالت إنه من الصعب التصديق في هذه الأيام أن تعلّم القراءة والكتابة قد يغيّر المستقبل.

عرفَت أن مدرستنا مهدّدة بالإقفال. قالت إنها في صلواتها الليلية تدعو الله ليفوز لينتانج بمباراة التحدّي الأكاديمي حتى لا تغلق مدرستنا. دعاء صادق حقًا.

بدا واضحًا أن تلك العائلة الساحلية تعلّق آمالاً كبيرة على تعليم لينتانج، مؤمنة أن مستقبلها سيغدو أفضل إذا حصل لينتانج على شهادته. أنهت الأم حديثها بقولها إنها فخورة جدًا بابنها البكر. رنوت آنذاك إلى لينتانج. كانت الدموع تترقرق في عينيه، وإذ طأطأ رأسه تساقطت دموعه على الأرض.

بعد أمّ لينتانج دعا پاك هرفان لينتانج ليتقدّم. وبعينين دامعتين أهدى لينتانج جميع علاماته المتفوّقة إلى أمّه.

يحين دوري عادة بعد بطاقة علامات لينتانج. كما سبق أن قلت حللت دائمًا في المركز الثاني. على أي حال، كان الأمر في هذه المرّة مختلفًا. حصل هارون على المركز الثاني.

كجزء من كفاحنا لننقذ مدرستنا من مساعي السيد صمديكون الحثيثة لإقفالها، وكذلك من أجل تكريم هارون وإسعاده، أعدّت له بو مُس بطاقة علامات خاصّة في كلّ شيء. حتى الأرقام فيها كانت مميّزة. تكلّمت بو مُس مع هارون بأسلوب

ديموقراطي حقيقي. وبادئًا ذي بدء سألها هارون، «من بين جميع الموادّ في هذا التقرير يا إيبوندا غورو أيها الأهمّ؟»

«الأخلاق المحمدية،» أجابت بو مُس بنبرة قاطعة، مشيرة بأصبعها إلى آخر فقرة في البطاقة.

هزّ هارون رأسه، وبنبرة قاطعة أكثر من نبرة بو مُس، طلب أن تماثل علاماته علامات لينتانج وتراپاني. هذا جعله بالتأكيد يحتلّ المرتبة الثانية، وجعله يتفوّق علي. ثم طالب بعلامة ثلاثة على تلك المادّة.

«ثلاثة علامة متدنّية يا صغيري. أنت مهذب جدًا. وأجرؤ على القول إنك تستحقّ ثمانية.»

تسمّر هارون في أرضه. قالت بو مُس إنه من المؤسف الحصول على علامة ثلاثة في بطاقتك.

«من حقّك الحصول على علامة ثمانية. إنها أعلى علامة أعطيها لتلاميذي على هذه المادّة. أليس هذا رائعًا؟ حصلت على أعلى درجة في أهم مادّة في العالم.»

كانت بو مس محقّة وقد وافقناها كلّنا. تصرّف هارون النموذجي يستحقّ أن يُكافأ بثمانية. أمّا المفارقة في الأمر فهي أننا بخلاف هارون، نحن الذين ننعم بملكة تفكير سليمة، لم نحصل قطّ على ثمانية في مادّة الأخلاق.

على الرغم من محاولات الإقناع العديدة لم يتزحزح هارون عن موقفه. ثم كفّت بو مُس عن المحاولة بعد أن قال بصوت مسالم، «يحبّ الله الأعداد الفردية يا إيبوندا غورو.»

وهكذا خُطّ العدد ثلاثة على بطاقة هارون. وعنى هذا أن معدّل علاماته سيتدنّى بالتأكيد. في جميع الأحول، ونظرًا إلى أنه حصل على جميع العشرات من بطاقة لينتانج، وعلى جميع الدرجات العالية من بطاقة مثله الأعلى تراپاني، بقي الفائز بالمرتبة الثانية.

أحسنت بو مُس اتخاذ قرارها الحكيم بخصوص بطاقة هارون. ضاهت سعادة

أمّه به سعادة أي عائلة بحفلة تخرّج ابنها. ابتسم هارون ابتسامة عريضة ولوّح بطاقته عاليًا في الهواء.

مع تقدم الوقت في عصر ذلك اليوم شارف الاحتفال البهيج بتوزيع الشهادات نهايته. عدت إلى البيت راكبًا خلف أبي على دراجته، لكنني لم أستطع انتزاع عيني عن لينتانج ووالديه وهم يغادرون المدرسة.

قاد لينتانج الدراجة مسيطرًا بإحكام على مِقودها، وعكّاز أمّه على كتفه الأيسر. وبينما جلست الأمّ خلفه على الدراجة مشى الأب إلى جانبهما ودفع بهما تلك الدراجة.

كانت عائلة لينتانج تشبه صورة مصغّرة للفقر الذي يعانيه صيادو السمك التقليديون من الملايويين والإندونيسيين. حملوا ذلك البؤس في قلوبهم من جيل إلى جيل. ابتلعوا مرارة آمال المستقبل المشتّتة وشكوكهم بفائدة تعليم أولادهم. بؤس المُعدمين هذا، لم يصل إلى مسامع أحد، لا ممّن يملكون ولا من الدولة. في ذلك اليوم، فارق هذا البؤس لفترة وجيزة عائلة واحدة، من خلال بطاقة علامات الابن الفتي الفذّ، بطاقة حوت بما لا يقبل النقاش علامات كاملة.

ارتدت السماء لبوس الظلام فجأة، أسرع لينتانج ووالداه ليحتموا تحت أوراق شجرة «غايام». ومن الجبل هاجم نحل العسل بالملايين القرية، وأقبل المطر.

١٥

أوّل الغيث

تقع جزيرة بيليتونج عند نقطة التقاء بحر جنوب الصين وبحر جاوة، وسواحل هذا الموقع محمية من الأمواج العاتية نظرًا إلى الوقاية التي تؤمّنها له جاوة وكاليمنتار. لكن ملايين غالونات الماء المتبخّر من البحار المحيطة في موسم الجفاف تتدفّق على الجزيرة أيامًا عدّة متواصلة في موسم الأمطار.

كان أوّل الغيث نعمة من السماء، وقد استقبلناه دائمًا بفرح. وكلّما اشتدّ انهمار المطر علا هدير البرق أكثر، وتفاقمت سرعة خضخضة الرياح للقرى، وعظم لمعان البرق، وتزايد مرح قلوبنا. كنّا نترك أجسامنا على هواها لتستحمّ بالأمطار الغزيرة، متجاهلين تهديدات أهالينا بجلدنا بأغصان الروطان؛ فذاك لا يعدّ شيئًا بالمقارنة مع جاذبية المطر. لم يحل بيننا وبين المضي تحت المطر شيء، ترافقنا الحيوانات الغريبة الفارّة من قيعان الخنادق ونحن نخوض الدروب ونعبر فوق الأشجار المنهارة وفوق سيارات مشروع الـ ب ن الغارقة في الفيضانات، ورائحة المطر المنعشة تحيي قلوبنا.

لم نكن نتوقّف عن اللهو إلا بعد أن تزرقّ شفاهنا وتتخدّر أناملنا؛ نتراكض في الأنحاء، نلعب كرة القدم، نبني قلاع الرمل، نتظاهر بأننا وِرلان ونسبح في الوحل، نصيح على الطائرات المحلّقة في السماء، ونشدّ من عزيمة المطر والصواعق بصراخ عالٍ متنافر.

لم يكن لأكثر لعبةٍ مرحةٍ مارسناها اسم، ولكنها تضمّنت استخدامنا لأوراق

شجرة «پينانج هانتو». يجلس شخص أو اثنان على ورقة بعرض سجادة الصلاة، بينما يسحبها شخصان أو ثلاثة. والنتيجة لعبة تشبه التزلج.

تأتي ذروة اللعبة لحظة يقوم مَن يجرون الأوراق الضخمة، الأقوياء كالأحصنة، بانعطافة سريعة ويسحبونها عمدًا بمزيد من القوة. عندئذٍ يميل مَن على الورقة إلى الجانب، وفي حال السقوط يخفِّف الوحل الزلق من حدّة سقطة قوية وسريعة ومبهجة.

أخذ جسمي يهتزّ بعنف رغمًا عني وأنا أفترش الورقة، ورأيت موجة ضخمة من الوحل تتناثر عاليًا من جهة اليمين وتلطِّخ المتفرجين بالطين الرطب. لعب شهدان يومها دور مساعدي، مقلّدًا مغامرًا متهوّرًا طويل الشعر يقود دراجته النارية عبر نفق مشتعل في السيرك.

منعتنا زاوية الالتفاف الحادّة من الانعطاف بنجاح؛ انهار الذين يجرّون الورقة فوق بعضهم وتشقلبوا مرّات ومرّات. أمّا أنا وشهدان فقُذفنا خارج الورقة ورحنا نتخبّط ونتخبّط قبل أن نسقط أخيرًا في حفرة.

شعرت بثقل في رأسي. تلمّسته وتحسّست نتوءات صغيرة تبرز. بدا صوتي غريبًا على مسامعي، بل حتى بدا آليًا. امتدّ ألم خافق من الجانب الأيمن في رأسي إلى عيني، ألمٌ أشعر به عادة بعد تسرّب الماء إلى أنفي. بحثت عن شهدان الذي انزلق أبعد مني قليلاً. وجدته ممدّدًا بلا حراك ونصف مطمور بماء الخندق.

لم يكن يتنفّس. كانت سقطته قوية، مثل سقطة أنبوب من شاحنة. رأيت الدم الثخين يقطر ببطء من أنفه. تحلّقنا حوله. شحبت سهارى وبدأت تبكي. صفعتُ خدّي شهدان .

«شهدان! شهدان!»

تحسّستُ وريد عنقه، مقلّدًا ما أشاهده في المسلسل التلفزيوني «بيت صغير في المروج» في قاعة القرية. وبما أنني لم أعرف ما كنت أبحث عنه لم أجده. شمشون وكوتشاي وتراپاني هزّوا شهدان في محاولة منهم لإعادته إلى وعيه.

ذُعرنا؛ لم نعرف ما ينبغي عمله. واصلتُ مناداته، لكنه لم يتحرّك. اقترح

شمشون أن نرفعه. كان جسده متصلّبًا. أمسكت رأسه ونحن نتعاون معًا على حمل جسمه. في هذه المرحلة بدأت سهارى تولول. أصابتنا حالة من الرعب الفعلي. ثم في وسط معمعة حمله، أسفر الرأس الأسود المجعّد بين يدي عن صفَّين من الأسنان المسوّسة والمدبّبة مثل أداة تكسير الجليد، وسرعان ما انطلقت من بينهما ضحكة عالية رنانة.

لقد تظاهر مساعدي بالموت! ذاك النذل استلقى بلا حراك وحبس أنفاسه حتى نعتقد أنه مات. رددنا له المعروف برميه ثانية في الحفرة. زاده هذا ابتهاجًا وتضاعف ضحكه وهو يرى ذهولنا.

الغريب في الأمر، أن ألم السقوط والاصطدام والتدحرج رافقه دومًا ضحك عالٍ ومشاكسات؛ وهذا هو الشيء الأكثر جاذبية في اللعبة التي لا تحمل اسمًا. وقد داومنا على لعبها بإصرار. والسقوط خلالها ليس بسبب الالتفاف المتحدّي لقوانين الفيزياء ولا السرعة ولا حجم الكتلة، بل بسبب السخف الطوعي الناجم عن النشوة التي يبعثها موسم الأمطار. قد يغرق العالم في كآبة الشهور الأخيرة من السنة، لكنها بالنسبة إلينا كانت شهورًا مجيدة. كان موسم الأمطار مهرجانًا يخصّ الأطفال الملايويين، يخصّنا نحن، والطبيعة بنفسها تقيمه لنا.

١٦

شِعر سماوي وسرب طيور پيلينتانغ پاولو

قبل مجيء الأمطار، عندما جثم موسم الجفاف على قريتنا، ذوت الأشجار، والمركبات العابرة أثارت باستمرار غبار الطرقات المرصوفة بالحصى الأحمر وتركته يرسو على عتبات النوافذ. كانت قريتي جافّة وفاحت منها رائحة الصدأ.

في تلك الفترة أصبح المجتمع الصيني أكثر نشاطًا في روتينه الحياتي: استحمّ الناس في منتصف النهار، مشّطوا شعرهم المبلل وقلّموا أظفارهم. كانوا الوحيدين الذين ظهروا أنظف قليلاً من غيرهم في موسم الجفاف. أما الساوانج، فعانقوا أعمدة منازلهم العالية بتكاسل. كانت الحرارة أشدّ من أن تسمح لهم بالنوم تحت السطح المضلّع غير المسقوف، لكنهم كانوا أكثر إعياءً من العودة إلى العمل.

من ناحية أخرى أمضى شعب السارونغ، كما يحلو لي أن أسميهم، النهار والليل في عرض البحر. كان موسم الجفاف فرصتهم لكسب المال، لعلمهم أن شهور السنة الأخيرة على وشك أن تأتي وأن الرياح حينذاك ستصبح عاتية.

غدا الملايويون فوضويين وقضوا أغلب أوقاتهم في البيوت. لا أحد منهم امتلك ثلاجة. وما بين حين وآخرى قد يُلمح أطفالهم يقطعون الدرب الرئيس وهم يحملون ألواح الثلج والشراب المنكّه لإعداد المشروبات الباردة.

لم تكن وطأة الرطوبة تخفّ إلا في ساعة متأخّرة من الليل. ومع اقتراب الفجر، تهبط الحرارة بشكل كبير، مختبرة إيمان أتباع النبي محمد (صلى الله عليه وسلم)، متحدّية إياهم ليهجروا أَسرّتهم ويتوجّهوا إلى المسجد لأداء صلاة الصبح.

لازم الابتهاج لينتانج في الأيام القليلة الماضية كالعادة، لكن حالة سلسلة دراجته أنهكته؛ السلسلة التي لا تنفكّ تتقطع، ومع كل مرّة تتقطع فيها تصبح أقصر من السابق لأنه يضطرّ إلى الاستغناء عن حلقة من حلقاتها. إلى جانب السلسلة كثيرًا ما كانت الإطارات تفرغ من الهواء. ومع مرور الوقت صار لزامًا عليه أن يدفع دراجته على طول طريقه إلى المدرسة. وفي النهاية لم يعد استعمالها ممكنًا.

مع عدم وجود خيار آخر، اضطر لينتانج إلى المشي عشرات الكيلومترات إلى المدرسة. كانت هناك طريق مختصرة إنما في غاية الخطورة، إذ عليه أن يقطع مستنقعًا هو موطن العديد من التماسيح الفتّاكة، ويصل عمقه في الوسط حدود الصدر. لكن، ما دام عليه أن يمشي إلى المدرسة فذاك هو الدرب الذي ينبغي أن يسلكه ليصل في الوقت المناسب.

روى لنا لينتانج قصصًا كثيرة عن تعرّضه لمطاردة التماسيح المستلقية تحت الشمس وأنظارها مسلّطة عليه وهو يوغل في المستنقع. لذلك السبب، قبل أن يغادر إلى المدرسة، استحمّ دائمًا بماء أوراق التنبول؛ المطهّر التقليدي.

وعندما يصبح في المستنقع، يحزم ثيابه وكتبه بكيس بلاستيك ويحمله عاليًا بينما يخوض في الماء، وإذا اضطرّ إلى السباحة، يعضّ على الكيس البلاستيكي بأسنانه. وطوال الوقت ينظر حواليه بحثًا عن التماسيح.

وصل لينتانج اليوم وهو يقطر ماءً من رأسه إلى أخمص قدميه. ففي خضمّ معركة فراره من التماسيح، أفلتت منه حزمة البلاستيك وفُتحت. وقف عند باب الصفّ في حالة ذهول. دعته بو مُس إلى الدخول. وأسعده أن يدرس حتى وثيابه تقطر ماءً.

بعد المدرسة اقترب لينتانج منّي وتعبير وجهه البائس يلوح مثل موسم الجفاف المديد، ولا يمتّ له بصلة. فوجئت؛ فالعبوس ليس صفة من صفات لينتانج.

«ما الحكاية يا رفيق؟» سألته باذلاً جهدي لأغتصب ابتسامة.

أخرج لينتانج منديلاً من جيب بنطلونه القصير. أتذكّر أني رأيته بيد أمه عندما تسلّمنا بطاقات علاماتنا. فتح المنديل، ووقعت عيناي على خاتم.

«هذا خاتم الزواج الذي أعطاه أبي لأمّي،» قال وهو يرتعش. «لا تريدني أمي أن أغيب عن المدرسة بسبب الدراجة. قالت إن علي أن أجتهد في الدرس لأفوز بمباراة التحدّي الأكاديمي. طلبت مني أن أبيع الخاتم لأشتري بثمنه سلسلة جديدة للدراجة.»

كانت عينا لينتانج منطفئتين. انقبض صدري.

غادرنا معًا إلى السوق. وُزن الخاتم من فئة ١٨ قيراطًا على ميزان صغير. وبلغ وزنه ثلاثة غرامات. بدا كأنه غير أصلي بسبب نوعية الذهب الرديئة. إلا أنه كان أثمن ما تملكه عائلة لينتانج. بيع الخاتم مقابل ١٢٥٠٠٠ روبية، ما يعادل ٥٠ دولارًا في تلك الأيام. فقط ما يكفي لشراء سلسلة دراجة وإطارين.

لم يرد لينتانج التخلّي عن الخاتم. اضطرّ تاجر الذهب إلى فتح أصابعه عنوة واحدة واحدة ليحصل عليه. وعندما أفلته لينتانج أخيرًا، أفلت معه دموعه.

«يا بوي، تدفع لأمّك ثمن تضحيتها بفوزك في مباراة التحدّي الأكاديمي!» قلت على أمل أن ينسى حزنه. بوي هو لقب يطلقه أطفال بيليتونج على الأصدقاء المقرّبين. نظر إلي لينتانج بجدّية. «أعدكَ يا بوي.»

مع ذلك كان لا بدّ من تناسي ما في الحياة من شقاء وتعب، أو على الأقلّ تنحيته جانبًا لأن صفّنا أعدّ مشروعًا كبيرًا: التخييم.

في هذه الفترة يستقلّ أطفال مدرسة الـــ ب ن حافلتهم الزرقاء إلى تانجونغ باندان للاستجمام، أو يذهبون إلى زيارة حديقة الحيوانات والمتحف أو ربما يغادرون في إجازة مع ذويهم إلى جاكرتا. أما نحن فكنّا نذهب إلى شاطئ بانجكلان بوناي، على مبعدة ستين كيلومترًا تقريبًا، حيث نقود دراجاتنا ونسلك طريقنا إلى هناك على شكل قطيع مفعم بالحيوية.

على الرغم من أننا زرنا بانجكلان بوناي كلّ سنة، لم أسأم يومًا من ذلك المكان. المكان الذي تلتقي فيه عشرات الهكتارات من الرمل مع الغابة، والذي اختبرت دومًا بين ربوعه شعورًا مختلفًا بالجمال.

تريّثت عند رأس تلّ والمساء يقترب، أستمع إلى أصوات أطفال الصيادين الخافتة من الصبيان والبنات، يركلون العوامات ويلعبون كرة القدم من غير مرمى.

امتدّ خلفي حيث وقفت سهل عشبي فسيح باتساع البحر نفسه، وبين سيقان العشب الطويلة استقرّت آلاف طيور الجُشنة، تتصايح في ما بينها، وتتعارك على مواضع نومها. رأيت من فجوات بين صفوف أشجار جوز الهند صخورَ الجلمود العملاقة التي تعتبر علامة بانجكلان بوناي الفارقة والتي تسوّر بحر جنوب الصين بزرقته اللامعة. ومن بعيد لاحت تيارات النهر المالحة التي التفّت وانحنت قبل أن تتمازج أخيرًا مع البحر كأنها كتل من الفضّة المذابة.

بينما بدأ الليل ينذر بالزحف، انحدرت أشعة الشمس بحمرتها البرتقالية تحت سقوف المنازل من أوراق «النانغا»؛ المنازل القائمة على الركائز والبارزة من بين أوراق «السانتيغي» الغنية. تصاعد دخان المواقد التي تحرق ألياف جوز الهند لتطرد الحشرات القادمة مع الغروب. وما لبث الدخان الذي رافقه الأذان أن بدأ ينجرف بتؤدة فوق القرية كالشبح، زاحفًا بوهن فوق أغصان أشجار «البينتانج» ذات الثمار الحلوة، قبل أن تدفعه الريح بعيدًا ليبتلعه البحر الشاسع. من وراء نوافذ البيوت الصغيرة القائمة على الركائز والمتناثرة في الأسفل رقصت براعم النار الصغيرة في مصابيح الزيت بصمت.

تلبّسني سحر بانجكلان بوناي ودفعني إلى كتابة قصيدة.

حلمت أنني رأيت الجنة

صدقًا، في ليلتي الثالثة في بانجكلان بوناي حلمت أنني رأيت الجنّة
اكتشفت أن الجنة ليست فخمة، ولكنها قصر صغير في قلب الغابة
لم أعثر على عذراوات جميلات كما حكت الكتب المقدسة
مشيت على جسر صغير ضيّق واستقبلتني حسناء نقية الوجه
«هذه هي الجنّة،» قالت
دعتني لأمشي في حقل من الزهور
تحت الغيوم الواطئة الملونة
نحو شرفة القصر

في الشرفة بصّت أضواء صغيرة من خلف الستارة

كل ضوء منها سطع منيرًا العشب الكثيف في الحديقة

جمال، جمال لا يمكن وصفه

كانت الجنة ساكنة ساكنة جدًا

ومع ذلك أردت البقاء هنا

لأنني تذكّرت وعدك يا إلهي

إن جئتك ماشيًا

تلقاني راكضًا

كان ينبغي علينا ضمن برنامج التخييم أن نقدّم واجبًا ما؛ موضوع إنشاء، لوحة، شيئًا نصنعه يدويًا يتألّف من موادّ نجمعها من الشاطئ. حصلت بتلك القصيدة على علامة في الفنون الجميلة أعلى قليلاً من علامة مهار.

لم ينل مهار أعلى درجة بسبب سرب من الطيور الغامضة يسميها أهالي بيليتونج طيور «بيلينتانغ پاولو» أو الطيور العابرة.

كانت طيور «بيلينتانغ پاولو» تسترعي الانتباه في أي مكان، إنما ولا أي مكان آخر يهتمّ بها أكثر من اهتمام أهل الساحل. يرى بعض الناس أنها مخلوقات خارقة للطبيعة. والمجيء على ذكر اسمها يصيب قلوب الساحليين بالرعشة بسبب الأساطير المُحاكة حولها والرسائل الخفية التي تحملها. وإذا ظهر سرب منها في قرية، يلغي صيادو السمك خططهم للإبحار، بالنسبة إليهم، مرور تلك الطيور الغامضة ينذر بعاصفة بحرية.

أيًا ما كانت تلك الطيور في الواقع، زعم مهار أنه رآها وهو يحاول البحث عن موضوع واجبه والذي قرّر أن يكون لوحة. سارع عائدًا إلى الخيمة ليخبرنا بما رآه. اندفعنا إلى الغابة على أمل أن نشاهد ما يعتبر من أندر أنواع الطيور في جزيرة بيليتونج الغنية بحيواناتها وطيورها.

لسوء الحظّ لم نشاهد إلا أغصان الأشجار والعديد من صغار القرود طويلة الذيول وسماء خالية. أوقع مهار نفسه في مأزق وأصبح عرضة لسخريتنا.

«إذا أفرط المرء في أكل فاكهة البينتانج قد يثمل يا مهار؛ رؤى مشوّشة وهذيان،» قال شمشون ساحبًا الزناد وفاتحًا باب التهكّم.

«بجدّ يا شمشون لقد رأيت سربًا من خمسة طيور بيلينتانغ پاولو!»

«لا يمكن قياس عمق البحر، ولا يمكن التنبؤ بعمق الكذبة...» وخزه كوتشاي مقتبسًا كلامه من بيت من الشِعر.

ظهر اليأس على وجه مهار. فتّشت عيناه الأغصان في الأعلى. بلا شاهد يدعم روايته كان بلا حول ولا قوة. أمعنت النظر في عيني مهار. صدقّت أنه رأى تلك الطيور المقدّسة. يا لحسن حظّه! من المؤسف أن مهار مشهور بالكذب.

«حاول ألا تُضبط متلبّسًا بجريمة الكذب والانجراف وراء الخيال يا صديقي. تعرف طبعًا أن الكذب ممنوع. المنع يظهر مرارًا وتكرارًا في كتاب الأخلاق المحمدية،» وعظته سهارى.

زادت حالة الفوضى لما انتشر الخبر وعلم أهل القرية أن مهار رأى طيور «بيلينتانغ پاولو». وهذا دفع الصيادين إلى إلغاء خططهم البحرية. عجزت بو مُس عن تهدئة الوضع. ووجد مهار نفسه محشورًا في الزاوية.

ليلتها عصفت الرياح بجنون وقلبت خيمتنا رأسًا على عقب. ثار وميض البرق عنيفًا فوق البحر، ودوّمت السحب السوداء في السماء متوعدّة. ركضنا طلبًا للنجاة ووجدنا مأوى يحمينا في أحد منازل القرية.

«لعلّك رأيت تلك الطيور بالفعل يا مهار،» قال شهدان وهو يرتجف.

لم يقل مهار شيئًا. ومن ناحيتي أدركت أنه لن يكون لأي كلمة يقولها معنى. أيّدت العاصفة روايته وشكره الصيادون على تحذيره. ولكن رفاقه؟ رفاقه ما زالوا يشكّون في صدقه. جعلوه يشعر كأنه شخص غير مرغوب فيه، شخص منبوذ.

في اليوم التالي رسم مهار لوحة عنونها سرب «بيلينتانغ پاولو». كان محتواها مثيرًا للاهتمام. صوّرت اللوحة خمسة طيور غامضة الأشكال تندفع من خلال

فرجات قمم أشجار «الميرانتي». خلفيتها كتلة قاتمة من السحب المصاحبة للعواصف. البحر داكن الزرقة، سطحه متلألئ يعكس وميض البرق. بدت طيور مهار التي أذاب أشكالها إلى شرائط غير متبلورة من الأخضر المصفرّ كأنها تتحرّك بسرعة هائلة. إذا نظر المرء إلى اللوحة عرضًا، رأى بطريقة مبهمة أنها تصوّر سرب طيور. ولكن الانطباع العام يوحي بأنها لمسات نارية مشبعة بالألوان. كانت لوحة تدغدغ المشاعر بالفعل، لوحة ملفتة للانتباه.

انطلق مهار في رسم لوحته من فكرة رغبته في التقاط جوهر طيور «پيلينتانغ پاولو» الغامضة. فتشريح الطيور من ناحية أخرى لا علاقة له به. لكن شمشون وكوتشاي وسهارى تمسّكوا برأيهم بأن أشكال الطيور ليست واضحة لأن مهار لم يرها في الواقع. تقهقر مهار إزاء ما تعرّض له من سخرية وساء مزاجه.

تأخّر مهار في تسليم وظيفته بسبب خيبة أمله. ولم ينل علامة عالية، لا لتأخّره ولا من أجل اعتبارات جمالية، ولكن لأنه تجاوز الموعد النهائي.

«لم أمنحك هذه المرة أفضل علامة لألقّنك درسًا،» قالت بو مُس لمهار اللامبالي. «ليس لأن عملك يفتقر إلى الجودة؛ فنحن، بغضّ النظر عن العمل الذي نقوم به، علينا التمسّك بالانضباط. لا نفع يُرجى من الموهوبين ما داموا لا يحسنون التصرّف.»

بدا لي أن قرار بو مُس عادل بما يكفي. لم تؤدّ العلامة التي نالها مهار على عمله الفني إلى حرمانه من النوم. كان في الواقع مشغول البال أكثر من أي وقت مضى. كان في أوج غليانه الفكري استعدادًا لكرنفال ١٧ آب؛ يوم الاحتفال بعيد الاستقلال.

١٧

الحبّ في متجر النثريات الفوضوي

آه، المراهقة كانت رائعة.

حملت لنا الدروس في المدرسة مزيدًا من الفائدة. تعلّمنا كيف نحضّر البيض المملّح وكيف نطرّز وكيف نعدّ زينة الأعراس الملايوية «ميناتا جانور». وأفضل من ذلك بدأنا نتلعثم في اللغة الإنجليزية: هذا جيّد، ذاك جيّد، عفوًا، ومعذرةً، وأنا بخير، وشكرًا. أما المهمّة الممتعة فعلاً فهي ترجمة الأغاني. واتضح لنا أن هناك معنى جميلاً في كلمات الأغنية القديمة «ألخبرتك مؤخرًا أني أحبّك».

تحكي أبيات الأغنية بمعنى أو بآخر قصّة طفل كره دائمًا أن يرسله معلّمه لشراء الطباشير، حتى جاء يوم غادر فيه غاضبًا ليشتري الطباشير، غير مدرك أن القدر الذي يترصّده قد نصب له كمينًا في سوق السمك.

كانت عملية شراء الطباشير بالنسبة إلينا أسوأ مهمّة ولا تشويق فيها البتة. والمهمّة الأخرى التي كرهناها حقًا هي ري الأزهار. كان علينا أن نتعامل برقة مع السراخس بمختلف أنواعها، ابتداء من سراخس قرن الأيل إلى عشرات أحواض كسبرة البئر الخاصة ببو مُس والغالية على قلبها. كنا نداريها كما لو أنها من الخزف الصيني الثمين، وأي استهتار بالزهور اعتُبر انتهاكًا خطيرًا.

«هذا جزء من تعليمكم،» ردّدت بو مُس بإصرار حازم.

كمنت المشكلة في صعوبة الحصول على الماء من البئر خلف المدرسة حتى بالنسبة إلى العمّال المتمرّسين. بمعزل عن ضرورة ملء دلوين كبيرين، ثم شقّ

طريق العودة بصعوبة والمرء يحمل الدلوين على كتفيه، عليه أيضًا أن يقف وجهًا لوجه أمام البئر القديمة المخيفة. كانت تلك البئر عميقة جدًا كما لو أن قاعها الذي تتعذّر رؤيته متصل بعالم آخر، أو ربما بوكرٍ يعجّ بالشياطين. كنّا على أي حال نشعر بتفاقم أعباء الحياة وزيادة ثقلها كلّما اضطررنا في الصباح أن ندلي برؤوسنا داخلها.

الشيء الوحيد الذي حمل لي بعض العزاء هو سقايتي زهور «الكانا»، وذلك من مجرد التفكير بأن زهرة على هذه الدرجة من الجمال تنشأ في براري التلال البرازيلية الرطبة. هي بالطبع ما زالت تُعد من أسرة الدفليات، وهذا ما يجعلها تشبه قليلاً «الألامندا»، لكن سمتها المميزة التي لا تملكها أي فصيلة «كانا» أخرى تظهر في الخطوط البيضاء التي تتخلّل زهورها الصفراء. إضافة إلى أن أوراقها الريّانة الخضراء المتسلّقة تمثّل نقيضًا مذهلاً لألوان الزهور المتدرّجة على مدار السنة، بحيث ينتج عن هذا التناقض جمال بدائي. سمّاها الفرس زهور الجنة. وعندما تتفتح يبتسم العالم بأكمله.

هي زهور عاطفية، لذا على المرء أن يسقيها بحذر. ليس في وسع أي شخص أن ينميها. ويقال إن شخصًا واحدًا يمتلك يدًا خضراء وقلبًا حنونًا وطاهرًا يستطيع أن يزرعها، وذاك الشخص بالنسبة إلي هو بو مُس معلّمتنا.

كان لدينا عدد قليل من أحواض زهور «الكانا» أو الجمال المخطّط، واتفقنا على أن نضعها في المكان الأكثرَ تميزًا بين «الداون بيتشيسان» والعُصاريات التي لاحت دومًا باهتة إلى جانبها. عندما يحلّ الموسم وتبدأ البراعم بالإزهار، تغدو مثل كعكة ذات طبقات موضوعة على صينية فاخرة.

لطالما تسرّعت في ري الزهور حتى أنهي مهمّتي في أقصر وقت ممكن، لكن كلّما وصلت إلى زهور «الكانا» وجيرانها حاولت التريّث قدر الإمكان. استمتعت بأحلام اليقظة، مخمّنًا ما قد يدور في مخيّلة الناس وهم في وسط هذه الجنّة المنمنمة. أتراهم يشعرون كما لو أنهم في جنّة تعود إلى عصور ما قبل التاريخ.

كنت أجيل نظري في حديقة الزهور الصغيرة الواقعة أمام مكتب مديرنا

مباشرة. وأرى مسارًا صغيرًا من الحجارة المربّعة يقود إلى الحديقة، جانبه الأيسر يفيض بأنواع «المونستيرة» و»النولينا» والبنفسج والبسلة والجمبري دائم الخضرة و»الكلاديوم» والبيغونيا الطويلة التي لا تحتاج إلى رعاية. أزهار لا تنسيق في ترتيبها وغنية بالرحيق، تزاحِمها نباتات زاهية الألوان غير معروفة وأنواع مختلفة من الأعشاب والشجيرات البرية.

وإذ أتحوّل بنظري إلى سارية الجرس أرى كرمة القرع التي تسلّقتها وتطاولت لتلامس جدران مدرستنا الخشبية كأنها ذراع عملاقة، لا تعيقها ألواح السقف المتحرّرة من مساميرها ولا أغصان الرمّان التي تظلّل سطح المكتب. كانت كروم القرع الغضّة تلك تتدلّى حرّة أمام نافذة المكتب؛ بحيث يمكن أن يمدّ المرء يده ويلمسها. كثيرًا ما تعلّقت بها العصافير الجاوية. وطوال فترة الصباح يضجّ المكان بأصوات الخنافس والنحل. كنت كلّما أصخت السمع جيدًا، أشعر بعد برهة أن جسمي صار منعدم الوزن وأنه يطفو في الهواء.

الغريب في الأمر أن حديقتنا بدت بطريقة أو بأخرى متعهّدة بالعناية ومهملة في آن. لم تكن خلفية تلك الحديقة إلا مدرستنا الهرمة التي لاحت أشبه ببناء فارغ نسيه الزمن، مبرزة الانطباع بوجود جنّة برية.

ولولا بئر الأرواح الشريرة المخيفة، كان من الممكن كثيرًا أن يصبح ري الزهور عملاً ظريفًا.

أما مهمّة شراء الطباشير فهي المهمّة التي لا يماثل فظاعتها شيء آخر.

كان متجر «سينار هارپان» أو متجر شعاع الأمل، المكان الوحيد الذي يبيع الطباشير في شرق بيليتونج، بعيدًا جدًا عنّا، ويقع في سوق سمك قذر. وإذا لم تُوهب معدة قوية فستتقيأ من زخم الروائح النتنة التي تفوح من الفجل المملّح، ومعجون الفول المخمّر والنشاء ومعجون الروبيان وأنواع الفاصوليا الملقاة في صفائح صدئة أمام المتجر. وحالما تدخله تختلط تلك الروائح مع رائحة عبوات الألعاب البلاستيكية، والنفتالين المدمّع للعيون ونفر الطلاء الزيتي وإطارات العجلات

المتناثرة هنا وهناك وخمج التبغ الكاسد.

كان مالك المتجر ممّن يستهويهم التخزين. دأب على جمع خردة عديمة الفائدة، غير راغب أبدًا في التخلّص من أيٍ منها. ورائحة متجره الكريهة تتضمّخ دائمًا بروائح عرق عمال الساوانج وهم يدخلونه ويخرجون منه مع معاولهم، يرطنون بلسانهم الأم، وأكياس دقيق القمح ملقاة عشوائيًا على أكتافهم.

جاء الدور علي وعلى شهدان هذا الصباح لنشتري الطباشير. ركبنا الدراجة وأجرينا صفقة جدّية؛ يقود شهدان الدراجة وأجلس خلفه إلى أن نبلغ العلامة الدالّة على منتصف الطريق: مقبرة صينية. وهناك نتبادل الأدوار، وأقود الدراجة إلى السوق، ونفعل الشيء عينه في طريق العودة. ولم يخل الأمر من شرط آخر صعب: كلّما وصلنا إلى مرتفع، نترجّل ونتبادل الأدوار في دفع الدراجة، نفعل هذا بعد خطوات معينة محسوبة بدقّة.

«هيا يا صاحب الجلالة،» مازحني شهدان عندما انتهينا من أول منحدر.

وعلى الرغم من أنفاسه المتتابعة واجهني بابتسامة عريضة وهو ينحني كأنه لاعق أحذية. تقبّل شهدان المهامّ بفرح دائمًا مهما اختلفت، بما فيها ري الأزهار ما دام هذا يتيح له مغادرة الصفّ. بالنسبة إليه، كانت مهمّة شراء الطباشير مثل إجازة قصيرة وفرصة سانحة ليحاول مغازلة صاحبات المتاجر الشابّات اللاتي يضمر لهن الإعجاب. أما أنا فلم أهتم بمشاركته لهوه ذاك.

وصلنا إلى مزار مستدير يشبه الكعكة فيه صورة بالأبيض والأسود لسيدة حزينة الوجه، تغطيها رقاقة زجاجية في منتصفها، وقطرات الشمع الأحمر متناثرة حولها. كان ذاك القبر الذي اتفقنا عليه. وهنا جاء دوري لأقود الدراجة.

اعتليت الدراجة بفتور، ومع دورة العجلة الأولى تملّكني الغضب من نفسي، لاعنًا هذه المهمّة، والمتجر المقزّز، وصفقتنا الغبية. تنمّرت لأن سلسلة الدراجة المشدودة للغاية جعلت تحريك الدواسات عملية شاقّة. تنمّرت أيضًا من أشياء أخرى: من القانون الذي لا يساند الفقراء أبدًا، من السرج العالي كثيرًا، من المسؤولين الفاسدين يتجوّلون أحرارًا كالدّجاج البري، من ثقل جسم شهدان على

الرغم من أنه صغير الحجم، ومن العالم الجائر. جلس شهدان بثبات مستمتعًا كلّ الاستمتاع بمقعده الخلفي، يصفّر لحن أغنية «ليلة في ماليزيا». ولم يعر نحيبي أدنى اهتمام.

وصلنا إلى سوق السمك الذي أُقيم عن سابق تصوّر عند طرف النهر للتخلّص من النفايات بسهولة. إلا أن النفايات كانت تعود إليه وتتراكم في أزقّته الضيقة أثناء فترات المدّ العالي بسبب وقوعه على أرض واطئة. وبعد انحسار الماء تبقى القمامة عالقة بقوائم الطاولات وأكوام الصفائح والسياجات المحطّمة وجذوع أشجار «الكيرسن»، والأسوار الخشبية المتصالبة.

كان سوقنا ذاك نتاج تصاميم المدن المتطوّرة، جاء مجاملة من أكثر مهندسي الملايو المعماريين بدائيةً. لم يتّسم بأي تناغم، وعمّت فيه فوضى عارمة.

بما أن شراء الطباشير اعتُبر عملاً تافهًا، توجّب علينا أن ننتظر مالك المتجر حتى ينتهي من التعامل مع الرجال والنساء الذي غطوا رؤوسهم بعباءات السارونغ.

كان آمياو مالك متجر «سينار هاريان» شخصية مرعبة. رجل سمين يلبس دائمًا قميصًا بلا أكمام وبنطلونًا قصيرًا وخفًا، ولا يفارق دفتر الديون الصغير يده، وثمّة قلم مدسوس خلف أذنه التي تشبه كرة اللحم، وعلى طاولته عداد خشبي قديم كريه الوقع.

بدا متجره كثير الشبه بمستودعات الأسعار المخفّضة. تتكدّس فيه إلى السقف مئات الأنواع من البضائع. إلى جانب أصناف الفاكهة والخضار المختلفة وأطعمة أخرى في صفائح صدئة، يبيع المتجر أيضًا سجاجيد الصلاة وفاكهة «الكيدوندنغ» المخلّلة في جرار قديمة، وأشرطة الآلة الكاتبة، وطلاء يأتي معه تقويم فيه صور نساء يلبسن البكيني. وتعرض الرفوف الزجاجية الطويلة مستحضرات تبييض الوجه الرخيصة، وأقراص تنقية المياه، والمفرقعات والألعاب النارية، ورصاص الخردق، وسمّ الجرذان، وهوائيات التلفزيونات. وإذا ألحّت بالمرء الحاجة إلى شراء دواء الإسهال من ماركة الفراشة، فلا يتوقّع أن يعثر عليه آمياو فورًا. ففي بعض الأحيان ينسى أين هي الأشياء. كان بكلّ بساطة غارقًا في دوامة بركة من البضائع.

«كياك كياك!» استدعى آمياو عامله بانج أرسياد طالبًا منه أن يأتي بسرعة.

«ماغي دي مانغارا ماسيمبو ليًا؟» اشتكى رجل من شعب السارونغ عندما رأى ثمن فتيل مصباح الزيت. قال إنه أرخص في مانغار.

«كيتو لوي با؟ نغاب دي مانغار هارج إ ليبي مورا؟» صاح بانج أرسياد مبلغًا الشكوى لمعلّمه آمياو، السؤال الأول باللغة الخيكية والثاني بالملايوية.

شعرت بالغثيان من المتجر ورائحته الكريهة، لكن الحوار الجاري رفّه عني. ثلاثة رجال من ثلاثة أصول عرقية مختلفة تواصلوا معًا وكلّ منهم استخدم لغته الأمّ، بيد أن كلامهم المختلط لم يستعص على الفهم. كان آمياو متعجرفًا وبغيض الصوت. يعطي وجهه الانطباع بأنه يبحث دائمًا عمّن يستطيع ترهيبه، وتعامل مع الناس بفوقية. تفوح من جسمه رائحة كريهة كما لو أنه يأكل الكثير من الثوم أو ما يشبهه. لكنه كان كونفوشيوسيًا ورعًا، ولا يمكن إنكار أمانته في الأعمال التجارية.

كان من المتعارف عليه في ظلّ التنسيق بين أوساط مجتمعنا أن الصينيين هم التجار الأكفّاء. وقد أقبلت باكورة من جاءوا بهذه الصنعة من أماكن نجهلها. عرفناهم فقط من خلال علامات «صُنع في» التي على مؤخرة بنطلوناتهم. وبوجودهم بيننا غدا الملايويون من زمرة المستهلكين. وكلما ازدادوا فقرًا، ازدادوا إقبالاً على الاستهلاك. وفي الوقت نفسه وفّر شعب السارونغ للسوانج الأعمال الموسمية، وهؤلاء بدورهم نقلوا مشترياتهم إلى قواربهم.

جرت عملية شراء الطباشير بطريقة روتينية وثابتة دائمًا. أنتظر وأنتظر إلى أن يصبح الإغماء من هول الروائح على قاب قوسين مني، ثم يتلطّف آمياو ويصيح بصوت عالٍ طالبًا علبة طباشير. عندها، يردّ عليه أحد بصياح مماثل من قسم المتجر الخلفي. وكلما سمعت ذلك الصياح الذي يشبه صياح طائر شامة الدجّ افترضت أن صاحبته بنت صغيرة.

كانت علبة الطباشير تُمرّر لي من فتحة صغيرة بحجم باب قفص حمامة. ولا يمكن رؤية شيء من تلك الفتحة إلا يد يمنى ناعمة. وجه صاحبة اليد بقي لغزًا. فصاحبة تلك اليد يواريها الجدار الخشبي الخلفي الذي يفصل المخزن عن بقية

المتجر. لم توجّه لي صاحبة اليد الغامضة كلمة قطّ. اكتفت دائما بتمرير علبة الطباشير ثم تسارع وتسحب يدها فورًا، كشخص يطعم نمرًا قطعة لحم. مضى الأمر على هذا النحو لسنوات، الإجراء بقي دائمًا هو نفسه بلا أي تغيير.

لم تكن تضع خاتمًا في أناملها البضّة، بل تلبس سوارًا مصنوعًا من أحجار الجاد، ورؤوس أصابعها المنعطفة إلى الأعلى متوّجة بأظفار فائقة الجمال، مقلّمة بعناية وأكثر سحرًا من سوار الجاد.

لم أكن قد رأيت قطّ أظفارًا بهذا الجمال لدى أي بنت ملايوية، ناهيك عن بنات الساوانج. بدت تلك الأظفار جدّ ملساء إلى درجة الشفافية. رؤوسها مقلّمة بدقّة متناهية على شكل هلال، مشكّلة تناغمًا مذهلاً مع أصابعها.

أما سطح الجلد حول أظفارها فبدا نظيفًا جدًا، ولعلّ هذا يعود إلى أنها تنقع يديها في وعاء سيراميك قديم مملوء بالماء الدافئ وأوراق «الإيلنغ» الغضّة. كانت تلك الأظفار عندما تنمو تنحني برفق نحو رؤوس الأصابع، مضفية على المنظر العام مزيدًا من الجمال كأنها أحجار المرو المائلة إلى الزرقة في قاع نهر مارانج. مختلفة جدًا عن أظفار البنات الملايويات، التي غالبًا ما تغدو مثل أسنان المعزقة عندما تنمو؛ عريضة وبارزة بطريقة بشعة.

أُسندَت إلي مهمّة شراء الطباشير المزعجة على نحو متكرّر. وكان حافزي الوحيد للقيام بها هو فرصة إلقاء نظرة على تلك الأظفار. ونظرًا إلى تكرّر ذهابي إلى هناك، عرفت المواعيد التي تقصّ فيها تلك الفتاة الغامضة أظفارها: مرّة كلّ خمسة أسابيع في يوم الجمعة.

لم أر وجهها قطّ. وهي من جهتها لم تهتمّ برؤية وجهي. ولم تجب مطلقًا في أي مرة قلت لها «كامسيا» أي شكرًا بعد تسلّمي علبة الطباشير. بقيت صامتة كالحجر. كانت هذه الصبية الغامضة بالنسبة إلي أشبه بمخلوق غريب من أرض مجهولة. حافظت على المسافة بيني وبينها بثبات. لا كلمة مرحبا، لا وقت تضيعه على المسائل التافهة. وقلّة أهمّيتي في نظرها لا تختلف في شيء عن قلّة أهمية علبة الطباشير.

جاءت أوقات شعرت فيها بالفضول لرؤية ما تبدو عليه صاحبة هذه الأظفار السماوية. أهي جميلة كأظفارها؟ أأظفار يدها اليسرى بروعة أظفار يدها اليمنى؟ أم تراها لا تملك إلا يدًا واحدة؟ بل حتى ألَها وجه؟ لكن هذه الأفكار بقيت دفينة في قلبي، ولم تراودني أي نيّة في التسلّل وإلقاء نظرة خاطفة عليها.

عادةً بعد تسلّم علبة الطباشير يقوم آمياو بتسجيل ذلك في دفتر الديون، وفي نهاية كلّ شهر يسدّد باك هرفان الفاتورة. أما نحن الأطفال فلم نتعامل بالأمور المالية. وكلّما ذهبنا إلى المتجر، لا يكلّف آمياو نفسه عناء النظر إلينا. بدلاً عن ذلك تتقف أصابعه العداد الخشبي بإيقاعٍ عالٍ، كما لو أنه يذكّرنا بديوننا المتراكمة.

بالنسبة إلى آمياو لم نكن عملاء مربحين؛ بعبارة أخرى: لم نمثّل إلا المتاعب. إذا حدث وطلب منه شهدان استعارة منفاخ الدراجة، يعيرنا إياها وهو ينفجر متذمّرًا. لم يحبّ أن يعير منفاخه لأحد، خصوصًا لنا. وقد كرهت حقًا قميصه الذي بلا أكمام.

ارتفعت حرارة الجوّ في المتجر، شعرت أنني كومة خضار تغلي في حساء. نبح آمياو آمرًا الفتاة الغامضة بتمرير علبة الطباشير عبر باب قفص الحمامة. ثم بنظرة صارمة أشار لي لآخذ العلبة.

تحرّكت بسرعة بين أكياس الثوم وأنا أسدّ أنفي. ولكن على خطوات قليلة من باب قفص الحمامة التقطت أذني حفيف نسمة منعشة تريّثت عندي لبرهة قصيرة. لم أدرك آنذاك أن قدري قد زحف إلي في المتجر الفوضوي، وأنه حاصرني هناك وأخذ بتلابيبي بلا رحمة. من غير أن أعرف، كانت الثواني القادمة هي التي ستحدّد الرجل الذي سأصبح عليه لاحقًا. في تلك اللحظة بالضبط سمعت الصبية الغامضة تصيح بصوت عالٍ، «هيا يايا!» ثم سمعت صوت عشرات قطع الطباشير تسقط على الأرضية الطينية.

يبدو أن الصبية ذات الأظفار الرائعة تصرّفت بإهمال وهي تمرّر العلبة، فكانت

النتيجة أن وقعت العلبة وتناثرت منها أصابع الطباشير على الأرض.

اضطررت إلى النزول والزحف على الأرض لألتقط القطع المبعثرة واحدة واحدة، من الفجوات بين أكياس «الميريقة» الخام التي بعثت رائحة تسبّب الدوار. احتجت مساعدة شهدان، لكنه كان يتحدّث باندفاع مع ابنة بائع الكعك كما لو أنه باع للتوّ خمس عشرة بقرة. وكرهتُ مقاطعة لحظته المصطنعة.

وهكذا لم أملك أي خيار. سقط قسم من الطباشير تحت باب مفتوح تحجب ما خلفه ستارة من صدف البحر الصغير الموصول باحتراف دقيق. عرفت أن الصبية كانت هي أيضًا تلتقط قطع الطباشير من وراء الستارة. سمعتها تدمدم، «هي يا يا.. هي يايا...»

فجأة أزاحت الستارة، تاركة وجهينا المذهولين يلتقيان لا تفصلهما عن بعضهما إلا مسافة تقلّ عن شبر واحد.

حدق كلّ منا في عيني الآخر بشعور تعجز الكلمات عن وصفه. تراخت يداها اللتان تحملان ما جمعته من الطباشير، فهوت تلك القطع أرضًا. أما أنا فأحكمت قبضتي على الطباشير أكثر، وشعرت كما لو أنني أمسك مجموعة من المصاصات.

بدا لي في تلك اللحظة أن جميع عقارب ساعات العالم قد توقّفت. أن جميع الأشياء المتحرّكة تجمّدت، كأن الله التقط صورة لها بآلة تصوير عملاقة من السماء. كان ضوء تلك الآلة مُعميًا. رأيت نجومًا. ذهلتُ. شعرت كأنني أطير، أموت، أسقط مغميًا علي. عرفت أن آمياو يصيح إلا أنني لم أسمع صياحه، وعرفت أن جوّ المتجر أصبح آسنا من نتن هوائه الخانق لكن حواسي كانت قد ماتت. وأعتقد أنها شعرت كما شعرتُ.

«سوين! سوين! سيغر...!» صاح العامل الساوانجي، طالبًا مني أن أفسح الطريق بسرعة، لكن صوته بدا بعيدًا جدًا، كأن صداه المتردّد آت من أعماق كهف. انعقد لساني. عجزت عن التفوّه بكلمة واحدة، عجزت عن الإتيان بحركة واحدة. تلك الصبية شلّتني حتمًا. النظرة في عينيها عصرت قلبي.

كان وجهها البيضاوي بديعًا، مثل وجه «ميشيل يوه»، نجمة السينما الماليزية. ثيابها الأنيقة والمطرّزة، المزدانة بزهور النوّار الصغيرة أوحت أنها ذاهبة لحضور حفلة زفاف. كانت تلك اللحظة لحظة الحقيقة: صاحبة الأظفار السماوية هي بلا شكّ صبية بديعة الجمال وذات جاذبية لا توصف.

تضرّجت وجنتاها بالحمرة. لا ريب في أنها شعرت بحرج بالغ. نهضت، وصفقت باب قفص الحمامة من غير أن تعيرني أو تعير الطباشير أي اهتمام.

أيقظتني خبطة الباب الصغير من التعويذة المُسكرة. ترنّحت في مكاني وقد أصابني الدوار وزاغت عيناي. لم أستطع النهوض من على الأرض. أخذ دمي يخزني، وأصبح جسمي رطبًا. لقد خبطني للتوّ حبّي الأوّل من النظرة الأولى. هذا الشعور الخارق الذي لا يختبره إلا قلّة من المحظوظين حقًا.

استدرت لأغادر المتجر غير آبه بعلبة الطباشير نصف الفارغة. شعرت بانعدام الوزن، كأنني رجل مقدّس يستطيع أن يمشي على الماء. غمرتني سعادة عارمة غريبة، لا تشبه أي شيء اختبرته من قبل. سعادة تفوق بكثير سعادتي يوم أعطتني أمي راديو ترانزيستور بتردّدين بعد خضوعي للختان.

رنوت إلى داخل المتجر وأنا أهمّ بالمغادرة. ولمحت الصبية تسترق النظر إلي من وراء الستارة. كانت تخفي نفسها، إنما ليس مشاعرها. هناك بالضبط، بين أكياس «الميريقة» النتنة وصفائح الكيروسين وأكياس فاصوليا «الجينكول» عثرت على الحبّ.

أضأت في وجه شهدان أفضل ابتسامة لدي، ولم أتلقّ منه إلا نظرة حيرى. بعدئذٍ رفعت جسمه الصغير ووضعته على الدراجة. أصبحت رجلاً بقوة لا تُقهر، وكنت على أتمّ الاستعداد لأقود الدراجة بشهدان إلى أي مكان في العالم. ذاك يا صديقي ما يسمونه جنون الحبّ.

بعد المدرسة استدعتنا بو مس لتسألنا عن النقص في كمّية الطباشير. وهناك

وقفت، ساكنًا كتمثال، غير راغب في الكذب، ولا الإجابة، ولا حتى نفي التهمة. كنت جاهزًا من صميم قلبي لقبول أي عقوبة مهما قست، بما في ذلك استعادة الدلو الذي أوقعه ترابابي في بئر الرعب. لم يشغل رأسي شيء إلا الصبية صاحبة الأظفار السماوية، واللحظة السحرية التي داهمني فيها الحب.

جاءت العقوبة كما توقّعتها. نزلت إلى البئر لأستردّ الدلو، وبأعجوبة، تراءت لي بئر الرعب ساحرة! آه، الحب!

١٨

تحفة فنية

كان هناك احتمال في أن يُعلي كرنفال عيد الاستقلال في ١٧ آب من شأن كرامتنا. وكانت الجوائز ستُمنح لأجمل زي، وأفضل مبدع، وأحسن المركبات زينة، وأجود موكب، وأكثر المشاركين تناغمًا، والأهمّ من ذلك كلّه أروع أداء فني.

لم يخفِ پاك هرفان وبو مُس تشاؤمهما من الكرنفال بسبب مشكلتنا الأبدية: التمويل. ما يعني أننا لا يمكن أبدًا أن نتحمّل نفقات أداء جيد. فالمدارس الحكومية قادرة على استئجار أزياء تقليدية تجعل عروضها ساحرة. ومدرسة الـ پ ن تتفوّق على الجميع في حصد الإعجاب والاستحسان. كان موكبها الأطول دائمًا، ومركزها الأكثر استراتيجية، وتكوينها الأكبر. يتألّف صفّ استعراضها الأمامي من دراجات جديدة عليها سلال مزينة بألوان بهية، ومَن يركبونها يأتون متأنقين بثياب جميلة، ويرنّون أجراسها في وقت واحد. أما الصفّ الثاني فيتألّف من سيارات زُيّنت كقوارب وطائرات، وتقلّ صبايا يلبسن فساتين سندريلا ويضعن تيجانًا. كان موكبًا احتفاليًا بديعًا بكلّ ما في الكلمة من معنى.

تتصدّر موكب مدرسة الـ پ ن فرقة موسيقية، وهو الجزء الذي لطالما استهواني أكثر من غيره، حيث يبدو لي دوي عشرات الترومبونات مثل نفخ الصور في يوم القيامة، وحيث يهزّ قرع الطبول أوتار قلبي.

عندما يصل الاستعراض إلى ذروته تشكّل الفرقة الموسيقية مربّعين جوالين بينما تلقي التحية على منصّة كبار الشخصيات؛ المنصّة التي تخصّص للحضور

المهمّين، بمن فيهم رئيس عمليات شركة الـ پ ن، ومساعده الذي لا يفارقه جهاز الاتصال اللاسلكي، جنبًا إلى جنب مع بعض مدراء الـ پ إن، ورؤساء القرى وأصحاب متاجر النثريات الأغنياء ومدير عام البريد والمشرف على بنك ب ر أ، وزعيم قبيلة الساوانج، وزعيم قبيلة شعب الساورنغ ورئيس الجالية الصينية، والكهّان، وشخصيات أخرى بارزة، وكلهم تصحبهم زوجاتهم العجائز. تُنصب المنصّة عادة في وسط السوق، وتتجمّع الحشود حولها، فمعظم المتفرّجين يفضّلون الوقوف قرب المنصّة لأنها الموقع الذي يقدّم فيه المتبارون عروضهم النهائية. وعلى تلك المنصّة تجلس أيضًا لجنة تحكيم جاهزة لتقويم الأداء.

غالبًا ما انتزعت مدرسة الـ پ ن المراكز الثلاثة الأولى عن جميع الفئات. وقد تحصل في بعض الأحيان المدارس الحكومية من عاصمة المقاطعة تانجونغ باندان على المركز الثالث عن بضع فئات. أما نحن فكنّا نشعر بالخجل؛ لأننا داومنا على تقديم استعراضنا المتواضع نفسه، سنة بعد سنة. لكن الأمل دغدغنا هذه المرّة لأن لدينا مهار.

نظر معظمنا في مدرسة المحمدية إلى الكرنفال باعتباره تجربة غير سارّة، أو بالأحرى صادمة. اقتصر أداؤنا فيه على حفنة من الأطفال يقودهم معلّما القرية وهما يرفعان راية عليها رمز مدرستنا. الراية مصنوعة من قماش رخيص يتوسّط بطريقة محزنة قضيبين من الخيزران الأصفر. وخلف المعلّمين ثلاثة صفوف من تلاميذ يلبسون الساورنغ وطاقيات المسلمين التقليدية وأزياء إسلامية. وهم يمثّلون مؤسسي حركة الاتحاد الإسلامي أو «ساريكت إسلام» والآباء المؤسسين للمحمدية.

جاء شمشون إلى الكرنفال كلّ سنة ببزة حارس بوابة السدّ. ولم يفعل ذلك لأنه يأمل في أن يصبح حارس سدّ مثل أبيه، ولكن لأنه الزي الكرنفالي الوحيد المتوافر لديه. وفي المقابل داوم شهدان على الظهور بزي صياد سمك، وهذا أيضًا وفقًا لصنعة أبيه. أما آكيونج فاختار في جميع الكرنفالات السابقة زي حارس الجرس في معبد شاولين.

شارك تراپاني دائمًا وهو ينتعل جزمة عالية، ويلبس خوذة وبذلة عامل. الزي يعود لأبيه. وهو يمثّل عاملاً في الـــ پ ن. وكوتشاي، الذي لم يمتلك جزمة ولا خوذة، ساهم في الاستعراض وهو يلبس ثياب عامل. وإذا سُئل أوضح أنه عامل پ ن من الطبقة الدنيا في إجازة.

زيادة في المأساوية دأب شهدان على جلب كيس شبكة صيد معه. ويكتفي لينتانج بنفخ صفارة لأنه حكم كرة قدم، بينما أجري أنا حوله ذهابًا وإيابًا باعتباري مساعد الحكم. وهناك أيضًا تلميذ وسيم أنيق بحذاء أسود وبنطلون داكن وحزام عريض وقميص أبيض طويل الأكمام ويحمل حقيبة كبيرة. وما ذاك التلميذ المميّز إلا هارون. لم تتضح لنا قطّ المهنة التي يمثلها، وإن بدا في نظري أنه يشبه رجلاً طردته حماته.

هكذا دأبنا على الظهور سنة بعد سنة. ولم يرمز شيء من هذا إلى تطلّعاتنا، لأننا لم نجرؤ على أن تكون لنا تطلّعات. وبما أننا لم نملك المال لنستأجر أزياءً كرنفالية، جاء الاقتراح بأن يستخدم كلّ منا زيّ مهنة أبيه. وبذلك ظهرنا في الكرنفالات السابقة ونحن نمثّل وظائف المجتمع المهمّشة، وفي هذا السياق، ماثلَ مهار في أناقته أناقة هارون. كان وهو يمشي يلوّح للمتفرّجين ببطاقة تقاعدٍ بما أنّ والده انضمّ إلى زمرة المتقاعدين. أمّا سهارى فتتخلّف على مضض لأن والدها قد صُرف من الخدمة.

بالنظر إلى واقع حالنا، كان يترتّب علينا، كلّما جاء موعد الكرنفال، أن نواجه إيجابيات المشاركة فيه وسلبياتها. وهذه السنة اقترح تراپاني وسهارى وكوتشاي ألا نشارك بدلاً من المشاركة وإحراج أنفسنا. أما بو مُس وپاك هرفان فكان لديهما رأي آخر.

«الكرنفال هو السبيل الوحيد ليعرف العالم أن مدرستنا ما زالت موجودة على وجه هذه الأرض. مدرستنا هي مدرسة إسلامية هدفها تعزيز القيم الدينية! ويجب أن نفخر بهذا!» قال پاك هرفان. «إذا قمنا بأداء مثير للإعجاب، ربما يُسرّ السيد صمديكون ويحاول إعادة النظر في قرار إغلاق مدرستنا. هذه السنة، سنمنح مهار

فرصة ليرينا ما لديه. أتعرفون شيئًا؟ إنه فنان جِدّ موهوب!»

كان پاك هرفان فخورًا حقًا بمهار. فقد منحه مهار سمعة جيدة بحلّ مشكلة جمهور كبير يحاول التفرّج على التلفزيون غير الملوّن في قاعة القرية. الحلّ الذي ابتكره مهار هو وضع مرايا عدّة لتعكس شاشة التلفزيون، وهذا سمح لقاعة القرية أن تستوعب عددًا أكبر من المتفرّجين.

قابلنا خطبة پاك هرفان بالتصفيق وهتفنا لمهار، إلا أن مهار لم يكن في أي مكان يمكن رؤيته. تبيّن لنا بعد ذلك أنه يعتلي أحد أغصان شجرة الفيلسيوم وعلى وجهه ابتسامة لعوب.

عيّن مهار على الفور آكيونج مساعد الشؤون العامة، أي بعبارة أخرى خادمه. وأخبرني آكيونج أن النوم جفاه ثلاث ليال لأنه كان فخورًا جدًا بمنصبه. ومهار أيضًا بقي ساهرًا ثلاث ليال يتأمّل طلبًا للإلهام. منعنا من إزعاجه. ولم أر مهار يتصرّف بمثل هذه الجدّية كما رأيته آنذاك.

واظب مهار كلّ مساء على الجلوس وحده في وسط الحقل خلف مدرستنا. قرع الطبل بحثًا عن الإيقاع ولم يسمح لأحد بالاقتراب منه. حدّق إلى السماء ونهض فجأة ليقفز حول نفسه. جرى في دوائر وصاح كالمجنون وألقى بجسمه أرضًا، تدحرج وعاد وجلس مرة أخرى وبلا سابق إنذار طأطأ رأسه مثل حيوان يعاني.

أكان يبتكر تحفة فنية؟ أتراه ينجح في التعويض على مدرستنا بعد ما لاقته من ازدراء في الكرنفال على مدى سنوات عديدة؟ أهو حقًا شخص ريادي؟ متمرّد قادر على تحقيق إنجازات هائلة؟ أينبغي أن يتحمّل عبء إقناع السيد صمديكون بحيث يمتنع عن إغلاق مدرستنا؟ وذاك عبء ثقيلٌ ثقيلٌ يا صديقي، فمهار في النهاية لم يكن إلا مجرّد فتى صغير.

واظبت على مراقبته من بعيد. مرّ أسبوع، ولم يكشف بعدُ عمّا يدور في خَلَده.

ثم، في صباح يوم سبت مشرق، جاء مهار إلى المدرسة وهو يصفّر. أدركنا

أن الإلهام قد جاءه. تجمّعنا حوله. نظر إلى كلّ واحد منا مباشرة، نظر إلينا فردًا فردًا، كما لو أنه على وشك أن يعرض مصباحًا سحريًا على مجموعة من الأطفال الصغار.

«لا مزارعين، ولا عمال پ ن، ولا معلّمي قرآن، ولا حرّاس سدود في كرنفال هذه السنة!» صاح. «جميع طاقات المحمدية ستتّحد من أجل شيء واحد!»

اعترتنا الحيرة.

«سنقوم بأداء رقصة تقليدية لقبيلة ماساي الأفريقية!»

تبادلنا كلّنا النظر غير مصدّقين آذاننا.

«خمسون راقصًا! ثلاثون قارع طبل! كلّهم يدورون بسرعة مثل المحترفين، سنُذهل منصّة كبار الشخصيات.»

ربّاه! كاد يغمى علي. قفزنا وقفزنا ونحن نتخيّل عظمة عرضنا المقبل.

«مع شُرّابات من أوراق الذرة!» صاح پاك هرفان من الخلف.

«ومع الذؤابات!» أضافت بو مُس. كان الجميع في حالة نشوة.

يستعصي التنبؤ بأي شيء يخصّ مهار. لم يترك خياله مكانًا إلا قفز إليه. كان تقديم عرض يمثّل قبيلة إفريقية نائية فكرة رائعة بحقّ. معروف عن تلك القبيلة قلّة ما ترتديه من ثياب. وكلّما قلّت الملابس، قلّت الحاجة إلى تمويل المشروع. لم تكن فكرة مهار رائعة من الناحية الفنية فقط، بل أيضًا استوعبت حالة مدرستنا المادية.

بعد ذلك الإعلان، بذلنا كلّ مساء بعد المدرسة جهودًا عظيمة ونحن نتمرّن على الرقصة الغريبة من الأرض البعيدة. وحسب تعليمات مهار، ينبغي أداء الرقصة بسرعة وحيوية. خبطنا الأرض بأقدامنا، استقبلنا السماء بأذرعنا، شكّلنا حلقة ونحن نلفّ وندور. ثم طأطأنا رؤوسنا، قفزنا، التفتنا وتفرّقنا في مختلف الاتجاهات، وعدنا بعد ذلك إلى التشكيل الأصلي للرقصة. لا مجال لأي حركة وادعة؛ كان كل شيء سريعًا وشرسًا وشغوفًا وممتعًا. رافق السيناريو بأكمله قرع الطبول، إيقاعها يخترق

السماء بلا هوادة، وقارعو الطبول يرقصون بحيوية. كان علينا أن نصيح مردّدين كلمات لم نفقه معناها: هابونا! هابونا! بارابا، بارابا، بارابا، هابا، هابا، هووم!

عندما سألنا مهار عن معنى تلك الكلمات، تصرّف كما لو أنه يمتلك معرفة تمتدّ عبر القارات وأجاب أنها قافية إفريقية تقليدية. فاكتشفت يومها أن الشعوب الإفريقية لديها قاسم مشترك مع الملايويين: تسلّط فكرة الكلمات المُقفّاة عليها. خبأت تلك المعلومة في ذاكرتي.

على أي حال تبيّنت لاحقًا أنني قد أخطأت في فهم المعنى الذي تحمله الرقصة. ففيما مضى وقعت تحت انطباع بأننا نحن الثمانية؛ اختارت سهارى ألا تشارك في الرقصة ومهار هو من تولّى القرع على الطبل، سنمثّل دور قبيلة الماساي، سعداء لأن أبقارنا الحبلى تلد. ولكن لدهشتي العظيمة، قال مهار إننا نحن الأبقار، وبعد وصلة من الرقص المُتّقد ستهاجمنا الفهود. ستحيط بنا، تشتّت تناغم رقصتنا ثم تنقضّ علينا. تتغلّب الفوضى على الأبقار، ثم في تلك اللحظة، يأتي جنود الماساي الشجعان لنجدتنا. يتعارك الجنود مع الفهود لينقذونا نحن الأبقار. نسّق مهار ببراعة حركة الفهود، فبدت لا تختلف في شيء عن حيوانات لم تأكل منذ ثلاثة أيام.

مثّلَ تصميمُ الرقصة مسرحيةً مثيرة؛ كفاح الإنسان الجماعي ضدّ الوحوش في مجاهل أفريقيا، عمل فني نموذجي، تحفة مهار الفنية.

أتعرف يا صديقي ما هي السعادة؟ هي ما شعرت به آنذاك. استولى علي مشروعنا الفني استيلاء كاملاً. كنت سأؤدي عرضًا مسرحيًا مع أعزّ أصدقائي، وربما تراني «حبّي الأول» وأنا أفعل ذلك.

١٩

جريمة مُحكمة التخطيط

وجاء أخيرًا يوم الكرنفال. كان يومًا جعل نبض قلوبنا يتسارع.

صمّم مهار أزياء الفهود من قماش لُوّن بالأصفر ورُقط ببقع سوداء، محوّلاً تلاميذ الصفوف الأدنى إلى حيوانات برّية مُقنِعة، وأضيفت إلى رؤوسهم خصل من الشعر المصبوغ بالأصفر تماشيًا مع وجوههم الملوّنة.

اضطلع آخرون غيرهم بدور قارعي الطبول. طُليت أجسامهم بلون أسود لامع ووجوههم بالبياض الناصع، وبدا مظهرهم النهائي غريبًا نوعًا ما. أما الموران أو جنود الماساي التقليديون ذائعو الصيت فدُهنوا بصباغ أحمر. تسلّحوا بالحراب والسياط الحمراء ووضعوا على رؤوسهم أغطية صُنعت من الحشيش البرّي المنسوج، وأوحى شكلهم بالشراسة.

أولانا مهار، نحن الأبقار، اهتمامًا خاصاً مضاعفًا، كانت أزياؤنا جدّ فنية. لبسنا بنطلونات قانية الحمرة تمتد من السرّة إلى الركبتين. طُليت أجسامنا باللون البنّي الفاتح مثل الأبقار الأفريقية، وخُطّطت وجوهنا. طُوّقت كواحلنا بخلاخيل وأجراس وشُرّابات راحت تصلصل مع كلّ خطوة خطوناها. وأحاطت خصورَنا زنانيرُ صُنعت من ريش الدجاج. وضعنا أيضًا ملحقات زخرفية مختلفة وغريبة، مثل أقراط ذات مشابك وأساور مصنوعة من جذور الأشجار.

ثم هناك تيجاننا؛ تيجان كبيرة من قماش طويل ومبروم، يتخلّله مزيج من ريش الإوز واللحاء والأزهار البرية والأعلام الصغيرة.

كان الشيء الأقل غرابة من بين جميع الملحقات الزخرفية تلك القلائد المُعدّة من فاكهة سكر النخيل والتي ضُمّت معًا مثل قطع لحم يجمعها خيط روطان. لم يساور أحدًا منّا الشكّ في أن سلاح مهار السرّي يكمن في هذه القلائد العادية. بقي ساهرًا ثلاث ليال وهو يصنعها؛ كانت ذروة إبداعه.

من أجل اللمسة الأخيرة، ثبّت مهار على ظهورنا لُبدًا تشبه لبد الخيول مصنوعة من خيوط بلاستيكية. وقبل أن يبدأ العرض تجمّعنا في حلقة، أمسكنا بأيدي بعضنا، حنينا رؤوسنا وصلّينا.

كما توقّعنا، كان ترحيب المتفرجين المصطفّين على جانبي الشارع مدهشًا. ومع اقترابنا من منصّة كبار الشخصيات سمعنا دوي الطبول والطوباس والأبواق والترومبونات والكلارينيت والساكسوفون. كانت تلك فرقة الــ پ ن الموسيقية.

بلغ أداء الفرقة ذروته عندما وقفت أمام منصّة كبار الشخصيات وعزفت «كونشرتو للبوق والأوركسترا.» مقدمة الكونشرتو الجميلة أماطت اللثام عن خمسة عشرعازفًا يوقّعون ثلاثة أنغام مختلفة على آلاتهم. ثم واكبتها الصنوج إلى أن خفتت وتيرتها ونبرتها مع تصاعد إيقاع الدفوف الصغيرة. لم يكن الجمهور قد انتهى من التمايل مع الطبول عندما اندفع حرّاس الألوان إلى الشارع برقصة معاصرة جذابة.

صفّق آلاف المتفرجين، وعلا هتافهم أكثر فأكثر مع ظهور ثلاث فتيات من فريق المشجّعات؛ ثلاث ملكات فاتنات كأنهن قدمن مباشرة من صفحات تقويم بنّاتي أخذن يحرّكن عِصيّهن بمهارة ويقذفنها عاليًا في الهواء. كنّ يلبسن تنانير قصيرة وجوارب سوداء طويلة وجزمات أسبانية تبلغ حدود ركبهن وكعوبها عالية، وقفازات بيضاء تصل إلى مرافقهن.

أثارت الفتيات إعجاب الجميع، لكن هذا لم يثبط عزيمتنا. سارعنا إلى تأليف صفوفنا، وانتظرنا بفارغ الصبر دورنا.

وبينما بدأت الفرقة الموسيقية تغادر، مستمتعة بالتصفيق، باغت مهار وقارعو

الطبول منصّة كبار الشخصيات. قرعوا الطبول بكل ما أوتوا من عزم، وتحرّكوا بحيوية كقرود تتصارع على ثمار المانجا. قاد مهار ببراعة خيال المتفرّجين إلى أفريقيا. ومن غير أن يحثّهم أحد، هلّلوا للطبول.

في سياق ترقّبنا المتوتر، شعرت بسخونة تسري في عنقي وصدري وأذني، سخونة تحوّلت إلى حُكاك. وسرعان ما رأيت أن رفاقي أيضًا يعانون ممّا أعاني. ثم أدركنا الأمر: كان الحكاك ناجمًا عن نسغ قلائد نخيل السكر.

تضاعفت شدّة الحكاك وتزايدت بسرعة كبيرة. إلا أننا لم نملك ما يمكننا فعله حيال ذلك، فخَلْع القلائد يستلزم أولاً التخلّص من التيجان التي يبلغ وزن الواحد منها رطلين، والتي ثُبتت على رؤوسنا بلفّ شرائط قماش حول ذقوننا ثلاث مرات. من الواضح أن مهار صمّم التيجان على ذلك النحو لا ليعزّز فقط أزياءنا بل أيضًا ليضمن عدم تخلّصنا من القلائد. وهكذا وجدنا أنفسنا بلا حول ولا قوة، ثم رأينا مهار يعطينا الإشارة بأن دورنا قد جاء.

لن أنسى ما حييت ما حدث بعد ذلك. هاجمنا الساحة بروح إسبارطية. ضجّ المكان بتصفيق الجمهور. في البداية رقصنا وفقًا لتصميم الرقصة. ثم، نحن الأبقار، بدأنا نتحرّك بطريقة غريبة نوعًا ما، منحرفين عن السيناريو الأصلي، لأننا كنّا نتعرّض لهجومِ حُكاكٍ لا يطاق.

حاولنا الامتناع عن حكّ أجسامنا لأن هذا يفسد موضوع الرقصة. كنّا عازمين كلّ العزم على إلحاق الهزيمة بفرقة الــ پ ن الموسيقية. تحمّلنا ما نحن فيه من بؤس. رحنا نقفز كالمجانين لأننا رأينا أنها الطريقة الوحيدة للتخفيف من عذاب الحكاك. زأرنا، تناطحنا، انقضضنا بعضنا على بعض، زحفنا، تدحرجنا على الأرض وتلوّينا. كنّا مثل علبة من الديدان سُكبت على طريق أسفلتي يبقبق من شدّة الحرارة. لا شيء مما فعلناه كان من ضمن تصميم الرقصة الأصلي.

غلى قارعو الطبول واتّقدوا وهم يروننا نشتعل بموسيقاهم. تسارعت وتيرة إيقاعهم لتواكب حركتنا. افترض المشاهدون أن وقع الطبول نسج حولنا نوعًا من السحر أوقعنا نحن الأبقار الثماني في حالة من النشوة. تعاظمت دهشتهم.

وفقًا لتصميم الرقصة، تضمّن الجزء التالي من وصلتنا هجوم الفهود علينا. نحن، الذين استحوذ علينا جنون الحكاك قمنا بهجوم مضادّ، فهربت الفهود لتنجو بجلدها. لم يُفترض أن يجري المشهد على هذا النحو. فالخطّة اقتضت أن نخاف ونفرّ حتى يأتي جنود الماساي الشجعان لنجدتنا. إلا أننا لم نقدر على الوقوف من غير أن نفعل شيئًا، فالحكاك حينها سيجعل عروقنا تنفجر.

عاودت الفهود الهجوم، ومرّة أخرى صددناها. الانحراف عن النصّ الأصلي أبرز على نحو غير متوقّع جوهر الحيوانات الفعلي، التي يمكن أن تكون أحيانًا شريرة وفي أحيان أخرى هيّابة. رنوت إلى مهار الذي بدا مبتهجًا بارتجالنا. لا بدّ أنه عرف كيف يتلاعب بالوضع، متوقّعًا هذه النتيجة بعينها. غدا قرع طبلته أكثر حيوية. وابتسم ملء شدقيه. لم أره من قبلِ قطّ على هذه الدرجة من السرور.

ارتفعت حرارة نبض الشارع مع اندفاع جنود الماساي لإنقاذنا. عندئذٍ اندلعت معركة حامية الوطيس. تطاير التراب من الطريق ودوّم حولنا. ومن وسط المعمعة علت صيحات هستيرية، وزئير حيوانات، وقرع طبول. تصميم رقصتنا وُسم بطابع رقص الطبول لدى قبائل جنوب الصحراء الكبرى. ومثّل أحد مظاهر الكفاح من أجل البقاء، تجسّده استعارات مجازية لحركات الإنسان. هزّت ذبذبات رقصنا الكيان، كما لو أنها اقتُبست من الطقوس الصوفية التي تحاكي دورة الحياة. ذُهل الحضور. ونفدت الأفلام من المصورين.

بعد انتهاء العرض ركضنا نبحث عن الماء. كان مصدر الماء الأقرب بركة جرجير قذرة وراء متجر نثريات، تعجّ بالسمك الفاسد الكاسد. أكان في وسعنا فعل شيء آخر؟ غطسنا في تلك البركة.

لم نشاهد المتفرّجين وهم يقفون تحية لمهار. لم نشاهد دموع الفخر تتساقط على وجنتي بو مُس وياك هرفان. لم نسمع إشادة رئيس لجنة التحكيم بترجمتنا البديعة للرقصة من الأراضي البعيدة. ولم نعرف أيضًا أن مهار كان في تلك اللحظة يتسلّم كأس أفضل أداء فني لهذه السنة. هي المرّة الأولى التي تحصل فيها مدرسة قرية على الكأس. هي الكأس التي يمكن أن تحول دون أن تتعرّض مدرستنا للسخرية ثانية.

بينما أخذ الاحتفال المجيد مجراه، قبعنا في البركة الموحلة نتمرّغ فيها ونفرك أعناقنا بأوراق نبتة المخملية. هذا لم يمنعنا من تخيّل مهار وهو يبتسم فيما ينهال الثناء عليه. بعد سنين من استهزائنا به، حصل على انتقامه وعلى الجائزة التي صبا إليها. كان عبقريًا. ولا شكّ في أنه وجد مذاق انتقامه حلوًا، حلوًا كثيرًا جدًا، بحلاوة فاكهة "البينتانج».

٢٠

الشوق

في صباح يوم اثنين مميّز، بعد سنين من الحظّ العاثر، ابتسمت المحمدية في بيليتونج للمرّة الأولى.

أقمنا احتفالاً متواضعًا أمام خزانة العرض الزجاجية التي تراءى لنا أنها تبادلنا الابتسام. لأوّل مرّة، ستضمّ شيئًا يستحقّ حقًا رفوفها: كأس.

في اليوم السابق، سلّم رئيس لجنة تحكيم الكرنفال الكأس لمهار، واضعًا بذلك حدًّا لبقائها أربعين سنة في خزانة عرض مدرسة الـــ پ ن المهيبة.

وعلى العكس، تلقّت مدرسة المحمدية كأسًا لأوّل مرّة، المدرسة التي قامت منذ ما يقارب مئة سنة، أقدم مدرسة في بيليتونج وربما في سومطرة أيضًا. وبغضّ النظر عن غرابة تصرّفات مهار ومظهره المختلف ورؤاه العجيبة وأساليبه الفوضوية، كان أوّل شخص يدخل التاريخ باعتباره قد حقّق شيئًا استثنائيًا لمدرستنا.

اختُتِمت مراسم الاحتفال بصورة. تعمّدت بو مُس استدعاء مصوّر محترف ليلتقط لنا صورة، حتّى نبرهن للسيد صمديكون أننا نحن أيضًا نستطيع الفوز بكأس.

كانت بو مُس قد وعدتنا بصفة شخصية وباسم المدرسة أننا إذا حصلنا على علامات امتحانات جيدة أو فزنا بجائزة مميزة ستمنحنا مكافأة من اختيارنا؛ طالما أنها شيء تستطيع تلبيته. وبذلك أصبح من حقّ مهار أن يختار مكافأته.

«ما الشيء الذي تتوق إليه كثيرًا يا صغيري؟»

لم تَسَعِ الفرحة مهار. فتح حقيبته وأخرج منها لفافة ورق.

«والآن ما يمكن أن تكون هذه؟» سألته بو مُس.

بسط مهار اللفافة وابتسم وهو يكشف عن صورة «بروس لي» في منتصف حركة التنين الغاضب، وعلى خدّه ثلاثة خدوش متوازية وبيده عصا مزدوجة وهو على أهبة الاستعداد لتوجيه ضربة إلى رأس خصمه. عرفنا ما يريده مهار، فقد سبق له أن ترجّى بو مُس مرّات ومرّات لتسمح له بتعليق مُلصق «بروس لي» في الصفّ. وها قد جاءت فرصته الذهبية.

تبلبلت بو مُس. «ألا تفضّل شيئًا آخر يا مهار؟»

هزّ مهار رأسه نافيًا.

«أأنت متأكّد؟ ليس لديك طلب آخر؟» قالت بو مس بشيء من الإحباط.

هزّ مهار رأسه من جديد. «القدر دوّار يا إيبوندا. ثقي أنه قد يأتي يوم ينفعنا فيه مُلصق بروس لي.» وعلى ذلك النحو، بهدوء وبأسلوب فلسفي وببراءة، أقنع مهار بو مُس.

في اليوم التالي، احتلّ «بروس لي» الجدار في مقدّمة الصفّ. عُلّق المُلصق فوق اللوح مباشرة. وبطريقة ما رأيتُ «بروس لي» مختلفًا. بدت ابتسامته صافية صفاءَ ابتسامة «روما إراما» في مُلصق «مطر النقود» المعلّق إلى جانبه.

كان المشهد غير عادي: سيد «الكونغ فو» وسيد فنّ «الدانغدوت» يشرفان على صفّنا. واكتشفتُ بعد التمعّن الدقيق أن هناك تشابهًا بينهما: كلاهما يمتلك عينين حزينتين تشعّان بالتصميم على التصدّي لكلّ الشرور التي على وجه الأرض. شيء مؤثّر للغاية.

يميل كل ما هو جيّد إلى توليد مزيد من الأشياء الجيّدة، كما يقول المثل الملايوي القديم. وهذا حقيقي؛ فوجود تلك الكأس رفع معنوياتنا. تلقّينا كمية صغيرة من المال مع جائزة الكرنفال. مال يمكننا الاستفادة منه لتلبية مطالب السيد صمديكون: لوح جديد ومجموعة إسعافات أولية. وهكذا جهّزت بو مُس عدّة الإسعافات الأولية

بحبوب الأسبرين ومُستخلص شراب الدود. واستخدِم ما تبقّى من المال في طلب صورة الرئيس وصورة نائب الرئيس وشعار الدولة «غاروودا پانكاسيلا» من متجر «كاهيا أبادي»، أي النور الخالد؛ متجر لوازم المدارس النموذجية في تانجونغ باندان.

يا للأيام الهانئة التي مرّت علينا بعد حصولنا على كأسنا. كنّا لا نملّ من إدامة النظر إليه، ولا نكفّ عن ذكره أينما ذهبنا. ولكن في ذروة نشوتنا العارمة كثيرًا ما اعتصرني الشعور بالخواء.

في تلك الأيام، أمضّتني الوحدة ونحن في أوج احتفالاتنا. غالبًا ما تنحّيت بعيدًا عن رفاقي، لأجلس تحت شجرة الفيلسيوم غير راغب في التحدّث مع أحد، وغير راغب في أي صحبة، وغير قادر على فهم نفسي. أغرق دائمًا في أحلام اليقظة، لا يعجبني الأكل ونومي مقلقل. استولى علي شعور غريب لم يسبق لي أن اختبرته. كلّ ما ظننت أني أعرفه قلبَته رأسًا على عقب كلمةٌ جديدةٌ أحكَمتْ قبضَتها على حياتي: الشوق.

يوميًا هاجمني الشوق لتلك الصبية صاحبة الأظفار الجميلة. كلّما تذكّرتها تقطّعت أنفاسي. اشتقت إلى وجهها، إلى أظفارها الملساء، ابتسامتها عندما نظرت إلي. بل حتى اشتقت إلى صندلها الخشبي، خصلات الشعر المتطايرة على جبينها، أسلوبها في نطق حرف الراء، وطريقتها الدقيقة في تشمير أكمامها.

سرعان ما أدركت أنني لست من النوع الذي يستطيع مكابدة الشوق. أعملت جهدي في التفكير بطريقة تخفّف من هذا العذاب. وأخيرًا توصّلت إلى استنتاج مفاده أن شوقي يُعالج بالمداومة على شراء الطباشير. ولتحقيق ذلك كانت بو مُس أملي الوحيد.

رجوتها لتخصّني أنا وحدي بمهمة شراء الطباشير. تباحثتُ مع زملائي ليعطوني دورهم. فاتحتُ عريف الصفّ كوتشاي بالموضوع، وطلبت من زعيم لاسكار بِلانجي، مهار، مساندتي.

مقابل رشوة تتألّف من حزمتين من حلوى التمر هندي، أبدى كوتشاي استعداده لتغيير الجدول الزمني لشراء الطباشير الذي سبق أن أُعدّ لما يقارب السنة. كان شراؤه، مثل معظم السياسيين في بلدنا، على هذه الدرجة من السهولة. وبذلك أصبح الجدول يقتصر على اسم واحد فقط، اسمي. لم تصدر عن رفاقي كلمة احتجاج؛ رفاقي الذين ابتهجوا كثيرًا لتخلّصهم من ركوب الدراجة والذهاب إلى المتجر النتن لشراء الطباشير من آمياو البغيض. في الحقيقة، لم يتضمّن مخططي لأغيّر جدول شراء الطباشير أي صعوبة أو معوقات. لكني يا صديقي رأيتُ الوضع بطريقة مختلفة. ففي نظري، كان ما بذلته من جهود لأصبح الشخص الوحيد الذي يشتري الطباشير جزءًا لا يتجزأ من الصراع المجبول بالعرق والدم. وقد غاليت أمام كلّ من أبدى استعداده لسماعي بقولي إن الأمر استغرق مني ثلاثة أشهر وكيسًا من حلوى التمر الهندي لرشوة كوتشاي حتى يجعل مناقصة شراء الطباشير ترسو علي. بينما ينصّ الواقع على أنه ليس هناك أي منافس لي. جعلني الحب رومانسيًا ميؤوسًا منه. هذه السلسلة من الأحداث الدرامية زادت من جمال محبوبتي في عيني. ربّاه! أي نعيم هذا أن أكون أنا فقط قربها أثناء شراء الطباشير!

احتارت بو مُس من اندفاعي المفاجئ لتولّي تلك المهمّة. «ألا تكره شراء الطباشير أكثر من أي شخص آخر يا إكال؟ بحقّ الله، ألست أنت من يقول دائمًا إن متجر الطباشير بغيض؟»

لم تُبد بو مُس رغبة في مناقشتي. من المؤكّد أن السليقة التي اكتسبتها من التعليم على مرّ السنين قرعت جرسًا في رأسها، منبّهة إياها أن تغيّر مزاجي المفاجئ له علاقة بحبّ المراهقة، الحبّ الأوّل. ومع ذلك، بتعاطف كامل وابتسامة مزعجة، وافقت وهي تحوّل رأسها يمينًا ويسارًا.

«حسنًا، بشرط ألا تفقد شيئًا من الطباشير ثانية. عليك أن تعرف أننا نشتري الطباشير من مال مساهمات اللجنة الدينية!»

ما لبثت أن أصبحت أنا وشهدان فريقًا متين الأسس في مهمّة شراء الطباشير. كنت المسؤول عن الشراء. لم يحتج شهدان إلى قيادة الدراجة؛ كان كافيًا بالنسبة

إليه أن يجلس في المقعد الخلفي ويمسك علبة الطباشير بإحكام، وأن يبقي فمه مغلقًا. استمتعنا بالتشويق الناجم عن الاحتفاظ بالسرّ.

طبعًا، من خلال تزكيتي شهدان أمام بو مُس صاحبني في مهمّتي دائمًا. أسعده أن يتغيّب عن الدروس وأن يحظى بالحرية لمغازلة بنات صاحبي محل الحلوى "هوك لو پان».

عند وصولنا إلى «سينار هارپان»، أدخلُ متجرَ النثريات وأقفُ متأهّبًا في النقطة الميتة وسطَ محيط الخردة. أدهنُ زيت الكافور تحت أنفي لأحارب الرائحة الزنخة. أمسح العرق المتصبّب على جبيني، وأنتظر اللحظة السحرية عندما يأمر آمياو طائرَ الشامة خلف ستارة الصدف أن تحضر الطباشير.

أدنو من باب قفص الحمامة. تمدّ يدها فيتسارع قلبي كلّما حدث هذا. تبقى صامتة كالسابق، وأنا أيضًا لا أتفوّه بكلمة، لكن يدها ما عادت تتراجع على عجل كما في الماضي. صارت تعطيني الفرصة لأتأمّل أظفارها. ذاك كان كافيًا ليبقيني سعيدًا إلى الأسبوع التالي.

استمرّ الحال على هذا المنوال شهورًا. يمنحني صباح يوم الاثنين فرصة الالتقاء بنصفي الآخر، حتى لو لم يتعدّ هذا النصف صفًا من الأظفار. وإلى هذا الحدّ تطوّرت علاقتنا. لا سلام ولا كلام، فقط قلوب تتبادل الحديث من خلال أظفار جميلة. لا تمهيد أو ديباجات، ولا لقاء وجهًا لوجه.

كان حبّنا حبًا صامتًا، حبًا بسيطًا، حبًا خجولاً، لكنه كان جميلاً.

أحيانًا تنقر بأظفارها، أو تمازحني بعدم إفلات علبة الطباشير عندما أحاول أخذها، فنستغرق في لعب ما يشبه لعبة شدّ الحبل. أو قد تكوّر قبضتها أحيانًا، كما لو أنها تقول لي بطريقتها الخاصّة لماذا تأخّرتَ؟

حضّرت نفسي مئات المرّات لأمسك يدها، أو لأخبرها كم اشتقت إليها. وكلما رأيت أظفارها تلاشت شجاعتي تحت أكوام فاصوليا "الجينكول». أبقى بعد لقائنا أعاني أسبوعًا من اللوعة، معاناة مشوبة بسعادة غريبة مبهمة، وممزوجة بشوق

يشرع في خنقي منذ أن تختفي يدها من الفتحة.

إذا كان في هذا العالم شيء لا يوجد منه ما يكفي، فهو بلا شكّ الحبّ. بمرور الوقت، ازداد صخب قلبي. ما عدت أطيق غيابي أسبوعًا بحاله عن أظفارها البديعة. ولذلك، عمدت بمكر، وكلّما تسنّى لي، إلى الاستيلاء على بضع قطع من الطباشير صالحة للاستخدام، ثم أدفنها تحت شجرة الفيلسيوم أو أعطيها لهارون الذي لطالما سرّ بها. وهكذا صارت الطباشير تختفي مع حلول يوم الخميس، وصرت أذهب إلى السوق صباح يوم الجمعة لأشتري المزيد منها. أسعدني تقليص مدّة شوقي ثلاثة أيام.

حاولت التعويض عن خداعي بكنس المدرسة وتشذيب الحشيش وريّ الأزهار من غير أن يُطلب مني ذلك، وتبرّعت كذلك بغسل دراجة بو مُس ودراجات رفاقي. وقد حيرهم تصرّفي. إن الحبّ الأوّل مربك حقًّا!

مرّ موسمان، قام شعب السارونغ برحلتين بحريتين وعادوا منهما، وأنا ما زلت أجهل اسم تلك الصبية صاحبة الأظفار الجميلة.

حاولت على مدى أيام استجماع شجاعتي لأسألها عن اسمها فقط. ولكن بما أني أفقد قدرتي على الكلام عندما تظهر يدها، كلّفت شهدان بمهمّة جمع المعلومات. أثارته المهمّة. كان مثل عميل سرّي ملايوي، يتسلّل خلسة هنا وهناك ويمشي على رؤوس أصابعه في الأنحاء.

«اسمها آلينغ!» همس في أحد الأيام ونحن نتلو القرآن في جامع الحكمة. «هي تلميذة في المدرسة الوطنية!»

طاخ! خبطت طاقية تايكونج رزاك المسند الذي يضع عليه شهدان القرآن.

«راقب سلوكك أمام كتاب الله أيها الشابّ!»

تراجع شهدان وعاد إلى تلاوة القرآن. كانت المدرسة الوطنية مدرسة خاصة بالأطفال الصينيين. تسمّرتُ أنظر إلى شهدان باهتمام.

«آلينغ هي ابنة عم آكيونج!»

شعرت كما لو أنني ابتلعت بزرة ثمرة "رامبوتان» بحجم حبّة عنب، وأنها علقت في حنجرتي. آكيونج، ذاك الصبي برأسه التي تشبه الصفيحة! كيف بحقّ الله لديه ابنة عم ذات أظفار سماوية؟ آكيونج الذي أصرّ في الأيام الأخيرة الماضية على الحضور إلى المدرسة مع أنه اضطرّ إلى البقاء واقفًا طوال الوقت، بسبب ظهور ثلاث دمامل في مؤخّرته حرمته القدرة على الجلوس.

لا أستطيع أن أصف شعوري تجاه هذه الكشوفات الجديدة. حقيقةُ أنّ آلينغ هي ابنة عم آكيونج أثارتني وأقلقتني. وانغمست أنا وشهدان في نقاش خطير نتباحث معًا في القضيّة على ضوء التطوّرات الجديدة.

أخيرًا انتهينا إلى أن علينا مفاتحة رفيقنا آكيونج بالأمر. كان أملنا الوحيد لاختراق ستارة الصدف في متجر «سينار هاريان».

اصطحبنا آكيونج إلى حديقة الزهور خلف مدرستنا، وجلسنا على مقعد صغير قرب مجموعة من نباتات القريدسة والخبيزة المزهرة، المكان المثالي لطرح موضوع الحبّ.

استمع آكيونج باهتمام لحكايتي لكنه لم يظهر أي ردّ فعل. لم تتغيّر ملامح وجهه البتة. فاته تمامًا جوهر القصّة. كانت نظرته فارغة. أعتقدُ أن آكيونج لم يعرف شيئًا عن مفهوم الحبّ.

«الأمر بهذه البساطة يا آكيونج،» قلت بصبر نافد. «أعطيك رسائل وأشعار لآلينغ. وتسلّمها لها عندما تصلّيان معًا في المعبد، مفهوم؟»

رفع حاجبيه. وقف شعر رأسه الشائك، وبدا وجهه المستدير السمين أطرف من السابق. عندما أنزل حاجبيه، نزلت معهما وجنتاه السمينتان. كان صبيًا بوجه غريب ولكن مضحك.

لماذا لا تعطيها الرسائل بنفسك عندما تراها صباح الاثنين؟ هذا ليس منطقيًا!

في الواقع لم يقل آكيونج شيئًا من هذا، بيد أن جبينه المقطّب حمل ذلك المعنى.

أجبته في سرّي مستخدمًا التخاطر: أنت أيها الصبي الهوكياني منذ متى يعرف الحبّ أي منطق؟

أخذت نفسًا عميقًا والتفتّ أحدّق في حقل مدرستنا. تصرّفت كما لو أنني في مسرحية إذاعية. التقطتُ حفنة من أوراق دم التنين كرمشتها بيدي ثم نفختها في الهواء.

«أنا خجول يا آكيونج. يصيبني الشلل قربها. أنا رجل متهوّر. الرجال المتهوّرون يتصرّفون بطيش. إذا اكتشف والدها شيئًا لا أستطيع حتّى أن أتخيّل العواقب!»

حصلت على هذه العبارة الخاطفة للأنفاس من مجلة «أكتويل»؛ المجلة التي يشترك فيها أخي الأكبر. من المرجح أني لم أستخدمها في سياقها المناسب إلا أنني لم أهتمّ.

عندما سمع شهدان الحوار الشبيه بحوارات المسلسلات الإذاعية الشعبية كثيرًا آنذاك، عانق شجرة "البتاي تشينا» التي إلى جانبه. أما أنا فنفدت مني الكلمات وأنا أحاول أن افسر لآكيونج أنه في عالم الحبّ للرسائل الرومانسية قيمة كبيرة جدًا لأنها تقوم على عنصر المفاجأة.

أعتقد أن آكيونج استشفّ اليأس في صوتي. لعلّه ليس أذكى تلميذ في صفّنا، لكنه في الحقيقة صديق وفي. وما دام قادرًا على مدّ يد العون لم يخذل مطلقًا صديقًا يحتاج المساعدة. تمثيلي المسرحي أذاب قلبه.

ومع ذلك طالب بتعويض بسبب حسّه الموروث المتعلّق بإدارة الأعمال. ولم أمانع أداء واجبات الرياضيات عنه.

عن طريق آكيونج غمرت قصائد عشقي سوق السمك بلا رحمة. كانت المهمّة سهلة عليه، وبدأ يستسيغ علاماته العالية في مادّة الرياضيات. لم يملك أدنى فكرة عن أن تصرّفاته قد تسبّب له خلافًا كبيرًا مع عمّه آمياو.

ضيّقت الخناق على آكيونج باستمرار ليخبرني كيف بدت آلينغ وهي تتسلّم أشعاري.

«مثل بطّة رأت بركة ماء،» اعتاد أن يجيب ممازحًا بقلب طيب.

في مساء يوم جميل جلست على حجر مستدير في حديقة أزهارنا وألّفت قصيدة:

زهرة الأقحوان

انظري، انظري يا آلينغ

ارفعي نظرك عاليًا إلى السماء

تلك السحب البيضاء المنجرفة نحوك

هي أزهار الأقحوان أرسلها إليك

ابتسمتُ وأنا أضعُ القصيدة في مغلّف. لم أصدّق أنني أستطيع كتابة شعر كذاك. لعلّ في الحبّ قوّة تقدر على إخراج الأشياء إلى العلن، مثل الطاقات الخفية أو الخصائص المميزة التي لا نعلم حتّى أنها موجودة فينا.

٢١

طقس التخاطُف

أخبرنا موجيس رائد الفضاء الذي يبيد البعوض أنه عمل في أحد الأيام في مكتب مسح الأراضي التابع لشركة پ ن، ورأى خريطة استغلال قصدير الجزيرة.

«تشير ثلاث جرّافات نحو هذه المدرسة!» قال بحزم.

بل حتى قام موجيس بتسمية تلك الجرّافات.

«أ ب ٩ و أ ب ٥ و أ ب ٢.»

«أ ب» هو الرمز المحلي الذي يشير إلى «إي بي إيمر باغر» المرادف الهولندي لكلمة الجرّافات.

كانت أخبار موجيس مروعة، فلا شيء اعترض طريق الجرّافات إلا لحقه الدمار. بيد أن بو مُس رفعت معنوياتنا كعهدها دائمًا. طلبت منّا أن ندعو الله ليكفّ عنا الأذى. وما لبثنا أن نسينا تهديد الجرّافات. خصوصًا أنا بعد أن فاجأتني أخبار أكثر إثارة.

وهذا ما حدث: في طريقنا إلى المدرسة بعد شراء الطباشير، وبينما مضيت أقود الدراجة، قرأ شهدان عبارة كُتبت أسفل علبة الطباشير التي يحملها: قابلني في «تشيونغ سي كو».

ماذا؟ رسالة من آلينغ؟ لا بدّ أن ذاك الخطّ خطّها. أفقدتني الرسالة الخفية سيطرتي على الدراجة فتمايلت ثم سقطت واستقرّت في حفرة. بذلت جهدي لأنقذ علبة الطباشير والرسالة المدوّنة عليها. غصت أنا وشهدان في الوحل الداكن. وفي

حين سَلِمت علبة الطباشير لم نسلم نحن. خرجنا من الحفرة نقطر وحلاً.

ما كدنا نصل المدرسة حتّى سارعتُ إلى نقل الطباشير إلى علبة أخرى ليتاح لي أخذ رسالة آلينغ معي إلى البيت.

قرأت الرسالة في البيت مرّة تلو مرّة تلو أخرى. وبقيت الرسالة هي نفسها مهما اختلفت طريقة قراءتها: تريد أن تلقاني. بقي هذا فحواها عندما قرأتها كما نقرأ العربية، عندما قرأتها من الأمام، من الأعلى، من بعيد، أو من مسافة قريبة جدًا. معكوسة بالمرآة، مفروكة بالشمع، مقروءة بعدسة مكبّرة، مقروءة من خلال شعلة نار، مرشوش عليها الطحين، وأنا أحملها خلف ساقي ورأسي بين ركبتي. وأنا أنظر إليها مليًا لوقت طويل كما نفعل بالصور ثلاثية الأبعاد. بقيت الرسالة هي نفسها دائمًا: قابلني في «تشيونغ سي كو» عند شرفة المعبد الأحمر. كانت لغة إندونيسية مباشرة، ليست اصطلاحية ولا علمية ولا مجازية. كلّ ما في الأمر أنني عجزت عن التصديق. وفي النهاية استنتجت أني أنا إكال سألتقي قريبًا مع حبّي الأول! وهذا لا جدال فيه. فليحترق العالم غيرة كما يشاء.

يُقام طقس التخاطُف أو ما يُعرف باسم «تشيونغ سي كو» سنويًا. وما زال في الحقيقة يُقام إلى اليوم. هو حدث حيوي تجتمع فيه أسر بيليتونج الصينية كلّها بجميع أفرادها وجميع الأقارب الذين يعودون من مختلف أنحاء إندونيسيا للمشاركة في المناسبة. وترتبط بهذا الطقس الديني القديم أنشطة ترفيهية متنوّعة؛ مثل تسلّق السواري، ودولاب فيريس، وعزف الألحان الملايوية. وقد تطوّر هذا الطقس ليصبح الحدث الأهم الذي يترقّبه الناس في جزيرتنا. تحضره عادة جميع عناصر مجتمعنا الرئيسة: الصينيون والملايويون والساوانج وشعب السارونغ.

تتألّف بؤرة طقس التخاطُف المركزية من ثلاث طاولات، طول الواحدة منها اثنا عشر مترًا وعرضها متران وارتفاعها متران. تكدّس عليها كلّها عطايا كثيرة مختلفة مقدّمة من المجتمع الصيني: أدوات منزلية، ألعاب، وأطعمة متنوّعة. ولا يقلّ عدد الأغراض عن ١٥٠؛ مثل المقالي وأجهزة الراديو الترانزستور، وتلفزيونات

غير ملونة، وكعك وبسكويت وسكّر وبنّ وأرز وسجائر ومنسوجات وصلصة الصويا ومشروبات معلّبة ودلاء ومعاجين أسنان وشراب مركّز وإطارات دراجات وحُصر وحقائب وصابون ومظلات وسترات وبطاطس حلوة وقمصان وجرادل وبنطلونات ومانجا وكراسي بلاستيكية وبطاريات ومستحضرات تجميل. هذه كلّها تُكوّم فوق بعضها على الطاولات الكبيرة. في منتصف الليل، يصبح كلّ شيء لقمة سائغة، أو بمزيد من الدقّة، يمكن أن ينتزعه أي شخص. لهذا السبب يسمى طقس «تشيونغ سي كو» طقس التخاطُف أيضًا.

أما الهدف الأساس من الطقس فهو الاستيلاء على كيس أحمر صغير اسمه «فونغ فو»، يُخفى عادة في قلب جبال الأشياء الأخرى. يطمع الجميع بذلك الكيس لأنه يرمز إلى الحظّ السعيد. ومن يجده يمكن أن يعود ويبيعه للصينيين بملايين الروبيات.

توضع الطاولات الثلاث أمام «تاي تسي يا»؛ مقام الملك الشبح الذي تُشكّلُ هيئته من الورق المقوّى الملوّن والخيزران. طوله خمسة أمتار ومعدته عرضها متران. ذاك الشبح الورقي مرعب الشكل؛ عيناه بحجم بطيختين. ولسانه الطويل يبدو كأنه يريد أن يلعق اللحم المدهن الذي يُشوى أسفل منه. يرمز «تاي تسي يا» إلى الحظّ العاثر وإلى أسوأ خصائص الإنسان. وطوال المساء والليل، يتدفّق الكونفوشيوسيون من أنحاء جزيرة بيليتونج كافّة ليصلّوا أمام «تاي تسي يا».

كان «تاي تسي يا» ينتصب عند الطرف الآخر من المعبد، وكان يُفترض بي أن أقابل آلينغ في شرفة المعبد الأحمر.

دخل آكيونج وعائلته إلى باحة المعبد للصلاة. ابتسم لي فرددت له الابتسامة بتكشيرة ناجمة عن تفاقم قلقي. وقفت كالحطام لأفكّر في ما قد تراه صبية صينية فاتنة في ابن قرية ملايوي مثلي. جعلني وجودي في وسط البيئة الغريبة أشعر بعدم الاستقرار. وفكّرت: أليس من الأفضل لي أن أعود إلى بيتي؟ لا.. كان شوقي إليها قد تحوّل إلى جرح نازف. .

ما برحت أنتظر آلينغ منذ أدائي صلاة العشاء. بدأ الراغبون في حضور شعائر

الاحتفال وما يصاحبه من ترفيه يتوافدون بأعداد كبيرة. أما هي فلم يظهر لها أثر. لعلّي جئت أبكر مما ينبغي، قلت لنفسي. ربما كان يجدر بي أن أحضر متأخّرًا أو لا أحضر على الإطلاق.

كان الساوانج هم نجوم طقس التخاطُف بلا منازع. حالفهم النجاح في كلّ سنة بسبب تنظيمهم المتماسك. كانوا يتدارسون في ما بينهم أماكن الأغراض الثمينة منذ بداية المساء، والزوايا التي عليهم شنّ الهجوم منها، وكم عدد الأشخاص اللازمين لذلك.

كان السوانج الضّخام يتولّون مهمّة اعتراض المجموعات الغريبة الأخرى، ليفسحوا في المجال للساوانج الضّئال كي يقفزوا إلى الطاولات بينما تقف مجموعة أخرى منهم في الأسفل جاهزة للاستيلاء على كل ما يقع من على الطاولات. ويبلغ مجموع فريقهم ما يعادل العشرين تقريبًا.

مضت علي ساعتان وأنا أنتظر. ولم تظهر آلينغ. بدأ آلاف المتفرجين ومئات المشاركين المتأهّبين يزحمون باحة المعبد. علت أنغام فرق «الدانغدوت». دار دولاب فيريس بحيوية تحت السماء اللامعة. صاح التجار يروّجون بضائعهم المتنوعة. قرع باعة البالونات أجراسًا ذات رنين ثاقب. كان كلّ شيء هناك ينبض بالحياة، وهذا زادني عصبيةً.

أقبل عدد قليل من المساهمين من شعب السارونغ، يغطون رؤوسهم مثل النينجا بحيث لم تظهر منهم إلا عيونهم. وبعد وقت قصير تجمّع بعض المساهمين الصينيين معًا. وبذلك أصبح هناك ما لا يقلّ عن ست مجموعات مختلفة الانتماء.

بدا التشوّق واضحًا على الذين ينوون المشاركة بالطقس وهم ينتظرون لحظة إعلان منتصف الليل، عندما يكسر كاهن كونفوشيوسي جرّة ماء كبيرة. وحينها، بعد أن تُكسر الجرّة مباشرة يبدأ شنّ الهجوم.

لم أهتمّ بأي شيء مما جرى. تمحورت أفكاري كلها حول آلينغ. أين هي يا ترى؟ ألم تعرف أن صدري يخفق بعنف لأني أتحرّق شوقًا إلى لقائها؟

شاهدت أخيرًا الملايويين الذين قرّروا المشاركة هذه السنة في طقس التخاطُف. وبدلاً من تكوين مجموعات متآزرة وقفوا متفرّقين. لم يغب عني السبب طبعًا. فهم عادة عوضًا عن التركيز على أسلوب تصرّفهم في ذلك الطقس والسعي وراء الفوز، تراهم يشغلون أنفسهم بالمشادات السياسية المدمّرة. ينحون دائمًا إلى اتخاذ مواقف عدوانية من الانتقاد، ونادرًا ما أظهروا استعدادًا للانغماس في تفكّر روحي. يتبنون آراءً مخالفة لمجرّد الرغبة في التميّز ويسعدهم جدًا الدخول في جدال عقيم. لا يهمّهم بلوغ الهدف النهائي طالما أنهم لا يفقدون ماء الوجه أثناء المناقشات التافهة. وبالتأكيد يمكن القول إن نزعة الإسهاب في الشرح بأصوات عالية لم تكن تصدر إلا من أكثرهم غباءً وأقلّهم علمًا.

ولو نجح الملايويون في تشكيل فريق، لأراد كلّ واحد منهم أن يكون القائد. لذا، لم يشكّلوا قطّ أي فريق متماسك، وانتهى بهم المطاف إلى العمل بشكل فردي كل واحد منهم يخوض معركته على حدة. وبالنتيجة لم يكونوا يعودون إلى بيوتهم إلا بعيدان قصب السكر وبعض رزم حلوى جوز الهند، وفردة جورب، وبعض رؤوس الدمى وحفنة من بزور جوز الهند التي يعافها الساوانج، ومضخّة ماء ربما، أو بالأحرى صمّامها فقط. هذا فضلاً عن أجسام أنهكتها الرضوض والكدمات.

على أي حال، لم تكن عادات المشاركين لتعني لي شيئًا ولا ما يجري في طقس التخاطُف. بقي جُماع تركيزي منصبًا على آلينغ على الرغم من مرور ساعة أخرى بلا جدوى.

فجأة، تحوّلت أنظار الجميع إلى شخص طويل ونحيل. هو رجل من الساوانج يحظى باحترام كبير في طقس التخاطُف. عيّنته جماعته العرقية على مدى سنوات ليتولّى مهمة اصطياد الـــ «فونغ فو». قطعة القماش الحمراء القيّمة. واسم ذلك الرجل «بوجانغ نكاس».

جاء لابسًا رداءً أسود مثل الملاكمين. وكالعادة تبعه طفل من عشيرته ليأخذ منه رداءه حالما ينضمّ إلى بقية أعضاء فريق الساوانجيين.

سبق لي أن رأيت مرّةً أداء «بوجانغ نكاس». يومها قفز فوق الطاولة بخفّة

سنجاب وعلى وجهه تعبير سطحي. لم يتسامح مع جشع الخاطفين الآخرين. ولم يكترث لهدير مئات الرجال القُساة المنخرطين في عراك وحشي. بمهارة مشى على رؤوس أصابعه فوق بحر الأغراض. عيناه الحادّتان اليقظتان تتطلّعان هنا وهناك. وخلال زمن قصير حدّد مكان ضالته. بطريقة ما نجح دائمًا في العثور على كيس الـ «فونغ فو»، حتى لو خبأ الكاهن بعناية تلك القطعة الحمراء المقدّسة بين طيات ثوب نوم نسائي، أو في واحدة من مئات علب البسكويت التي يكاد يستحيل فتحها، أو في كيس شمع الجوز، أو في فجوات عيدان قصب السكر أو حتى في قلب ثمرة برتقال هندي.

دسّ «بوجانغ نكاس» الـ «فونغ فو» في خصره. ثم، بقفزة واحدة نطّ أسطورةُ طقس التخاطُف الحيّة من على الطاولة واستقرّ على الأرض من غير أن يُحدث أي ضجة، كما لو أنه يمتلك القوة ليجعل نفسه بلا وزن. بعد لحظة، اختفى وسط الحشود. جرى هاربًا بالرمز الأسمى لطقس التخاطُف، وما لبث أن ابتلعه الظلام والدخان وعبق البخور.

تخبّطت معدتي وآلمتني أمعائي بسبب توتري من انتظاري الطويل لحبّي الأول آلينغ. بدأت أفكار لا معنى لها تتملّكني. أتبدو آلينغ كما أتخيّلها؟ أتخالف صورتها في خيالي الواقع؟ ربما هي في الحقيقة لا تأبه بي.

قُطع حبل أفكاري حالما سمعت صوت تحطّم الجرّة. انتزعني عنصر المفاجأة ممّا أنا فيه، فركضت كالمجنون طلبًا للأمان بينما هاجم آلاف الخاطفين الطاولات الثلاث.

ثمّ شهدت ظاهرة من أكثر الظواهر الإنسانية إثارة للذهول في هذا الوجود. ومع أنني شهدتها كلّ سنة، لم تفشل أبدًا في إبهاري. اختفت في أقلّ من دقيقة جبال مئات الأغراض المتنوّعة من على الطاولات الثلاث، لا بل في غضون خمس وعشرين ثانية على وجه التحديد. الذين نجحوا في اعتلاء الطاولات قذفوا الأغراض بطريقة منهجية إلى رفاقهم الذين ينتظرون في الأسفل. والذين عملوا وحدهم، تسلّقوا الطاولات وانقضّوا على كل ما وقع تحت أيديهم وصادروه، وبسرعة البرق دسّوه

في أكياسهم، وعجزوا أحيانًا عن إنزال أكياسهم من على الطاولات لأن محتوياتها تفوق حدود قدراتهم.

تشاجر عشرات الخاطفين على شيء ما، واندلع عراك وسط كومة الأغراض. انقلبوا إلى الوراء، تصادموا، ثم سقطوا بلا هوادة على الأرض. لم تتح للمتفرجين فرصة التصفيق، فقد صعقهم المشهد الهائل والمرعب في الوقت نفسه.

أولئك الذين لم يجلبوا أكياسًا وضعوا أي شي حصلوا عليه في جيوبهم، وفي طيات ثيابهم. بدوا مثل المهرجين. ولأن الدماغ يتوقّف عن العمل بمنطقية في الحالات التي تتطلّب السرعة القصوى، دسّوا كل ما وجدوه في جيوبهم بما في ذلك الأرز والسكّر. ولما ما عادت جيوبهم تتسع للمزيد حشروا غنائمهم في أفواههم. استولوا على كلّ ما طالته أيديهم ما داموا يرونه على الطاولات. ولا شيء يمنع من أن يخفوا صيدهم في فتحات أنوفهم وآذانهم إذا استدعت الحاجة.

قد يحالف الحظّ شخصًا وينجح في انتزاع راديو ترانزستور، لكن أن يفلح في أخذه إلى البيت قطعة واحدة فذاك ضرب من المستحيل. لأن خمسة عشر شخصًا آخرين على الأقل سيهبّون دفعة واحدة للاستيلاء عليه. ولن يتبقى منه في النهاية إلا المفتاح أو الهوائي. فالمبدأ لا يتعلّق بالحصول على الهوائي أو غيره، بل بالتأكّد من أن لا أحد يحصل على الراديو قطعة كاملة. إن قضية راديو مكسور وغير صالح للاستعمال هي مسألة تافهة بالمقارنة مع جوهر طقس التخاطُف الذي يمثل مظهرًا من مظاهر الجشع البشري. وهو دليل دامغ على النظريات الأنثروبولوجية التي ترى أن الأنانية والجشع والتخريب والعدوانية من صلب خصائص الجنس البشري.

في غضون ثلاثين ثانية انتهى طقس التخاطُف؛ الطقس الذي انتظره الناس سنة كاملة. كلّ ما بقي منه غبار كثيف ومشاركون مصابون بجروح بليغة وطاولات مهشّمة كقلبي.

مضت علي خمس ساعات تقريبًا وأنا أنتظر. من وقت صلاة العشاء إلى

منتصف الليل. ولم تظهر آلينغ. لم تفِ بوعدها. أتراها شُغلت بقطف براعم الفاصوليا ونسيتني؟ ألم تعرف مدى الأهمّية التي عنتها لي رسالة علبة الطباشير؟ بدا لي أنها لم تنو القدوم حتى.

سئمت الاستماع إلى أغنية «الدانغدوت» الملايوية «غيلانغ سيباتو غيلانغ»، أغنية تطلب من الحضور العودة إلى بيوتهم لأن العرض انتهى. حدّقت بلا مبالاة في التجار وهم يرتّبون أغراضهم. أحزنني أن أرى الحشود تغادر. أحزنتني آمالي المحطّمة.

أردت أن أقود دراجتي وأمضي بعيدًا بأقصى سرعة ممكنة لأرمي نفسي في نهر لينغانج. ولكن، وأنا أهمّ بالانطلاق سمعت صوتًا من ورائي. كان رقيقًا رقّة «التوفو». كان من أجمل ما سمعته في حياتي من أصوات، مثل رنين قيثارة سماوية.

«ما اسمك؟»

التفتّ بسرعة وتهيأ لي أن قدميَ ما عادتا تلمسان الأرض.

لم أستطع التفوّه ولا بحرف واحد. فهناك، على بعد ثلاثة أمتار منّي، ثلاثة أمتار بالتحديد، وقفت الآنسة آلينغ الأسطورية بدمها ولحمها!

أقبلت من ناحية لم أتوقّعها. كانت طوال هذا الوقت تراقبني من المعبد. في اللحظة الأخيرة وأنا أوشك أن أستسلم يأسًا، جاءت وقلبت شعوري بالخيبة رأسًا على عقب.

بعد ثلاث سنوات من لقائي بها، من لقائي بأظفارها فقط، لم أر وجهها إلا قبل حوالي سبعة شهور. وبعد كتابتي عشرات القصائد لها، وبعد شوق مُمضّ أقضّ مضجعي، لن تعرف اسمي إلا في هذه الليلة فقط.

تلعثمت مثل ملايوي يتعلّم قراءة القرآن.

اكتفت بالابتسام؛ كانت ابتسامة حلوة جدًا. ارتدت في تلك الليلة «تشونغ كيون». ثوب ساحر مخصّص للمناسبات. وفي احتفال شهر حزيران هذا، جاءت إلى الأرض كأنها فينوس بحر جنوب الصين. تتبّع الثوبُ منحنيات جسدها، من كاحليها

إلى عنقها حيث ثبتت زرًا على شكل مسمار. كان جسدها المياس يرتاح على صندل خشبي أزرق.

في تلك اللحظة تملّكني شعور بأنني لست مناسبًا لها. بدت لي آلينغ مثل شخص ينتمي دائمًا إلى شخص آخر. أما أنا فلا أتعدّى أن أكون مجرّد اسم في دفتر عناوينها تنساه بعد أسبوع من هذا اللقاء.

قرأت أفكاري. أمسكت قلادتها. كانت أيقونة القلادة من حجر الجاد وعليه نقش صيني لم أفهمه.

«ميانغ سوي،» قالت. «القدر.»

أمسكت آلينغ يدي. ركضنا معًا خارج باحة المعبد نحو دولاب فيريس.

كان المسؤول عن تشغيل دولاب فيريس قد أطفأ الأضواء. وبدأ يتأهّب للعودة إلى بيته. رجته آلينغ ليشغّل الدولاب دورة واحدة. ويبدو أن الرجل استشفّ المأزق الذي وقع فيه عاشقان أسكرهما الحبّ.

«قرأت قصيدة الأقحوان في الصفّ أمام رفاقي،» قالت آلينغ. «كانت قصيدة جميلة.»

حلّقت عاليًا.

ثمّ خيّم علينا الصمت، لا شيء غير الصمت ودولاب فيريس يدور بنا ونحن غير راغبين في مغادرته. اتّسع قلبي واتّسع وأنا أرى أضواء دولاب فيريس تنير السماء. تلك كانت أجمل ليلة في حياتي.

٢٢

توك بيان تولا

اتّضح أن ما قاله موجيس الذي يبيد البعوض صحيح. ففي أحد الأيام جاء إلى باحة مدرستنا أربعة رجال يضعون خوذات البناء ويحملون أدوات حفر. كانوا مسّاحي أراضي شركة الـــ ب ن. والمهمّة التي جاؤوا من أجلها هي أخذ عيّنات من الأرض ليعرفوا مستوى القصدير. وفي حال اكتشفوا أنه عالٍ سيوجّهون الجرّافات صوب مدرستنا ليستخرجوه.

كانت المصاعب اليومية تخنقنا في تلك الآونة. وتهديد السيد صمديكون بإغلاق مدرستنا ما زال ساري المفعول، وقد تتضاعف مشاكلنا إذا تحتّم علينا أن نواجه الجرّافات.

لكن حدثًا ما صرفنا مؤقتًا عن التفكير في متاعبنا. اندفع إلى مدرستنا رجل بلباس عسكري على جيوبه شارة طُرّزت بكلمة الكشّافة. وانبرى من فوره يسألنا، «أثمّة فريق كشافة هنا؟»

هزّت بو مُس رأيها نافية. فنحن لم نشكّل قطّ فريق كشّافة لأن نفقاته فوق طاقتنا. ملابسنا اليومية لم تكن مكتملة الأزرار، فما بالك بملابس الكشّافة.

قال الرجل إنه يحتاج إلى مساعدة فرق الكشّافة من مدارس عدّة للبحث عن صبية فُقدت في جبال سوليمار.

«لدينا عساكر قوس قزح،» تطوّع مهار.

«وما ذاك؟»

انبرى مهار يشرح بتؤدة العلاقة بين قوس قزح وأكلة لحوم البشر القدماء من شعب بيليتونج. وهذا ترك بو مُس والرجل صاحب الزّي الرسمي يحكّان رأسيهما، وكلّ منهما أعجزته الكلمات.

«نحن مستعدّون لمدّ يد العون،» اختتم مهار بنبرة مقنعة.

كانت فترة العصر تشرف على نهايتها عندما وصلنا إلى سفوح جبل سوليمار. أراد الجميع المساعدة في عملية البحث، فحضرت الشرطة وفرق البحث والإنقاذ وفرق الكشّافة وأعضاء مختلفون من المجتمع، وكلّهم تجهّزوا بما يلزم ليتسلّقوا الجبل ويحاولوا العثور على البنت المفقودة. بدا واضحًا أن البنت من سكان المُلكية، وأنها من تلاميذ مدرسة الـ پ ن. وتبيّن أنها وهي تمارس رياضة المشي نأت بنفسها بعيدًا عن فريق رفاق صفّها الكبير. كان أهلها وأساتذتها الذين تملّكهم الرعب يبكون.

لعلعت في الجو جوقة نباح الكلاب وأصوات الناس ينادونها وهدير مكبّرات الصوت. ومن صرخات مكبّرات الصوت عرفنا أن اسم البنت المفقودة: فلو.

بدأ الليل ينشر ستاره. تزايد القلق الذي وسم الوجوه. ففي السنة الماضية تاه صبيان، وبعد ثلاثة أيام عُثر عليهما متكوّمين تحت شجرة «ميدانغ». كانا ميتين بعد أن عانيا من الجوع وانخفاض حرارة الجسم.

تعتبر معالم جبل سوليمار فريدة من نوعها. يبقى منظر الغابة على حاله مهما اختلفت زوايا النظر إليه. وقد يظنّ المرء أنه يعرف أين هو، ثمّ، من غير أن يدرك يوغل أكثر فأكثر في أعماق البرية.

في حالِ تاهت فلو جنوبًا، واتجهت نحو روافد تيارات نهر لينغانج التي تطغى عليها المنحدرات، هناك، على مستوى الأرض المنبسطة والممتدّة ستواجه مصائد الموت: رمال متحركة تبدو للناظر صلبة، ولكن ما إن تطأها القدم حتى تبتلع الجسم كلّه دفعة واحدة.

وفي حالِ صاحَبَ فلو سوء الحظّ ومضت شمالاً، يمكن القول إنها قد عبرت بوابات الموت التي لا عودة منها. تلك المنطقة يسدّها نهر لا يرحم اسمه نهر بوتا. وتنتهي ذروة ذلك النهر بخليج. تعني كلمة بوتا مظلم، أعمى، بلا دليل، محاصر، بلا مخرج أي ببساطة تعني الموت.

سطح ذلك النهر هادئ كسطح بحيرة، وساكن كصفحة زجاج. وتحت السطح الهامد تماسيح هائلة وثعابين سوداء تستوطن القاع. ولدى تماسيح نهر بوتا نزعات غريبة؛ فأنظارها دائمة التركيز على القرود المتعلّقة بالأغصان المنخفضة، وفي الوقت نفسه تتربّص أصحاب القوارب. نمت في تلك المنطقة أشجار الصنوبر الأسترالي المعمّرة وامتدّت إلى وسط النهر. وما مات منها يشبه أشباحًا عملاقة عائمة في النهر.

هبط الليل. وكان قد مضى على غياب فلو عشر ساعات. لم يشعّ في عملية بحثنا بصيص أمل واحد. تأسَينا على تلك الطفلة المسكينة التي تهيم وحدها في غابة حالكة الظلام، والتي ربما كسرت رجلها أو فقدت وعيها، أو ربما قبعت تحتمي بشجرة تبكي خائفةً والبرد ينهشها.

وسط حالة الذعر المسيطرة اقترح بضعة أشخاص اللجوء إلى مساعدة شامان اسمه توك بيان تولا.

يتمتّع الشامان توك بيان تولا بشهرة واسعة. يُقال إنه يستطيع التحليق في الهواء كالضباب، ويستطيع أن يتوارى وراء ورقة حشيش ضامرة. ويستطيع أن يطفئ مصباحًا إذا طرف بعينه. كان أقوى من بودينغا، شامان التماسيح، أقوى في الحقيقة من أي شامان آخر. كان الشامان الوحيد في هذا العالم القادر على عبور البحر بوساطة السحر المحض. وبمجرّد تلفّظه بتعويذة معينة يستطيع أن يقتل شخصًا عبر جزيرة جاوة. آمن القرويون الملايين بأن توك بيان تولا نصف إنسان ونصف مخلوق روحاني، بل على وجه الدقّة نصف شبح.

كان توك بيان تولا إلى جانب «بروس لي» مَثَل مهار الأعلى. وتمامًا مثلما رغب آكيونج في أن يصبح تلميذ مهار الروحي، تاق مهار لأن يصبح المريد الروحي لذلك الشامان.

وهكذا بُعث بعض الأشخاص إلى توك بيان تولا في جزيرة «لانون» أو جزيرة القرصان حيث يعيش. فمضوا على متن قارب سريع من قوارب الــ ب ن.

اقترب الصباح وعاد أعضاء الوفد المبتعث. استقبلهم الجميع بأمل لاعقلاني في معجزة ما، لأن فلو التي بحثنا عنها في شتى الأماكن لم يظهر لها أي أثر.

أحضر الموفدون لفافة ورق من توك بيان تولا وورووا لنا قصة اقشعرّت لها أبداننا.

«يعيش الشامان في كهف مظلم،» قالوا. «عيناه متوهّجتان مثل عيني ببغاء. لا يضع عليه شيئًا سوى خرقة لفّها حول جسمه.»

فغر مهار فمه.

«لمّا مشى لم تلمس قدماه الأرض!»

لسنوات، تعلّمتُ في المحمدية أن أؤمن بأفضلية التفكير العقلاني، وأن أتجنّب عالم العِرافة الجاهلي، ولذلك صعب علي تصديق أي من هذا. لكن تلك المعلومات نالت قبول أعضاء الوفد، وهؤلاء لم يكونوا مجرد روّاد أكشاك القهوة ممن يدّعون المعرفة ويخترعون القصص لمجرّد نفخ الأبواق. تضاعف إلى أبعد الحدود إعجاب مهار بتوك بيان تولا.

فتح رئيس الوفد ورقة توك بيان تولا وقرأها بصوتٍ عال: إذا أردتم أن تعثروا على البنت، ابحثوا عنها قرب كوخ مهجور في حقل. اعثروا عليها بسرعة وإلا ستطمرها جذور شجرة «مانغروف».

فوجئت بالرسالة. كانت تحذيرية وذات طابع تهديدي، أو بمزيد من الدقّة باعثة على الخوف. لكن، لا يمكن أن ينكر المرء أن الرسالة تضمّنت طاقة معيّنة. إذا كان توك بيان تولا ذلك الشامان القوي حقًا فالرسالة تحمل مصير سمعته، لأنها

ببساطة لم تحتو على كلمات خفية أو غامضة.

ما كان علينا في حال أردنا أن نختبر قدرته، إلا أن نتغاضى عن المنطق ونتّبع تعليماته. وإذا لم نسارع في العثور على فلو سواء كانت تقبع قرب كوخ مهجور في حقل، أو ميتة تحت أذرع جذور «المانغروف»، فإن توك بيان تولا الأسطوري لن يكون سوى أفّاق يدحرج النرد على قارعة الطريق.

ليس من السهل أبدًا تحديد موضع كوخ مهجور في تلك المنطقة، لأن المزارعين درجوا على مداورة الحقول. وهذا يؤدي إلى تعدّد ما لم يُستثمر منها على سفوح الجبل. وتلك التي لم تُستثمر شكّلت للصوص القصدير مخابئ عظيمة. اللصوص الذين يستخرجون القصدير من الجبل ويبيعونه للمهرّبين المتنكّرين بهيئة صيادي سمك عند مصبّ نهر لينغانج. وذلك القصدير المهرّب يُباع في سنغافورة. والمنقّبون غير المرخّص لهم يبنون أكواخًا، وأحيانًا ينكّرون مواقع التعدين بحقول زراعية.

تعاملت شركة ب ن مع المنقّبين غير المصرّح لهم ومع المهرّبين بقسوة بالغة، وبلا إنسانية. ولطالما اعتبرت تصرفاتهم أعمالاً إجرامية تخريبية. لم يكن للقانون سلطة في تلك الجبال المسالمة التي نُظر فيها إلى المنقّبين على أنهم لصوص، وإلى المهرّبين في البحر على أنهم قراصنة: إذا ضُبطوا بالجرم المشهود فجرّت «قوات القصدير الخاصّة» رؤوسهم على الفور بكلاشنكوف أك-٤٧.

بناءً على توجيهات مهار، تحرّك عساكر قوس قزح شمالاً، نحو مسار نهر بوتا المُهلك.

توقّفنا عند عشرات الحقول والأكواخ. سبرنا ثغرات جذور أشجار «المانغروف». لم نجد شيئًا، وبُحّت أصواتنا من كثرة صياحنا باسم فلو.

مع كلّ كوخ خلا من فلو، فقدت سمعة توك بيان تولا شيئًا من مصداقيتها. ومع اقتراب منتصف النهار، استُنزِفت سمعة توك بيان تولا تقريبًا. تملّك الشعور بالإهانة مهار كلّما تذمّرنا من كوخ فارغ، وزادته سياط لسان شمشون اللاذعة تأزّمًا. «لو كان ذلك الشامان قادرًا على تحويل نفسه إلى ببغاء، لما اضطررنا إلى البحث.»

وصلنا أخيرًا إلى صخرة عظيمة ناتئة. تجمّعنا هناك لنستريح ونستجمع ما تبقّى من قوانا. حدّدت تلك النقطة نهاية المنحدر الشمالي، وبعدها على بعد نصف كيلومتر نزولاً تكمن أهوال نهر بوتا.

إلى هنا ولا أثر لفلو. أيقنّا أن المنحدرات الشمالية تكذّب بالدليل القاطع رسالة توك بيان تولا. كنّا في الوقت نفسه نرصد بوساطة جهاز لاسلكي تطوّر الجهات الغربية والشرقية والجنوبية. وعلمنا أن لا أحد عثر على فلو في تلك المناطق أيضًا. وهكذا ثبت كذب توك بيان تولا من نقاط البوصلة الأربع.

احتقن وجه مهار. بدا كما لو أنه تعرّض للخيانة على يد حبّ ملك عليه حياته. غمرني الحزن أنا أيضًا من تفكيري بمصير فلو الرهيب. كان احتمال ألا يعثر عليها أحد واردًا جدًا، وكذلك إمكان العثور عليها ولكن بعد أن يكون نهشُ الغربان قد حوّلها إلى هيكل عظمي. والمفجع أكثر من هذا وذاك أن تكون المنية قد وافتها قبل ساعات قليلة من وصول النجدة، إذ من الصعب التشبّث بالحياة في صقيع الليل بلا كسرة خبز.

ربّت هارون كتف مهار. طأطأ مهار رأسه منكسرًا. تفرّست عيناه في نهر بوتا ومستنقع الزنبق. وقفنا، جمعنا أغراضنا وتجهّزنا للعودة إلى بيوتنا. قبل أن نغادر، قرّر شهدان أن يجرّب المنظار البلاستيكي المتدلّي من عنقه. ركّزه على محيط نهر بوتا ونظر. كنا قد ابتعدنا عن الصخرة عندما صاح شهدان. كانت صيحة مصيرية.

«انظروا. هناك شجرة مانغروف عند حافّة النهر!»

استولى مهار فورًا على منظار شهدان. جرى إلى حافة الصخرة ونظر إلى الأسفل. «وهناك كوخ!» صاح وقد عادت له الروح. «علينا أن ننزل إلى هناك!»

صعقتنا فكرته المجنونة. كونتشاي الذي أبقى فمه مغلقًا إلى تلك اللحظة، رأى أن حماقة مهار قد تعدّت الحدود.. وبصفته عريف الصفّ شعر بالمسؤولية.

«ما أنت يا هذا! مجنون؟» عوى. كانت النظرة في عينيه المحمرّتين حادّة.

«اسمح لي أن أوضح لك شيئًا يا صاحب الجمجمة الغليظة. يستحيل وجود حقل هناك في الأسفل. لا أحد بكامل قواه العقلية يتخذ لنفسه حقلاً عند حافة نهر بوتا إلا إذا أراد أن يموت من أجل لا شيء!»

أدام مهار النظر إلى كوتشاي ببرود.

«استعمل عقلك! هيا تعال، فلنعد أدراجنا!» توّج كوتشاي مداخلته الهائجة.

لم يتزحزح مهار. انبرى هارون بصفته أكبرنا ينصح مهار بلطف، «تعال، علينا أن نعود.. لقد أخذ هذا الجبل إلى الآن طفلاً. تعال يا مهار، هيا بنا.»

واجَهَنا مهار بلا مبالاة. بدأنا نتحرّك، وبينما نحن نفعل قال بهدوء كبير، «يمكنكم أن تعودوا أدراجكم، سأنزل وحدي.»

وهكذا نزلنا كلّنا على الرغم من تيقّننا من أننا لن نعثر على فلو هناك. لعنّا شهدان بسبب استخدامه العَرضي لمنظار الأطفال الرخيص ذاك. إلا أن أوان الندم فات.

انحدرنا نحو منطقة الموت؛ منطقة فيضان نهر بوتا؛ فقط لنرافق مهار. رافقناه لنرضي غروره ولنحميه من غبائه. كرهنا تعصّبه للشامان توك بيان تولا لكنه ما زال صديقنا، وما زال عضوًا في لاسْكار بِلانجي. عرفت في قلبي أننا إذا لم نعثر على فلو سأكون أول من يصفع مهار على قفاه. آه، الصداقة؛ الصداقة مكلفة في بعض الأحيان، بل مزعجة. الدرس رقم أربعة: لا تصادق أبدًا شخصًا مهووسًا بعوالم الغيب.

لا يتضمّن حديثي عن أهوال نهر بوتا مبالغات مطلقًا. بدت لنا مياه المستنقعات المتغلغلة في خمائل أشجار النخيل مثل مملكة أرواح شريرة، وأرض خصبة لمختلف الأشباح. سعت الزواحف الضخمة من جميع الأشكال والأحجام كعادتها غير متأثّرة بتاتًا بحضورنا، وليست خائفة قيد أنملة، بل حتى أبدت ما ينمّ عن استعدادها لمهاجمتنا.

قلائل هم الناس الذي ارتادوا تلك البقعةِ، ومن بينهم كلّهم ليس هناك من يفوقنا

حماقة. تقدّمنا بخطوات حذرة ووئيدة. أخرج كلّ منا سكينه من طيات سارونغه، وشكّلنا خطًا مستقيمًا لنحمي ظهور بعضنا. سمعنا شيئًا يُطبق مُصدرًا تدفّق ماء عظيم. كان ذاك فم تمساح ضخامته لا يُسبر غورها. وكانت الأفاعي تتدلّى من على فروع الأشجار.

قدّرنا مسافة بعد الكوخ عنّا بحوالي مئة متر. وكلما اقتربنا أصبح أوضح وأكثر غموضًا. تأكّدنا من أنه يقع في حقل مهجور فعلاً. من يا ترى ذاك الشخص المقدام الذي اقتنى حقلاً هنا؟

كان الحقل قريبًا جدًا من ضفة نهر بوتا. وخطيرًا بكلّ ما في الكلمة من معنى. لا ريب في أن المالك أراد أن يبقى على مقربة من الماء من غير أن يراعي سلامته الشخصية. وهذا تصرّف غبي. لعلّ غباءه وضع حدًا لحياته، ولذلك غدا الحقل مهجورًا، وأصبح لا يخضع إلا لحكم مجموعة قرود وجحور سناجب.

رأينا قرب الكوخ غصن شجرة تفاح وردي يهتزّ كأنه يوشك أن ينكسر. جزمنا أن هذا من فعل قرد طويل الذيل جشع.

اقتربنا من شجرة التفاح الوردي بحذر وأعددنا استراتيجية للهجوم. كان القرد المحتمي بالأوراق الوفيرة مستغرقًا في احتفاله بين الأغصان وغير واعٍ بحضورنا. أردنا أن نقبض عليه بالجرم المشهود ونرعبه: طريقة بسيطة لنرفّه عن أنفسنا في خضمّ بحثنا المحبط عن فلو.

قفزنا تحت الأغصان وصحنا بملء أصواتنا لنفاجئ القرد. وحالما فعلنا ذلك انقلب السحر على الساحر. أصابنا ما هو أكبر من المفاجأة ونحن نرى قردًا أبيض باشًا يعتلي غصنًا كما يمتطي الطفل حصانًا. بدا كما لو أنه قد استيقظ لتوّه ولم تتح له الفرصة ليغسل وجهه. وعندما رآنا أطلق ضحكة رنّانة من دهشته بمظهرنا الشاحب والمرتبك. كان ذاك القرد فلو، فلو تلك الفأرة الشقيّة. نعم، عثرنا أخيرًا على فلو!

٢٣

من غرفتي وجهك لن يرحل

رأيته، في طيّات كتاب، متمسّكًا بخاصرة الحيوان مثل «قوبلاي خان». لمعت عيناه كأن إله الرماح اخترق قلبه. غلى دمي عندما تسلّل نحو ذَكَر الأيل. لم أرغب في قلب الصفحة الأخيرة لمّا قال إنه سيتخلّص من حبه للنساء «التوتونيات التشماكونيات»، ليحافظ على نقاء الدم «البيكووتي» الأميركي الأصيل الذي يجري في عروقه. المحزن في هذا كلّه أنه كان آخر فرد في قبيلته.

كانت قصة آسرة. لم أسأم منها قطّ على الرغم من تكرار قراءتها. كيف صيغت بذلك الأسلوب الذي جعلني أشعر كما لو أنني هناك أشهد بنفسي أحداثها، هناك في براري «يلوستون»، في حين لا أعرف حتى أين هي وأين تقع؟

«إنها قوّة الأدب،» قال لي ساعي البريد.

الأدب! تساءل قلبي، وما ذاك؟

درجنا كثيرًا على مساعدة ساعي البريد أثناء عطلتنا المدرسية. ساعي البريد المسكين الذي دأب على العمل وحده، مباشرًا مهامّه مع صلاة الفجر، معتنيًا بمكتب البريد وآلاف الرسائل. يتسلّم الرسائل في فترة العصر، والرزم والحوالات الصادرة. في المساء يفتح مكتب البريد ويفرز الرسائل؛ ثم يركب دراجته ويسلّمها لأصحابها في جميع أنحاء القرية. أحيانًا تستمرّ مهمته هذه إلى الليل.

ناء قلبي بثقل نضال ساعي البريد. ولطالما تحاملت على نفسي لأقوم وأصلي

في منتصف الليل بإخلاص. ثم أغمض عيني بقوة وأدعو: يا إلهي لا أعرف بعد ما هي مخططاتي المستقبلية. ولكن، أتوسّل إليك ربّي أن تجعلني أي شيء ما عدا عامل بريد عندما أكبر، ولا تمنحني عملاً يضطرّني إلى النهوض مع صلاة الصبح. وأعدك ربّي بألا أعلّق دراجة معلّم الدراسات القرآنية على شجرة «البانتان» مرّة أخرى.

كان ساعي البريد يمنحنا بعض المال لقاء مساعدته في حمل أكياس البريد، وسمح لنا بقراءة كتب روائية، مثل ذاك الكتاب الذي يحكي عن «يلوستون» الهندية. تعود تلك الكتب في الواقع إلى أطفال مدرسة الـ ب ن الذين عادوا إلى جاوة أو مناطق أخرى. وبعد رحيل الأطفال تُحفظ كتبهم المذهلة في مكتب البريد.

كان العمل في مكتب البريد نشاط مدرستنا الصيفي. كنا ننام ليلاً في مسجد الحكمة، ونتبادل هناك رواية شتّى أنواع القصص. لم نملّ قط من استرجاع حكاية اليوم الذي بحثنا فيه عن فلو في الجبل، وكيف أثبتت رسالة توك بيان تولا صحّتها. تلك كانت أوّل مرة يُظهر فيها مهار ما سيصبح لاحقًا توقيعه الدامغ؛ حركة يقوم بها كلّما شعر أن الصواب حليفه: يرفع حاجبيه وكتفيه في وقت واحد ويومئ برأسه إيماءً متكررًا. حركة لا تختلف عما يفعله البطريق بعد التزاوج. وكنا نراها بغيضة.

في أحد الأيام، وأنا أساعد ساعي البريد في نقل الرسائل الصادرة إلى كيسه، أدهشتني رؤية رسالة تحمل اسمي: إكال.

تنحيّت، وانفردت بنفسي وراء مكتب البريد. فتحت الرسالة تحت شجرة «رامباتان». تسارع قلبي. تضمّنت الرسالة قصيدة:

الشوق

الحبّ ما كفّ يؤرقني منذ أن نظرت إلي
في طقس التخاطُف، في اليوم المصيري
نظرتك جعلت النوم يجفولي
لأن من غرفتي وجهك لا يريد أن يرحل.

من أنت،

يا من أغرقني بلا رحمة في أحلام اليقظة

أنت لا شيء أكثر من صبي مزعج

ومع ذلك فإليك أنت

أشتاق

جو جيان لينغ - آلينغ

تسمّرت عيناي على الورقة. ارتعشت يداي. قرأت الرسالة مرّة أخرى، وتسلّل شعور بالمرارة إلى قلبي. كنت سعيدًا ولكن في الوقت نفسه طغى علي حزن مظلم؛ كما لو أن شيئًا فظيعًا سيصيبني. تلفّت حولي. رأيت سياج مكتب البريد يتحوّل رويدًا رويدًا إلى ساقين رابضتين بثبات، ومن الفرجة بينهما رأيتُ رجلاً يجلس القرفصاء إلى جانب جثّة تمساح أبتر. نظر إلي. وتدفّقت الدموع على وجنتيه المجدورتين.

في تلك اللحظة، عرفت ماهية الألم الذي أصاب شامان التماسيح بودينغا عندما شاهدته في ملعب كرة سلّة المدرسة الوطنية في الماضي: صدمة مفجعة تأصّلت في ذهني الغضّ. صدمة عاودني الشعور بها كلّما اختبرت هاجسًا سيئًا. وفي ذلك اليوم، بعد سنوات عديدة، زارني بودينغا لأوّل مرّة.

٢٤

سأجلب لك زهورًا من قمة جبل

لا يعتبر جبل سوليمار جبلاً شاهقًا جدًا، لكن ذروته تحدّد أعلى نقطة في شرق بيليتونج. وفي حال أراد المرء دخول قريتنا من الشمال، عليه أن يعبر كتف الجبل الأيسر. وهو يماثل قاربًا مقلوبًا رأسًا على عقب؛ يتميّز بالتطرّف والزرقة الغامضة. تمتدّ منازل أهالي سيلينسنغ وسوليمار على المرتفعات والمنحدرات عند حافة ذلك الكتف الأيسر. يفصل بين القريتين التوأم واد عميق تغمره بحيرة ميرانتك المسالمة.

طريق الصعود إلى قرية سيلينسنغ قصير ولكن شديد الانحدار، وهذا يجعل أي رحلة على الدراجة أشبه باختبار لقدرة تحمّل المرء. شبّان الملايو الذين يحاولون إثارة إعجاب حبيباتهم لن يتنازلوا ليطلبوا من فتياتهم الترجّل عن الدراجة في الطريق إلى الأعلى، بل تراهم يمضون قدمًا وهم مفعمون بالعزم للوصول إلى القمّة مستخدمين كل ما أوتوا من قوة، ومترّنحين على طول الطريق.

بعد الانتصار على مصاعب الصعود وتذليلها تبدأ الدرّاجة في الانحدار نزولاً. عند ذاك لا يمتنع أي شابّ عن رسم ابتسامة رضا على وجهه وهو يطلب من محبوبته أن تتشبّث بخصره جيدًا، مبرهنًا لها أنها إذا اختارته فسيكون في المستقبل زوجًا يمكن الاعتماد عليه.

تتبع الدراجة بعدئذٍ مسار وادي بحيرة ميرانتك ملتفّة حول منعطفين. ولا تلبث أن تستقبل مرتفع قرية سوليمار. وهنا تتفهم أي حبيبة الموقف إذا طُلب منها النزول

من على الدراجة، لأن مسافة هذا المرتفع أطول من السابق بكثير على الرغم من أن درجة انحداره أقل. وهذا ما جعل الصعود إلى سوليمار أقلّ فعالية في البرهنة على صدق الحب.

مع ذلك، عند الوصول إلى القمّة؛ قمّة كتف جبل سوليمار الأيسر: القمّة التي أتيت على ذكرها سابقًا، يُثاب الجهد المستنفد كلّه. فأمام عيني المرء تمتدّ بيليتونج الشرقية الجميلة. يحدّها ساحل أزرق مترامي الأطراف، وتحميها غيوم ناصعة البياض ونقية، وتعانقها بأناقة أشجار الصنوبر.

من قمّة ذلك الكتف يرى المرء بيوتًا منتشرة على طول ضفاف مصبّات نهر لانغكانج المتلوّية كالثعابين. بيوت مسوّرة، لا بالخيزران، ولكن بحقول من الحشيش البري.

إذا حدث وسافرتَ على طول هذا المسار، لا تستعجلنّ النزول من على قمّة سوليمار إلى الوادي. توقّف هناك وخذ قسطًا من الراحة. اتكئ بعض الوقت على شجرة «أنغسانا»، حيث صغار السناجب ذات الذيول الصفراء تلهو. أنصت إلى أوركسترا إبر الصنوبر وصيحات الطيور الصغيرة تتعارك تحت الشمس مع النحل على رحيق التفاح الوردي. استمتع بتناسق المشهد البهي: الجبل والوادي والنهر والبحر. افتح قميصك واملأ صدرك بالرياح الجنوبية المنعشة المثقلة بعبير تويجيات «الأندريانوم» من زهرة القلب التي تنتفخ بالخصوبة بينما ينمو أحفادها في الأماكن العالية. أُسمّي هذه الزهرة زهرة القلب بسبب شكل أوراقها التويجية. ويطلق عليها كثير من الناس اسم زهرة الحب.

لست متأكّدًا ما إذا كانت زهرة «الأندريانوم» هي مصدر العبير، أو أنه ناشئ من شريكها الذي يعايشها، وهو نوع من الفطر اسمه «كلايتوسيبي غيبا». هذا الفطر عديم الساق يعمل بجدّ ليحجب جذور أسرة القلقاس. ينمو في مناخ أكثر رطوبة مع هبوب الرياح الغربية أواخر السنة. ويتميّز من ناحية الشكل بالانتفاخ والتماسك وعدم الارتفاع.

غالبًا ما قصد عساكر قوس قزح جبل سوليمار للنزهة، حتى بدأنا نسأم قليلاً من مفاتنه. عادة، لم نكن نصعد الطريق كلّه إلى قمته، فقد رضينا بثلاثة أرباع المسافة. فضلاً عن أنّ الجرانيت على درب الصعود جعل التسلّق زلقًا. بيد أنني هذه المرّة رغبت في الصعود إلى القمّة بعزم وتصميم. استقبل رفاقي اندفاعي بالترحاب. لا شيء غير عادي حدث حتى ذلك الحين، وانبروا يتحدّثون عن المنظر الأخّاذ الذي لن نلبث أن نراه من القمة. جسر نهر لينغانج، وعبّارات من الرمل الأملس تتكئ على الرصيف.

لم أهتمّ بأي من ذاك. كنت في مهمّة سرّية. السرّ له علاقة بالمشهد البديع عند أعلى نقطة في جبل سوليمار، وله علاقة أيضًا بمجموعة من الأزهار الفاتنة التي لا تنمو إلا في الأعالي: زهرة الإبرة الحمراء، وإذا حالفني الحظّ، قد أقع على زهرة «الموراليس» الرائعة في حال لم تذبل بعد.

أُسمّي «الموراليس» زهرة حشيش الجبل، وهي تسميتي الخاصّة لها. وذلك لأنها تهوى بعثرة نفسها في الأنحاء كيفما اتفق، حتى اخترقت ستة أو سبعة من أنسالها أراضي حمار الوحش المعشوشبة. يبلغ عرض كأس زهرتها حجم الإبهام، لونه أصفر كامد وتدعمه ساق فاتحة الخضرة غير موحّدة الحجم. هي عفوية وساحرة. وإذا حدث وقطفتَ على الأقل خمس عشرة منها، ثم انتزعت أوراقها وأضفت إليها عددًا من أزهار الإبرة الحمراء، فإن قلب أي امرأة تقدّمها لها سيذوب.

بعد ثلاث ساعات من التسلّق وصلنا إلى القمّة. وأعرب جميع أعضاء لاسكار بِلانجي عن إعجابهم بالمشهد الممتدّ في الأسفل.

«انظروا إلى مدرستنا،» صاحت سهارى. حتّى من بعيد بدا بناؤها مثيرًا للشفقة. ومهما تعدّدت زوايا النظر إليها وتباينت المسافات، لم يختلف منظرها عن سقيفة تجفيف لبّ جوز الهند.

بدأ مهار يروي لنا حكاياته الخرافية. بناءً على ما يقوله، كان جبل سوليمار تنّينًا تقوقع على نفسه ونام لقرون.

«هذا التنّين سيستيقظ في يوم الحساب، رأسه هو قمّة هذا الجبل. ما يعني أن

رأسه تحت أقدامنا الآن في هذه اللحظة! وذيله يلتفّ في مصبّ نهر لينغانج.»

ذُهل آكيونج.

«لذا لا تصدروا كثيرًا من الضجيج، وإلا تعاقبكم الأرواح،» تابع مهار غير مكتفٍ بعد بجعل نفسه

أضحوكة.

صدّق آكيونج حكاية مهار. وليظهر له المودّة أعطاه موزة مغلية من زوّادته. كان مثل رجل بدائي يعطي عرّافًا إتاوته مقابل علاج الجرب. اختطف مهار الإتاوة وحشرها في فمه، غير واعٍ أبدًا بقوة تأثيره على آكيونج. ضحك الجميع لكن آكيونج احتفظ بجدّيته؛ بالنسبة إليه ليس في الموضوع ما يستدعي الضحك.

أنا أيضًا لم أضحك. لم أستطع زحزحة عيني عن مربّع أحمر من جوانبه الأربعة في الأسفل.

تحرّيت حقول العشب البري على قمّة الجبل، والتقطت براعم زهرة الإبرة الحمراء البرية وأزهار «الموراليس» وربطتها معًا بخيوط الحشيش.

كان المشهد من قمّة الجبل جميلاً فعلاً، مثل أغنية يبدأ مطلعها بالغيوم البيضاء المتسكّعة على مقربة مني حتى أكاد أصل إليها، ومتنها تغريد طيور البرغانتيل المسترسل؛ عالٍ ودانٍ. أما لازمتها فآلاف الحمائم تغزو الزنابق المنتشرة في الأسفل كأنها سجّادة عملاقة. وفي نهايتها تخبو شيئًا فشيئًا وتتلاشى في غابة «المانغروف».

لم أبذل ما بذلته من جهد لأتسلّق إلى قمّة جبل سوليمار من أجل المنظر الرائع أو الأزهار، على الرغم من الجمال الأخّاذ الذي سحرني. كان دافعي الحقيقي للوصول إلى أعلى نقطة في شرق بيليتونج هو المربّع الصغير الأحمر في الأسفل: سقف بيت آلينغ.

٢٥

البيليتونيت

صباح اثنين مشرق. قصيدة ملفوفة بورق أرجواني تزيّنه أشكال الألعاب النارية. باقة زهور من قمّة جبل سوليمار مربوطة بشريط أزرق فاتح. حُفظت الزهور يانعة في إناء خزفي طوال الليل.

كانت تلك الأشياء دعائم ملحمة حبي، المقدّر لها أن تستمرّ هذا الصباح. بقي السيناريو في رأسي لأسابيع على النحو التالي: عندما تدفع آلينغ صندوق الطباشير، أناولها الأزهار والقصيدة. الكلمات غير ضرورية. ما عليها إلا أن تعبّ جمال الأزهار من قمّة الجبل. ما عليها إلا أن تقرأ قصيدتي وتتذوّق شيئًا ألذّ من كعكة رأس السنة الصينية.

بعد أن أعطى آمياو أوامره، اقتربت من فتحة علبة الطباشير. ثم، وأنا على بعد خطوتين تقريبًا، تسمّرت في أرضي، وقد باغتتني يد خشنة؛ يد غير يد آلينغ.

كانت اليد التي ظهرت فظيعة جدًا، مثل نصل نحاسي شرير: عضلية ووسخة وسوداء ولزجة.

حول الذراع التفّت ثلاث حلقات من سوار مرجاني أسود. عند نهاية كلّ حلقة من حلقات السوار نُحت رأس ثعبان من ثعابين «بينانج باريك» السامّة وبدت كلّها جاهزة للانقضاض. المنطقة تحت المرفق تمامًا طوّقها سوار ألمنيوم ضيّق، مثل الأساور التي يضعها في أغلب الأحيان العمالقة المتوحّشون في قصص «وييانغ». كان إطارا السوار على شكل مفتاح مسنّن، النوع المستعمل عادة لخرق القانون. لم

أر أي وشم، لأن الوشوم محرّمة بالنسبة إلى الملايويين المتدينين، إلا أن الأصابع حُبست بثلاثة خواتم مخيفة.

حملت السبابة أكبر حجر سطام رأيته في حياتي.

السطام هو حجر نيزكي فريد، لا يتوافر إلا في بقعة وحيدة على الأرض: بيليتونج. يعود بأصله إلى مكان خارج هذا العالم. هو حجر حالك السواد بسبب طبيعة تركيبته المكوّنة من حامض الكاربونيك والمغنيسيوم. وهو أكثف من الفولاذ ومن المستحيل تشكيله.

يتوارى حجر السطام في حفر مناجم القصدير القديمة، ولا يمكن العثور عليه في حال جرى البحث عنه؛ الحظّ وحده يخرجه من أحشاء الأرض. في سنة ١٩٢٢ أطلق الهولنديون على حجر السطام اسم «بيليتونيت». ومن هنا حصلت جزيرتنا على اسمها: بيليتونج. كان لها باللهجة المحلية اسم مقدّس: «كيويك». لاحقًا، ولا أعرف لماذا، ربّما لأن المناطق الملايوية النائية نادرًا ما تستعمل حروف العلّة؛ غيّر المرؤوسون العوام في حكومة النظام الجديد ذلك الاسم إلى بيليتانج.

بلا أي اعتبار جمالي على الإطلاق، توّج صاحب تلك اليد البغيضة النحاس الرخيص العادي بذلك الحجر المقدس. إلا أنه لبسه بفخر، كما لو أنه يحكم العالم.

حملت الأصبع الوسطى زعيم تلك الخواتم الرهيبة، والكاشف عن ميول مالكه الجديرة بالازدراء: جمجمة بشرية كبيرة مجوّفة العينين تبتسم ابتسامة مرعبة. وهذا الخاتم مصنوع من بندقة فولاذ مقاومة للصدأ يحصل عليها المرء بالتآمر مع عمال الـــ پ ن الذين يغسلون المكائن.

عملية تحويل هذه البندقة إلى خاتم هي عملية تقشعرّ لها الأبدان. إذ بعد تشكيلها نوعًا ما بمخرطة، تُبرد البندقة غير القابلة للكسر يدويًا لأسابيع. ومن يصنع هذه الخواتم عادة هم الذين تستخدمهم شركة الـــ پ ن عمّالاً. كان هذا أشبه بعُرف من أعراف المقاومة السرّية ضدّ جبروت الـــ پ ن: يرمز الخاتم إلى القهر الذي يتعرّض له الناس. أسابيع من العمل السرّي المضني لا ينتج عنها إلا خاتم لامع بشع. وإلى يومنا هذا ما زالت هذه الصناعة قائمة على الرغم من أنني لا أفهم جدواها.

والأظفار؛ أفٍّ! رحماك ربّي! أوحى منظرها بأن لعنة ما قد حلّت عليها. الفرق بين أظفار آلينغ؛ الأظفار التي سحرتني لسنوات، وبين هذه كالفرق بين السماء والأرض. كانت سميكة وقذرة ومهملة. ناهيك عن تقصّف أطرافها. بدت أساسًا مثل حراشف التماسيح.

لم أقدر على التعافي من صدمتي عندما سمعت نقرة عالية. ثمّة من حثّني على أخذ علبة الطباشير التي دُفعت إلى الأمام. ثم سمعت نخرة عدائية. إلا أن ما أزعجني أكثر من أي شيء هو غياب آلينغ. ماذا ألمَّ بها يا ترى وأين ذهبت؟

«ما الحكاية؟» سألني شهدان عندما جاء يتفقّد سبب غيابي الطويل. «يَدُ من هذه؟»

تقبّضت حنجرتي. خانني صوتي فلم أردّ.

لم تكن تلك اليد غريبة عني. كانت يد بانج أرسياد، العامل لدى آمياو. وقد تذكّرت أنه منذ وقت مضى نحت رؤوس ثعبان «بينانج باريك» على المرجان الأسود الذي أعطاه إياه رجل من شعب السارونغ. أخبرني يومذاك أن المرجان الأسود المُستخرج من قاع المحيط استغرق ثلاثة أسابيع ليُعطى شكل سوار حلزوني. المرجان، الذي كان في البداية طويلاً ومشدودًا، طُوِّع بإخماده بزيت الفرامل، ثم دُخّن بتأنٍّ فوق موقد.

أخذ شهدان علبة الطباشير. سحب بانج أرسياد يده التي اختفت مثل حيوان ينقبض متواريًا في جحره.

اقترب مني آمياو الذي وقف يراقبني منذ البداية وأخذ نفسًا عميقًا.

«آلينغ ذاهبة إلى جاكرتا،» قال ببطء. «على متن طائرة الساعة التاسعة. عليها أن تقيم مع عمتها التي تعيش وحدها. ويمكنها أن ترتاد مدرسة جيّدة هناك.»

رتِجَ عليّ. اعتراني الذهول. لم أصدّق ما سمعته أذناي. الشعور بأن حدثًا جللاً سيأخذ مجراه قريبًا، الشعور الذي اعتراني من استرجاع صورة بودينغا تحقّق. سُحقت روحي.

«إذا كان مقدّرًا لكما فستجتمعان ثانية في يوم ما،» أردف آمياو وهو يربّت كتفي.

طأطأت رأسي مثل شخص يقف دقيقةَ صمتٍ حدادًا. أحكمت قبضتي على باقة الزهور وقصيدتي.

«طلبَتْ مني أن أبلغك تحياتها، وأرادت أن أعطيك هذه.»

أعطاني آمياو قلادة. قلادة الجاد التي رأيت آلينغ تضعها لسنوات. مكتوب على الجاد «ميانغ سوي»: القدر. ثم أعطاني علبة ملفوفة بورق أرجواني مزدان بأشكال الألعاب النارية، الورق نفسه الذي غلَّفتُ به قصيدتي. صدفة شبه مستحيلة. لقد عرفت هذا! عرفته من البداية! لقد رعى الله هذا الحبّ الجميل جدًا.

أخذت العلبة، وفي تلك اللحظة تراءى لي أن بضاعة المتجر كلّها تسقط فوقي. أردت أن أبقى لأسأل آمياو عن أمور كثيرة، لولا أن لساني كان معقودًا.

ضاق صدري. نظرت حولي ثم وانتني فكرة مباغتة. انتزعت شهدان من المتجر لنعود أدراجنا.

قدت الدراجة بسرعة قصوى من متجر «سينار هارپان» إلى المدرسة. مررت بعشرات المطبّات ولم أخفّف من سرعتي. التخاذل ليس واحدًا من خياراتي؛ لا بدّ أن أصل إلى باحة المدرسة.

وصلنا في الساعة الثامنة وخمسين دقيقة. عاد شهدان إلى الصفّ. أما أنا فجريت عبر الباحة نحو شجرة الفيلسيوم. تسلّقتها وجلست على غصني، موقعي المعتاد لمراقبة قوس قزح.

بالتدرّج، وبعد التاسعة بقليل، ظهرت طائرة فوكر ف٢٨ في الأفق، متّجهة من تانجونغ باندان إلى جاكرتا. كانت آلينغ في تلك الطائرة. وكلّما طالت مراقبتي للطائرة ازدادت ضبابيتها، لا من بُعْد مسافتها ولكن من تراكم الدموع المترقرقة في عيني. ثم اختفت الطائرة. لقد انتُزعت مني رفيقة روحي ومُزِّق قلبي؛ غدت السماء خالية مرة أخرى. وداعًا، وداعًا يا حبّي الأول.

٢٦

صغار جنٍّ غاضبون

حلمت أن قنبلة ذرّية مجهولة المصدر انفجرت في بيليتونج. انحدرت سحابة فطر عملاقة من السماء، حاملة معها نشاطًا إشعاعيًا وزنبقًا وآمونيا. تشتّت الناس مربكين يبحثون عن ملجأ، ينزلقون في قنوات الماء، أو يقفزون إلى أنابيب التصريف. كثيرون ماتوا من فورهم، والذين نجوا تحوّلوا إلى أقزام كريهة الرائحة.

خجلت الحكومة المركزية في جاكرتا من العالم وهي ترى أهالي بيليتونج الأقزام، ورفضت الاعتراف بأنهم من مواطنيها. فلم نجد أمامنا خيارًا إلا أن نجري استفتاءً عامًا.

في حين أراد قلّة من الملايويين الانفصال عن ولاية جمهورية إندونيسيا الوحدوية، اعتبرت الحكومة هذا الاستفتاء كإعلان بيليتونج استقلالها. لكن، بما أن بيليتونج لم تعد قادرة على دعم نفسها، لأن مصادرها الطبيعية استُنزِفت على مدى مئات السنوات، انهارت.

عندئذٍ، عاد إلى الظهور بودينغا شامان التماسيح المختفي منذ زمن طويل وسيطر على الحكم. اضطهد أولئك الذين أجحفوا في معاملته هو وأبيه. جمعهم وألقاهم في نهر مارانج، تاركًا إياهم لقمة سائغة للتماسيح. حاول الأقزام التمسّك بالحياة الغالية بلا جدوى. خلال وقت لا يُذكر فنوا كلهم وطفوا على سطح النهر مثل السمك المتسمّم.

عجزت عن التفكير بصورة صحيحة. راودتني الكوابيس ولاحقتني خيالات غريبة. إذا سمعت طيورًا تزقزق، تراءى لي أن زقزقتها ليست إلا دندنة طائر غامض يحمل أخبار الموت. وتهيأ لي أن الجميع يتآمر ضدي؛ ساعي البريد وعمّال بَشْرِ جوز الهند وشرطة الخدمة المدنية والحمّالون.

ترك رحيل آلينغ في قلبي الألم والحزن. أردت أن أندفع بجنون إلى متجر «سينار هارپان»، لولا أنني أدركت أن مثل هذا التصرّف الدرامي؛ تصرّفات سبق لي أن رأيتها في الأفلام الهندية، لن يقابَل إلا بحاويات معجون الفاصوليا وأكوام توابل «الروبيان» المتعفّن. كنت بائسًا. بائسًا بكلّ ما في الكلمة من معنى.

ثم، وكما هي السنن المتّبعة في الأفلام الهندية، اعتللت وأصابني السقم من افتراقي عن آلينغ. منذ وقت مضى سخرت من جاري «بانج جوماري» الذي عانى من إسهال حاد وانتفاضات لأن ابنة عمي الكبرى «كاك شيتا» انفصلت عنه. لم أستوعب آنذاك كيف يمكن حدوث مثل ردّ الفعل السخيف هذا. ولكن ها أنا أعاني المصير نفسه. غبت عن المدرسة يومين كاملين ووقعت فريسة حمّى شديدة. لم أرد أكثر من ملازمة سريري. كان رأسي ثقيلاً وأنفاسي متقطّعة ومتلاحقة. سقتني أمي شراب «الأسكومين» بلا جدوى. وهكذا ثبت أن دواء مُستخلَص الدود لا يعالِج لوعة الحبّ.

بعدئذٍ، جاء لزيارتي شهدان ومهار وتابِعُه الوفي آكيونغ.

تقدّم منّي مهار الذي ارتدى سترة يبلغ طولها ركبتيه. وتبعه آكيونغ على عجل وهو يجرّ حقيبة مثل طالب تمريض في دورة تدريبية. تميّزت الحقيبة بكثرة المُلصقات عليها، المُلصقات التي تستخدم في أيامنا لتبيّن أن رسوم الدراجة قد سُدّدت، إضافة إلى شعارات حكومية متنوّعة، معطية الانطباع بأن رفيقي من موظفي الحكومة الإقليميين المهمّين.

لم يَفُه مهار وآكيونغ بكلمة. بفرقعة من أصابعه أمر آكيونغ شهدانَ بالتنحّي.

دنا مهار مني ووقف يعاينني من رأسي إلى أخمص قدمي. اكتسى وجهه بتعبير جدّي، مثل وجه طبيب، وبوقت قصير جدًا أنهى تشخيصه. هزّ رأسه في إشارة منه إلى أن الحالة التي أمامه ليست بسيطة. أطلق نفسًا مترددًا ونظر إلى آكيونج.

«السكّين!» صاح فجأة.

بسرعة، عالج آكيونج أرقام الحقيبة وأخرج منها سكّين مطبخ علاها الصدأ. نظرت أنا وشهدان بقلق. سُلِّم مهار السكّين، فتناولها كأنه جرّاح اختصاصي.

«كُركُم!» أعلن مهار مرّة أخرى بصوت عالٍ وواضح.

بعجالة بحث آكيونج في الحقيبة عن شيء ما، ثم ناول مهار جذر كركم بحجم الإبهام. بلا اختلاق ضجّة قطع مهار جذر الكركم، فتّته وخطّط جبيني بالفتات راسمًا علامة إكس كبيرة. فعل ذلك بسرعة بالغة حالت دون أن أجد فرصة لأتفاداه. ثم، كما لو أنهما معًا عرفا الخطوة التالية في الإجراء وبلا حاجة إلى إصدار الأوامر، أخرج آكيونج أوراق غاردينيا من الحقيبة ورماها إلى مهار الذي التقطها برشاقة وراح يلسعني بها بلا رحمة وهو يرتّل.

ليس هذا فقط، لكن بينما لسعني مهار بأوراق الغاردينيا أخذ آكيونج يرشّني بالماء. حاولت تجنّبهما وصدّهما، بيد أنني لم أستطع الإفلات منهما لأنهما شكّلا معًا فريقًا موحّدًا وسريعًا ومنظّمًا.

توقّفا بعد فترة ليست بالطويلة. تنفّس مهار الصعداء. وحاكى آكيونج بوجهه السخيف ما فعله مهار.

«أثرتَ غضب ثلاثة أطفال من الجنّ لأنك تبوّلت على مملكتهم قرب بئر المدرسة،» أوضح مهار، كما لو أن روحي ستستعصي على أي مساعدة لو لم يأت في الوقت المناسب. ولم يظهر على وجهه ما يوحي بأنه يرتكب ذنبًا أو يقترف أذى.

«ولذلك أصابوك بالحمّى،» تابع وهو يضع أجهزته الطبية في الحقيبة ويسلمها بخفّة إلى آكيونج.

«إنما ليس عليك أن تجزع أبدًا يا صديقي. لقد طردتُهم، ويمكنك أن تعود إلى المدرسة غدًا!»

وبعد ذلك، من غير أن يودّعاني، غادر الاثنان. لم ينطق آكيونج بكلمة واحدة. وهكذا بقيتُ هناك مع شهدان مثل قطّة جرباء مبلّلة علقت تحت المطر.

٢٧

إدنسور

عدت إلى المدرسة، لكن جرح قلبي لم يلتئم. انزويت وحدي لأيام، يسيطر علي شعور بالفراغ. ما كان سهلاً نسيان آلينغ. ملأ الخواء صدري، وأعجزني حنيني عن التنفّس. ذهبت إلى شامانا مهار بحثًا عن أجوبة.

«بوي هل لك أن تخبرني ما هذا المرض الذي ألمَّ بي؟»

كان سؤالاً محبطًا. عرفت بكلّ جوارحي ماذا ألمَّ بي: كنت أعاني من خسارة حبّي. ومع ذلك أملت بأن يمتلك شخص غريب الأطوار مثل مهار جوابًا سحريًا قد يجعلني أرى حالتي على نور ضوء مختلف. ومثل جميع الذين يعانون من قلوب محطّمة، فكّرت بطريقة لا عقلانية.

عاينني مهار بشيء من الحنق، «ماذا أخبرتك؟ انتبه أين تتبوّل!» قال، ثم استدار وغادر.

بعد أسبوعين من رحيل آلينغ، أثناء فترة استراحة، وأنا مكسور الخاطر طبعًا، أريت لينتانج الصندوق الذي تركته لي مع أبيها. كانت هناك صورة برج على الصندوق.

«ما هذه الصورة يا لينتانج؟»

انبرى لينتانج يتفحّص الصندوق.

«هذه صورة برج إيفل يا إكال. وهو في باريس، عاصمة فرنسا،» أجاب لينتانج بنبرة متفاجئة قليلاً. «باريس هي مدينة الأذكياء؛ هناك يعيش الفنانون والعلماء. يُقال إنها مدينة جميلة. يحلم أناس كثيرون بالعيش فيها.»

عندما رجعت إلى البيت من المدرسة، اضطجعت بفتور في سريري وحدّقت في الصندوق. فتحته. وجدت فيه مفكّرة وكتابًا أزرق الغلاف.

فتحت المفكّرة، وكم دهشت وأنا أرى صفحاتها مسطورة بكل ما أرسلته من قصائد إلى آلينغ. جميعها في تلك المفكّرة، واحدة واحدة. هذا أجاب عن تساؤلي الحائر لماذا كانت آلينغ تعيد لي القصائد دائمًا.

تناولت الكتاب الأزرق. عنوانه: «لو أنهم ينطقون فقط»، لكاتب لم يسبق لي أن سمعت عنه: «جيمس هيريوت». جهلت سبب رغبة آلينغ في إعطائي هذا الكتاب. قلت لنفسي إذا وجدته مملاً بعد الصفحة الأولى فسأغطّي وجهي به لأنني ساعتها شعرت بالرغبة في النوم.

بدأ «هيريوت» كتابه بطريقة غير عادية. أولاً، روى قصة إشرافه على بقرة تضع مولودًا. لم يلبس قميصًا يومها، والحظيرة ليس لها باب. عصفت الريح بجنون. اندفع الثلج داخل الحظيرة ورجم ظهره. قال إن مثل هذه الأمور لم تُسرد قطّ في كتاب.

بعد تلك المقدّمة، تابعت القراءة إلى الجملة التالية والتي تليها ثم التي تليها؛ وسرعان ما استغرقت في قراءة الكتاب فقرة بعد فقرة، ثم التهمته فصلاً فصلاً بلا توقّف. أحيانا قرأت الفقرة نفسها مرارًا وتكرارًا. وشيئًا فشيئًا بدأ يأسي الممزوج بدموع شوقي يتنحّى جانبًا، صفحة وراء صفحة.

يتحدّث الكتاب عن كفاح طبيب بيطري شابّ أثناء ذروة الكساد الاقتصادي في الثلاثينات. عمل الطبيب الشابّ، وهو «هيريوت» نفسه، في قرية نائية تدعى إدنسور في مكان ما من إنجلترا.

شعرت، بكل عبارة من عبارات «هيريوت»، وبدأت روح جديدة تبعثُ في حنايا رأسي. بفم فاغر وأنفاس محبوسة قرأت وصف قرية إدنسور. بدت منحدرات التلال

المتفرّقة كأنها تتعاقب كالشلالات. تخيّلت قمم الجبال العالية التي تهبط مسالكها إلى السفوح الخضراء والوديان الفسيحة. في رأسي، تصوّرت الأنهار تلتفّ عبر قيعان الوديان بين أشجار الصفصاف وبيوت المزارعين المبنية بالحجارة.

شُدهت بقرية إدنسور الصغيرة. وأدركت أن هناك أشياء أخرى جميلة في العالم إلى جانب الحبّ. أثّر بي وصف «هيريوت» الرائع إلى درجة كبيرة بحيث أنه عندما تحدّث عن الدرب الصغير المرصوف بالحصى خارج البيت الذي زاول فيه مهنته، شممت رائحة «الأستوريا» على طول سياجات الماشية أسفل المسار. وعندما وصف المروج المنتشرة على تلال ديربيشاير المحيطة بإدنسور، لم أَرُمْ شيئًا إلا أن أستلقي فوقها وأريح قلبي المتعب، وأترك هواء القرية المنعش والعليل يقبّل وجهي.

أنهيت في ذلك المساء قراءة كتاب «هيريوت»، وتبنّيته فورًا كممثّل عن آلينغ وصورة مشاعري نحوها. وما لبثت أن فهمت لماذا أعطتني الكتاب.

وهكذا شفيت. أصبح عندي حبّ جديد في جعبتي البالية. وذاك كان حبّ إدنسور. بعد ٤٨٠ ساعة، و٣٧ دقيقة، و١٢ ثانية من تفجّعي لخسارتي آلينغ، قرّرت التوقّف عن الشعور بالأسى على نفسي. بدلاً من أن أستغرق في ذكرياتي عن متجر «سينار هارپان»، واللحظة التي كُسر فيها قلبي بقسوة هناك، دأبت على زيارة مكتبة البلدية في تانجونغ باندان. هناك، قرأت بإمعان كتبًا عن أسرار النجاح، وكيف تتآلف مع المجتمع بفعالية، والخطوات اللازمة لتصبح شخصًا مغناطيسيًا، وسلسلة كتب حول التنمية الذاتية.

ركّزت على دراستي، وتوقّفت عن رسم الخطط الغريبة واللاعقلانية. عثرت على شعار حياتي الجديد بضربة حظّ في قصاصة صحيفة قديمة في المكتبة. احتوت القصاصة مقابلة مع «جون لينون» الذي قال، الحياة هي ما يحدث لك بينما أنت مستغرق في إعداد خطط أخرى!

فتشت جميع الأكشاك على الطريق في تانجونغ باندان بحثًا عن مُلصق لـ «جون لينون» حتى وجدت صورة كبيرة لوجهه. في اليوم التالي، قصدت بو مُس واستأذنتها لتسمح لي بتعليق المُلصق في الصفّ.

«أيها الشابّ،» قالت معلّمتي وهي تعقد حاجبيها وتقطّب جبينها، «ألك أن تخبرني بصدق، ما الإنجاز العظيم الذي قدّمته لتمتلك الحقّ في أن تعلّق ملصقك هنا؟»

رمقت بو مُس ملصق «بروس لي»، «بروس لي» رمق مهار، ومهار حملق بي.

أسهبتُ في حديثي عن أهمية الجهد غير المُكافأ لسنوات وأنا أشتري الطباشير. فانتصبت أذناها.

«أهه، غير المُكافأ تقول؟ أتظنّنني صمّاء؟ أتظن أني لم أسمع الأقاويل في سوق السمك عن لعبك بالنار كلّ يوم اثنين وأنت تزور ابنة آمياو؟»

آه! ضُبطتُ متلبّسًا بالجريمة!

«أتعتقد بأنّني لا أعرف أنك في أيام الجمعة تعبث بطباشيرنا حتى يتاح لك أن تقابل الفتاة؟»

أُخِذتُ على حين غرة؛ تبين لي أن بو مُس تعرف كلّ شيء. وأنها قابلت سلوكي بحكمة طوال هذا الوقت.

تجمّدت. طلبت من بو مُس السماح. قبّلت يدها ووعدتها بأنني سأذهب وأسترجع أصابع الطباشير المطمورة قرب شجرة الفيلسيوم ثم أعود إلى الصفّ، وحاولت بعد ذلك تغيير الموضوع.

«الإلهام هو أكثر ما نحتاجه في صفّنا يا إيبوندا غورو!»

تابعت محاولاً إلقاء الضوء على نصيحة «جون لينون» الملهمة.

ربما كانت بو مُس معلّمة مدرسة قرية، إلا أنها تبنّت دائمًا وجهات نظر تقدّمية. ولعلها تأثّرت باعتذاري المخلص. وما إن حقّقت شروط اعتذاري المستلهَم سمحت لي بتعليق المُلصق.

وهكذا، شغَلت جدارَ صفّنا ثلاثةُ مُلصقات ورمز مجيد. على كلّ منها كُتب شعار:

روما إراما: *مطر النقود!*

جون لينون: *الحياة هي ما يحدث لك بينما أنت مستغرق في إعداد خطط أخرى!*

بروس لي: *قتال تنين الكونغ فو، قتال حتى الموت!*

رمز المحمدية: *أمرٌ بالمعروف ونهيٌ عن المنكر!*

٢٨

كنز دفين تحت مدرستنا

يوم كئيب.

يوم حمل معه أربعة أنواع من الأخبار السيئة.

الأول: پاك هارفان مريض جدًا بحيث بات عاجزًا عن مغادرة الفراش.

الثاني: لم يتأثّر السيد صمديكون ولا قيد أُنملة بصورة كأس الكرنفال التي فزنا بها، وأعاد الصورة إلينا. وبذلك بقي التهديد بإغلاق مدرستنا ساري المفعول، وأعلمنا أنه قادم بعد يوم ليقوم بزيارته التفتيشية النهائية. وتاليًا، ليس ثمّة ما يحول دون إغلاق مدرستنا من تاريخ إخطارنا بهذا.

الثالث: تزايد أعداد القادمين إلى مدرستنا من موظفي شركة الـــ پ ن الذين لم يتورّعوا عن دخول صفّنا وحفر أرضه لاستخراج عيّناتهم. وعلمنا من رئيس الفريق أن مستوى القصدير عندنا يصل إلى اثني عشر، ما عنى، وفق تخمينهم، أن كلّ ألف متر مكعّب من الأرض يحتوي على مئة واثني عشر كيلوغرام قصدير.

«مستوى عالٍ جدًا، هذا المستوى العالي لم يره أحد منذ زمن الهولنديين.»

غاصت أرواحنا، لأن ذلك دلّ على شيء واحد فقط: حتمية قدوم الجرّافات لحرث مدرستنا.

تقبّض وجه بو مُس.

«ليس هذا فقط،» همس شخص ما من الفريق بسرّية، «وجدنا الألمينايت أيضًا مع التانتالوم، ويرجّح وجود بعض اليورانيوم.»

يعتبر الألمينايت والتانتالوم سلعة غالية، أثمن عشر مرّات من القصدير.

شعرنا بوخز السخرية. تحت مدرستنا العاجزة والمتداعية؛ المدرسة التي حاربنا فيها الفقر يوميًا لنواصل حياتنا، يقبع كنز دفين يساوي تريليونات الروبيات.

الرابع: مهار.

«أأنجزت فروضك؟» توجّهت بو مُس بالسؤال إلى مهار مستهلّة بسؤالها وصلة توبيخ مسهبة احتجاجًا على تماديه في سلوكه غير السوي. فهو، قالت متأسيةً، قد انقلب رأسًا على عقب بتتبّعه الدرب المؤدي إلى عالم الغيبيات. من أجل هذه المداخلة أُلغيت حصّة الجمنازيوم المفضلة كثيرًا لدينا. جئنا كلّنا إلى الصفّ لنساعد في إعادة مهار إلى المسار الصحيح.

طأطأ مهار رأسه. كان شابًا وسيمًا وذكيًا وفنّانًا، إلا أنه كان عنيدًا في ما يتعلّق بقناعاته.

«المستقبل ملك الله يا إيبوندا.»

أدركتُ أن معلّمتنا تتعرّض للاختبار. رأيتُ اللون يفرّ من وجهها. قالت أمّي مرّة إن المعلّم الذي يفتح عيون التلاميذ على الحروف والأرقام ليفكّوا ألغاز القراءة والكتابة يُكافأ بعطاء جزيل إلى يوم موته. وافقتها، مع العلم أن ما تفعله معلّمتنا لم يقتصر على ذلك فقط، فهي أيضًا تفتح القلوب.

«لا خطط إيجابية لديك؛ أنت ما عدت تقرأ، وما عدت تنجز فروضك المنزلية. انتهى الوقت الذي تدير فيه ظهرك لآيات الله وتشغل نفسك بالعِرافة.» شعرتُ أن حديث بو مُس قد بدأ يماثل حديث مذيع أخبار الصباح في إذاعة صوت إندونيسيا.

«تدنّت علامات اختباراتك كثيرًا. لامتحان الربع الثالث على الأبواب. إذا جاء مجموع علاماتك سيئًا، ولم تنجح في رفع مستوى معدّلك فلن أسمح لك بالالتحاق بامتحان الربع النهائي. هذا يعني أنك لن تستطيع تقديم الامتحان الوطني لتترفّع صفًا.»

بدأ الأمر يأخذ منحى جديًا. غرق رأس مهار بين كتفيه أكثر فأكثر، واستمرّت العظة.

«عش وفقًا لتعاليم القرآن والحديث: هذا هو مبدأ المحمدية التوجيهي. إن شاء الله، لاحقًا عندما تكبر، سيباركك الله بالرزق الحلال ويهبك زوجة مخلصة.

«المذاهب الباطنية، وعلوم الخوارق والمعتقدات الخرافية كلّها من أشكال الوثنية. الإشراك بالله هو أخطر الانتهاكات في الإسلام. ماذا عن المآثر الحميدة التي نتعلّمها في درس العقيدة كلّ يوم ثلاثاء؟ ماذا عن بقية الدروس؟ ماذا تعلّمت عن الكفار في الأزمان الماضية؟ أين هي أخلاقك المحمدية؟»

شُحنت أجواء الصفّ بالتوتر. تمنّينا أن يطلب مهار السماح وأن يقول إنه قد تعلّم درسه.

لسوء الحظّ، واصل اعتراضه.

«إنني أبحث عن الحكمة في العالم المظلم يا إيبوندا. أنا متكدّر لأنني أريد أن أعرف. لاحقًا، بطريقة غامضة سيمنحني الله زوجة مخلصة.»

كيف يجرؤ! بذلت بو مُس جهدها لتحتوي مشاعرها. عرفتُ أنها أرادت أن تعنّف مهار. غدا وجهها الصبور محتقنًا. غادرت الصفّ لتهدئ نفسها قليلاً.

تفرّسنا كلّنا في مهار. انعقد حاجبا سهارى وغدت نظرتها وحشية. «اذهب واعتذر لها! إنك لا تعرف كم أنت محظوظ!» زمجرت.

أخذ كوتشاي دوره باعتباره عريف الصفّ. قال، «لا فرق مطلقًا بين مخالفة المعلّم ومخالفة الوالدين: العصيان! ألم تسمع أن عقاب العصيان هو الفتاق؟ ستصبح قاعدة فخذك بحجم قرعة!»

ارتسم على وجه مهار تعبير غريب. بدا في آن واحد نادمًا ومصمّمًا على عناده؛ على التمسّك بنسخته من المعاينة الفطرية للأمور. وفيما نحن نهمّ بمحاججته عادت بو مُس إلى الصفّ وفي جعبتها المزيد من الأخبار العاجلة.

«اسمعني جيدًا أيها الشابّ. ليس في الوثنية قطرة حكمة واحدة! الشيء الوحيد الذي تحصل عليه من المزاولات الباطنية هو الضياع، وكلما طالت مدّة التصاقك بتلك المعتقدات، زاد ضياعك في هاويتها التي لا قعر لها. والشيطان بنفسه سيعينك على تهوية كلّ جمرة ترميها في تلك النار!»

انكمش مهار، لكن الأمر لم يتوقّف عند هذا الحدّ بل تابعت بو مُس، «عليك الآن أن تصحّح مسارك.. لأن..» وقبل أن يتسنّى لها أن تنهي إنذارها النهائي، قوطعت بو مُس بشخص يلقي التحية: «السلام عليكم.»

توقّفت بو مُس عن إكمال جملتها، والتفتت بسرعة لتواجه مدخل الباب حيث وقف شخصان: رجل جليل الوجه وفتاة صبيانية الظهر. كانت الفتاة طويلة ونحيلة، قصيرة الشعر بيضاء وجميلة الوجه.

حاول الرجل صاحب الوجه الجليل أن يبتسم بمودّة. «هذه ابنتي فلو،» قال بتؤدة. «وهي ما عادت ترغب في ارتياد مدرسة الـــ پ ن، وقد مضى على غيابها عن المدرسة أسبوعان. إنها تصرّ على الالتحاق بهذه المدرسة.»

حكّ الرجل رأسه؛ بدا في حيرة عظيمة من أمره. دلّت طريقة كلامه على أنه بلغ حدود اليأس من محاولة التفاهم مع ابنته.

ابتسمت بو مُس بمرارة. إن الاختبارات تتوالى عليها بتعاقب لا نهائي. كانت مشوّشة من شدّة قلقها على پاك هرفان المريض، ومرهقة من تولّيها القتال في معاركنا وحدها. وكأن تهديدات السيد صمديكون، والجرّافات الحتمية، ومهار المنحرف عن المسار الصحيح، لم تكفها، لتأتي هذه البنت الآن، بهيئتها الصبيانية والتي لا ريب في أنها صعبة المراس. إن اليوم بلا شكّ هو يوم نَحْسٍ بو مُس.

فلو بنفسها وقفت لا مبالية؛ ولم تحاول حتى قسر ابتسامة. اكتفت بالتحديق في أبيها. بدت أنها تمتلك شخصية حازمة وأنها تعرف تمامًا ماذا تريد. ردّ أبوها على تحديقها بالمثل، نظرته مفعمة بالشعور بالهزيمة. أخذ يجوب في صفّنا ليتحرّى كلّ شيء. ربما ذكّره الصفّ بغرف الاستجواب اليابانية. قال أخيرًا مقرًّا بهزيمته وفي عينيه نظرة حزينة، «إنني أسلّمك ابنتي يا بو مُس. وإذا سبّبت لك المشاكل تعرفين أين أنا. ويؤسفني أن أقول هذا، ولكنها حتمًا ستسبّب لك المشاكل.»

ضحكنا. أما فلو فبقيت تتظاهر اللامبالاة، كما لو أن كلمات أبيها لم تحمل أي معنى. ابتسم أبوها ابتسامة ممتعضة وطلب الإذن بالانصراف.

«حسنًا، لا بأس، أهلاً بك في صفّنا. رجاءً اجلسي إلى جانب سهارى،» قالت بو مُس لفلو.

ابتهجت سهارى أيّما ابتهاج. مسحت المقعد الفارغ الذي إلى جانبها. لكن فلو نظرت ناحيتنا، وأشارت إلى ترابانى، ثم أعلنت، «لن أجلس إلا إلى جانب مهار.»

هذا لا يُصدّق! بعد دقائق لا تُذكر من وضعها قدمها في مدرسة المحمدية،

حفلت الجملة الأولى التي ينطقها فمها الصغير الثري بالتحدّي! لم يكن التحدّي حدثًا عاديًا هنا. فنحن درجنا على مخاطبة معلّمتنا ليس فقط بتعبير الاحترام المعتاد: غورو، ولكن بتعبير أعلى مستوى وهو إيبوندا غورو.

ازداد تعكّر بو مُس. كانت تفكّر بينها وبين نفسها بمهار وهذه التلميذة الصبيانية الجديدة وكيف أن أخلاقيات المحمدية في المدرسة قد تتحطّم على أيديهما، فما بالك إذا اتحدا؟ يا للحياة المُثقلة بالاختبارات.

بيّن وجه فلو بما لا يقبل النقاش أنها لن ترضى بالمساومة. اضطرّت بو مُس إلى اتخاذ قرار صعب. اشارت إلى تراپاني ليغادر مكانه. وأسرعت فلو لتجلس إلى جانب مهار. وعلى الفور أبدى مهار للعيان توقيعه الإيمائي الثلاثي المزعج: رفع حاجبيه وكتفيه وأومأ برأسه. كان ذاك مشهدًا مثيرًا لغيظنا، إلا أن ما حدث أبهجه. فكما توقّع، منحه الله بطريقة غامضة شريكة. صلاة استجيبت في الحال. وفي المقابل خسر تراپاني مقعده ورفيق مقعده. ولأنه لم يتوافر لدينا مقاعد أخرى، اضطر تراپاني إلى مجالسة سهارى المشهورة بمزاجيتها. وبالطبع أبدت سهارى امتعاضها رافضة مشاركته مقعدها، فهدرت وعقدت حاجبيها.

في الأيام الأولى، بهرتنا أدوات فلو المدرسية، لكنها كانت بالنسبة إليها عادية جدًا.

كانت لديها ست حقائب مختلفة تجاري أزياءها اليومية. أكثرها إثارة حقيبة يوم الجمعة، لأنها مزوّدة بالحواشي التي تتميّز بها الحقائب في الأفلام الهندية.

بدت فلو في صفّنا كما لو أنها ليست في مكانها الصحيح. لم نشعر أن أثاث الصفّ وتجهيزاته تليق بها. كانت مثل بجعة في عشّ بط. وكثيرًا ما انبرينا نتساءل، تُرى، ما الشيء الذي تبحث عنه هذه الفتاة الغنية في مدرستنا الفقيرة الخالية من الممتلكات؟ لماذا أرادت التخلّي عن مدرستها المبهرجة مقابل سقيفة لبّ جوز الهند المجفف؟ مِن باحة مَن سرقت تفاحة حتّى استحقت أن تطرد خارج فردوس المُلكية؟

ثمّ ظهر أنها لم تُطرد من مدرسة الـــ ب ن، ولم تُدحر من المُلكية. أرادت الانتقال إلى المحمدية بمحض إرادتها، بلا ضغط من أي أطراف أخرى، وهي بكامل صحتها الجسدية والروحية؛ رأسها فقط هي التي لم تكن بسلامتها الكاملة.

عندما سألناها لماذا رغبت في الانتقال، أجابت بصوت غني شبعان مع لثغة. جوابها جعل أبداننا تقشعرّ: «لأني أحببت رقصتكم في الكرنفال. كانت سحرية.»

ذلك الجواب حلّ رموز اللغز الذي من أجله أرادت الجلوس إلى جانب مهار. ووفقًا لحكمة مهار القائلة بأن القدر دوّار، وحّدت دائرة القدر في صفّنا بين اثنين من المتعصّبين للأشباح.

كان هذا غريبًا، لكن في مدرسة المحمدية القاحلة، اتقدت فلو كما لو أن شيئًا قد بعث فيها الروح. لم تتغيّب يومًا واحدًا عن المدرسة، وتصرّفت بخلق دمث مع معلّمتنا. وصلت دائمًا قبل الجميع، حتى قبل لينتانج. كنست المدرسة، ملأت دلاء الماء من بئر الأهوال، وروت الأزهار بحرص. كانت مدرسة المحمدية الفقيرة جسرًا إلى روحها.

وكانت فلو مقرّبة جدًا من مهار. من يراهما معًا يفترض أنهما مرتبطان. شابّ وسيم وفتاة جميلة صبيانية متلازمان دائمًا، وكلاهما مجنون. إلا أنهما في الواقع لم يرتبطا بذلك النوع من الارتباطات العاطفية. كانا مجنونين نعم، لكن ولعهما الفعلي انصبّ على عالم العِرافة المظلم.

أحرز مهار تقدّمًا كبيرًا في مجاله مع وجود فلو إلى جانبه. تعمّق افتتانه بالأساطير والعلاقات بين عوالم ما وراء الطبيعة وبين علوم الأجناس البشرية والقصص الشعبية وعلم الآثار، وطاقات الشفاء والعلوم القديمة والطقوس والمُعتقدات الملهمة. اعتبر نفسه تلميذًا مُجِدًّا في مجال الخوارق. أما فلو فكانت مغامِرة حقيقية. لم تهتمّ كثيرًا بالوقائع الباطنية، أو مظاهرها العلمية، إنما ركّزت جلّ اهتمامها على اختبار أكبر قدر من الأشياء المخيفة التي تعترض طريقها. لم تتعمّق فلو في اختبار التجارب الباطنية إلا لاختبار نفسها، لتكتشف مقدار الخوف الذي تستطيع تحمّله. أدمنت الارتعاد وهي تواجه عالم الأشباح الخطر. حتى مع مقارنتها بمهار يمكن القول إن فلو كانت مجنونة.

في مساء يوم باردٍ بعد هطول أمطار غزيرة، أدّت فلو قسم الانضمام إلى عضوية عساكر قوس قزح. تعهّدت بالمحافظة على أواصر صداقتنا بينما خطّط قوس قزح المنحني الأفق، وتردّدت أصداء الرعد في أنحاء بيليتونج الشرقية كافّة.

٢٩

الخطة ب

بفضل قرية إدنسور والقصّة في كتاب «لو أنهم ينطقون فقط»، تخطيتُ شعوري بالأسى على نفسي. وخلّفت ورائي ندوب رومانسيتي الأولى الجميلة.

هذا هو الشيء المدهش في الطفولة: القدرة على ترميم قلب مكسور بسرعة بعد سنوات من الحبّ، خمس سنوات على وجه الدقّة! آه، تبيّن لي أنني أحببت آلينغ منذ الصفّ الثاني. وقد كان حبًّا على الرغم من أننا لم نجتمع إلا مرّة واحدة فقط. ومع ذلك تعافيت بسرعة بالغة، بمساعدة كتاب. إنه شيء كالسحر. فالبالغون يحتاجون أحيانًا إلى سنوات ليرمّموا قلبًا مكسورًا. ترى، ما ذاك الشيء الذي يجعلنا نزداد سلبية مع التقدّم في العمر؟

ما فتئت أتذكّر آلينغ باعتبارها أجمل فصل في حياتي. وما زلت أنطلق مع شهدان في صباح الاثنين لنشتري الطباشير مع أن ما أصبح يستقبلني هناك كفّ دبّ ببراثن عقاب يلتهم جيفة. وحافظت على اجتهادي بمشاعر الحبّ نفسها والاندفاع ذاته.

وعندما لا أُشغل بشراء الطباشير أنكبّ على قراءة كتب علم النفس العملية التي تتحدّث عن التنمية الذاتية، وغدوت أكثر هوسًا بجملة «جون لينون» الملهمة.

اقترحت تلك الكتب أن أحدّد ماهية مواهبي، ولم يداخلني الشكّ بنوعيتها: كنت أمتلك انجذابًا فطريًا نحو الكتابة، وكنت لاعبًا ماهرًا في تنس الريشة.

فزت دائمًا بالمركز الأول في لعبة تنس الريشة في مقاطعتنا، حتى تكدّست

النصب التذكارية في بيتنا. بسبب عددها الكبير استعملت أمي بعضها كأثقال لتضغط أكوام الغسيل، أو لتثبّت الأبواب في مكانها، أو لدعم جدران حظيرة الدجاج. واستخدمت أحدها كمطرقة لفتح جوز الشمع. بل حتى كانت هناك كأس من مباراتي الأخيرة برأس مستدقّة استخدمها أبي ليحكّ بها ظهره.

هزمت دائمًا المنافسين في هذه اللعبة. ولطالما تمرّنوا لشهور وشهور، وأكلوا بيضًا نصف نيئ مع «الجدام» والعسل المزّ ليعزّزوا طاقاتهم، لكنهم وقفوا عاجزين أمامي.

أواجههم أحيانًا بردّ الضربة مع شقلبة مضاعفة، أو أردها لهم وأنا أتساير مع المتفرّجين، أو أقذف الريشة وأنا أتدحرج على الأرض. وغالبًا ما تلقّيت الضربات المباشرة من بين ساقي وظهري إلى منافسي، ولم يكن من النادر أن أفعل ذلك بيدي اليسرى!

عندما يرى المنافسون الضعفاء طريقة لعبي يصيبهم الذهول، وإذا بلغ بهم الشعور بالاستفزاز حدّ الاستشاطة غضبًا ضمنوا بذلك خسارتهم. عندما ألعب يهدأ السوق، وتُغلق أكشاك القهوة، ويُعفى الأطفال من المدرسة، ويغادر عمّال الـــ پ ن مبكرين، ويترك الموظفون الحكوميون دوائرهم لفترة؛ هذا إذا ذهبوا إلى العمل أصلاً. ويصطفّ ممثلو فئات المجتمع الذين لا عمل لديهم على طريق الملعب قبل المباراة.

«غزال الفأر صاحب الشعر المجعّد» هكذا كانوا يلقّبونني. وأثناء المباريات ترعد قاعة تنس الريشة المجاورة لمكتب إدارة القرية من شدّة الإثارة، والحضور الذين لا يعثرون على مكان في باحة الملعب يتسلّقون أشجار جوز الهند القريبة ليشاهدوني وأنا ألعب.

رأيت في هذه الوقائع سببًا أكثر من كافٍ لأعتبر تنس الريشة موهبتي الرئيسة، وفقًا لما تنصّ عليه كتب التنمية الذاتية.

أما اهتمامي العظيم الآخر فكان الكتابة. لم أملك برهانًا يؤكّد مهارتي في هذا الحقل أو يدحضها إلا تعليق آكيونج بأن رسائلي وقصائدي إلى آلينغ غالبًا ما

دغدغت مشاعره وجعلته يضحك. ولست واثقًا مما عناه هذا؛ فهو يحتمل وجهين إما أنها رائعة جدًا أو أنها سيئة جدًا.

لذا بدأت في وضع هذين الحقلين نصب عيني. تمرّنت على تنس الريشة يوميًا. إذا استُنزِفت طاقتي أتأمّل صورة «جون لينون» لفترة، بابتسامته الرقيقة ونظارته المستديرة، فأشتعل من جديد.

وكما يبيّن علماء التنمية الذاتية، على الفرد البنّاء أن يضع لنفسه خطّة أ وخطّة ب.

تعني الخطّة أ حشد جميع مصادرك لتطوّر مهاراتك الأساسية؛ وهي في حالتي تنس الريشة والكتابة. وهكذا غطّت هذه الخطة كلّ تفصيل ممكن، من الخطوة رقم واحد صعودًا إلى قمّة المجد. وكلّما قرأت هذه الخطّة جفاني النوم.

أسعدني كثيرًا امتلاكي لصيغة واضحة تحدّد خطّتي أ: أن أصبح لاعب تنس ريشة ذائع الصيت، أو كاتبًا مشهورًا، أو ربما الاثنين معًا. وإن لا، فأحدهما يكفي. وإذا لم أصبح لا هذا ولا ذاك، لا بأس بأي شيء، أي شيء على الإطلاق طالما أني لا أصبح عامل بريد.

عندما سبرتُ أغوار أعضاء لاسكار بِلانجي أدركت أنهم كلّهم لديهم خطّتهم أ الخاصّة والمميزة.

سهارى على سبيل المثال، أرادت أن تغدو ناشطة في حقوق المرأة. وهذا استلهمته من الظلم الكبير الذي يلحق بالمرأة كما تصوّره الأفلام الهندية.

وآكيونج أراد أن يصبح قبطان سفينة. قال إن السبب يعود إلى حبّه للسفر. إلا أنني ارتبت في صدق حجّته. لا بدّ أن تطلّعه ذاك يعود إلى كبر حجم قبعة القبطان. وقد شككت في أنه أراد أن يخفي قسمًا من رأسه الشبيهة بالصفيحة بالقبعة الكبيرة.

من اللحظة التي أدرك فيها كوتشاي أن لديه مميّزات السياسي: ماكر وشعبي ووقح مع فم كبير ورغبة في الجدال لا تقاوم، امتلك تطلّعًا واضحًا؛ أن يصبح

عضوًا في الجمعية التشريعية الإندونيسية.

وفجأة، وبلا سابق إنذار وبلا أي تردّد أو تحفّظ أعلن شهدان أنه يريد أن يصبح ممثلاً. لكن لم يبد عليه أنه يتمتع بأي موهبة في هذا المجال، بل ما استطاع يومًا أن يؤدي دورًا يتطلّب حفظ الكلام لأنه أخطأ في النصّ دائمًا. وهذا ما جعل مهار يعطيه أدوارًا بسيطة مثل تهوية الأميرة. وحتّى هذه الأدوار عجز في أغلب الأحيان عن تأديتها كما ينبغي.

«الأماني تُجاب بالصلوات يا شهدان،» نصحته سهارى. «إذا استجاب الله لصلاتك، أيمكنك أن تتخيّل ما قد يحلّ بصناعة السينما الإندونيسية؟»

أما بالنسبة إلى مهار، فقد صَبا إلى أن يكون وسيطًا روحيًا معروفًا ومحترمًا حتى من أولئك الذين ليسوا على وفاق معه.

كانت تطلّعات شمشون الأبسط وذلك بسبب نظرته التشاؤمية. ولم يرد إلا أن يصبح مدقّق تذاكر في قاعة سينما القرية لولعه الشديد بمشاهدة الأفلام. ووظيفة التدقيق الأمني تلك تجسّد إلى درجة كبيرة صورة رجل مفتول العضلات. وتراپاني الطيب والوسيم أراد أن يصبح معلّمًا. وهارون، هارون كالمعتاد، أراد أن يصبح تراپاني.

كان كلّ ذلك بسبب لينتانج. لولا وجود لينتانج بين ظهرانينا لما واتتنا الجرأة لنحلم. الشيء الوحيد الذي كان راسخًا في رؤوسنا، وفي رأس كلّ صبي في بيليتونج هو أننا بعد المدرسة الابتدائية أو ربما بعد الإعدادية، سننتهي إلى تقديم طلبات الالتحاق بالعمل مستخدَمين في شركة الـــ پ ن، أي ما نحن إلا مستخدَمين مستقبليين، نقضي حياتنا عمّال مناجم، ونتقاعد عمّالاً. هذا ما رأيناه يحدث لآبائنا، ولآبائهم قبلهم، جيلاً بعد جيل.

لكن لينتانج منحنا الثقة بفضل قدراته الاستثنائية. فتح عيوننا على احتمال أن ما يمكن أن نصبح عليه قد يفوق ما نحلم به. منحنا الشجاعة على الرغم من كلّ ما فينا من قصور.

لينتانج نفسه طمح إلى أن يصبح عالم رياضيات. وإذا حقّق تطلّعاته فسيغدو

عالم الرياضيات الملايوي الأول. رائع! لطالما تأثّرت كلّما فكّرت بهذا. وقعتُ بصمتٍ في حبّ خطة لينتانج. وصلّيت كثيرًا ليحقّق حلمه. لنفترض، لنفترض فقط أن الله طلب من أحدهم، ذكرًا أو أنثى، أن يضحّي بحلمه أو بحلمها ليتسنّى لليبنتانج أن يحقّق حلمه، أنا كنت على استعداد لأن أضحّي بحلمي من أجل لينتانج.

كان لينتانج غارقًا في تحضير نفسه لمباراة التحدّي الأكاديمي. ما انفكّ إشراق ملكاته يزداد يومًا بعد يوم. بيد أننا كثيرًا ما تساءلنا ما إذا كان يمتلك القدرة للتفوّق على ذكاء تلاميذ الـــ پ ن مع سمعتهم العالية في المباريات الأكاديمية على المستوى الوطني؟ وما إذا كان حقًا العبقري الذي اعتبرناه كذلك طوال هذا الوقت؟ خشينا تارة من ألا يكون إعجابنا به إلا وهمًا قصير النظر. وحدانا الأمل تارة بأنه ليس بطل حظيرتنا الضيّقة فحسب، ولا السمكة الكبيرة في بركتنا الصغيرة فقط.

توصّلت في قراءاتي إلى أن الفرد الإيجابي يحتاج أيضًا إلى خطّة دعم بديلة تحمل اسمًا ملائمًا يصعب كثيرًا قوله: خطّة طوارئ.

هذه الخطّة البديلة تدعى الخطة ب.

الخطّة ب هي الخطّة التي يُعمل بها عندما تفشل الخطّة أ. والإجراء بسيط: إذا فشلتَ، اقذف الخطّة أ بعيدًا وابحث عن موهبة جديدة. وبعد أن تعثر عليها، اتّبع الإجراءات نفسها التي اتبعتها في الخطة أ. كانت وصفة حياة رائعة بلا شكّ، نتاج أعمال الخبراء النفسيين المتآمرين مع محترفي الموارد البشرية وناشري الكتب طبعًا.

تحدّدت مشكلتي في أنني إلى جانب تنس الريشة لم أتمتع بأي موهبة أخرى. في الحقيقة، كانت لدي موهبة، موهبة لا يمكن أن أتحمّل مسؤوليتها: القدرة على التخيّل. وقد كنت نوعًا ما أخجل من الاعتراف بها.

يكمن جمال خطّتي ب في أنها لم تتطلّب منّي الاستغناء عن الخطة أ بالكامل. ولعلّ الخبراء أنفسهم لم يصل بهم التفكير البنّاء إلى هذا المستوى. الفحوى من كلامي: إذا فشلت في حقل تنس الريشة ولم أنجح في مجال الكتابة؛ إذا باع

الناشرون كتاباتي على أنها نفايات ورقية، حينها أنتقل إلى الخطّة ب: تأليف كتاب عن لعبة تنس الريشة!

لم يكن قد حدث شيء من هذا بعد، بيد أنني لم أكفّ عن الانجرار إلى تخيّل المصادقات على كتابي. الغلاف الخلفي يُمهر بمديح فائز سابق بكأس توماس: «لم يظهر من قبل كتاب عن الرياضة مثل هذا الكتاب. الكاتب يفهم حقًا معنى الجسم السليم في العقل السليم.»

اختصاصيُّ علاقاتٍ حميمة مشهورٌ من جاكرتا يكتب: «كلّ من يعانون من البدانة الزائدة عليهم قراءة هذا الكتاب في غرف النوم.»

وزير إندونيسيا في وزارة الشباب والرياضة لن يتوانى عن وضع هذا التعليق: «كتاب منعش!»

وزير التربية الإندونيسي يدلي باعتراف: «لم أقرأ أي كتاب منذ زمن طويل. ثم صدر هذا الكتاب، وها أنا أعود إلى القراءة أخيرًا!»

لاعبة جميلة سابقة فازت بكأس «أوبر» تقرّ: «قراءة هذا الكتاب جعلتني أرغب في معانقة الكاتب!»

٣٠

وعده الثاني

ها نحن هناك، في قاعة بيضاوية صاخبة في مبنى فني الزخرفة. كنّا قد حُشرنا في الزاوية أنا وسهارى ولينتانج. ومرّة أخرى عرفنا أن سمعتنا على المحكّ.

إنها مباراة التحدّي الأكاديمي. جئنا ومعنوياتنا في الحضيض، وزادت بلبلتنا بعدما رأينا تلاميذ المدرسة الحكومية وتلاميذ مدرسة الـــ پ ن يحملون كتبًا لم تقع عليها عيوننا من قبل قطّ. أغلفة تلك الكتب سميكة ولامعة، ولا بدّ أنها غالية الثمن.

أدركنا أن المجازفة الحالية أعتى بكثير من تلك التي خضناها في الكرنفال. التحدّي الأكاديمي هو حلبة مفتوحة للبرهنة على الذكاء، وإذا لم يحالف المرء الحظّ فللبرهنة على مقدارٍ من الغباء يفوق التصوّر. أخضعتنا بو مُس لاختبارات مجهدة. داعبتها آمال كبيرة بخصوص هذه المباراة، أكبر حتّى من آمالها بيوم الكرنفال. حضّرت مجموعة من الأمثلة عن المعضلات الصعبة، وأرهقت نفسها في تدريبنا من الصباح إلى المساء. بالنسبة إليها، نجاحنا في المباراة هو الطريقة المثلى لإقناع السيد صمديكون بألا يصدر حكمه على مدرستنا.

لسوء الحظّ، بقدر ما جاهدت بو مُس لتشدّ من عزيمتنا وتنصحنا وتحرّضنا وتقنعنا بقدراتنا بقي الخوف رديفنا. والكتب السميكة ذات الأغلفة اللامعة في أيدي تلاميذ مدرسة الـــ پ ن جعلت أسابيع الاجتهاد والاستظهار تتلاشى في غمضة عين.

حاولت تخيّل نفسي أنني مسترسل في حالة تأمّل وأنا على مرج أخضر في ألطف مكان في خيالي: إدنسور. ولم يأت هذا بنتيجة على الرغم من أنه لطالما أفرخ روعي في ما مضى.

انكمشنا خلف منضدة من خشب الماهوغوني، باردة وجميلة وضخمة. وعجّت القاعة بالمؤيّدين من مختلف المدارس.

كان أبرز المؤيّدين أولئك الذين يدعمون مدرسة الـ پ ن. حضروا بالمئات ولبسوا كلهم قمصانًا خاصّة، على ظهورها كتابة مبهرجة: «جئتُ، رأيتُ، غزوتُ». وهي وحدها كافية لتقهر أرواح المنافسين.

كان فريق مدرسة الـ پ ن المشارك في مباراة التحدّي الأكاديمي أفضل الجميع، بل أفضل الأفضل. وقع الاختيار على أعضائه وفقًا لمعايير عالية جدًا. هذه السنة، استعدّوا كثيرًا وبمنهجية علمية رفيعة المستوى بفضل معلّم شاب مشهور بألمعيته الفذّة. أعدّ لهم ذلك المعلّم تصميمًا حاكى به جوّ المباراة مع أجراس وهيئة تحكيم وساعة توقيت وأسئلة محتملة مختلفة. كان مختصًا بتعليم الفيزياء، واسمه الأستاذ ذو الفقار. نال لقب الأستاذ لحمله شهادة البكالوريوس.

تولّى مهار وفلو قيادة أنصارنا. لم يكن عددهم كبيرًا إلا أنهم جاءوا باندفاع كبير. أحضروا معهم علمين من أعلام المحمدية وأشياء أخرى متنوّعة يحملها عادة مشجعو كرة القدم. اعتبر طلاب الـ پ ن فلو خائنة ونظروا إليها شزرًا. على أي حال، مثل لينتانج، لم تكترث فلو بأي من ذلك. ولم تتردّد لحظة واحدة في الدفاع عن مدرستها على الرغم من أن الجميع بدا شبه واثق من أن مدرسة الـ پ ن ستُلحق العار بفريقنا.

كان ترapاني وأمه من بين الحضور، جلسا متجاورين ومتشابكي الأيدي. لم تكفّ بنات المدارس عن استراق النظر إلى ترapاني وهنّ يتهامسن ويضحكن. ترapاني الذي كلّما تقدّم في السنّ ازداد وسامة. كان طويل القامة ونحيلاً، ببشرة بيضاء نقية وشعر أسود غزير. عيناه تشبهان الجوز الفجّ: هادئتان ووديعتان وعميقتان.

اختير تراپاني ليكون ضمن فريقنا المتباري، لأن مجموع معدّله العام أعلى من مجموع معدّل سهارى، ما عدا مادّة الجغرافيا. وتركيب فريقنا جاء كالتالي: الرياضيات والعلوم الطبيعية واللغة الإنجليزية كلّها من اختصاص لينتانج؛ أما أنا فكنت بارعًا في التربية الوطنية وتاريخ الإسلام والفقه وإلى حدّ ما اللغة الإندونيسية. تجلّت نقطة ضعفنا في الجغرافيا، وسهارى هي الخبيرة في هذا المجال، وهكذا، من أجل مصلحة الفريق، تنازل تراپاني عن طيب خاطر لسهارى لتحلّ محلّه. كان شابًا وسيمًا وطيّب القلب.

قدّرت بو مُس تضحية تراپاني وسمحت له أن يعلّق في الصفّ الصورة التي يختار. فاستفاد من هذه البادرة اللطيفة وعلّق صورة زفاف والديه في شبابهما الملتقطة في «صالون سيروني» في مانجار. صورة أنيقة بالأبيض والأسود.

على نحو مماثل، وربّما لمؤازرة تراپاني، أحضر لينتانج معه صورة لأمّه وأبيه بعد زواجهما بفترة قصيرة. في الصورة حُشر العريسان بين دورقين كبيرين فيهما أزهار اصطناعية، ووراءهما خلفية ورقية تظهِر سيارة متوقّفة عند مرج فسيح ومحاطة بعائلة تشعّ سعادة. ولعل المراد من هذا أن تبدو الصورة في مكان ما في أوروبا.

«تجلّد يا إكال،» قال لي تراپاني.

فتح لينتانج خُرج الخيزران وتأمّل صورة والديه في أول عهدهما بالزواج ثم أرجعها إلى الحقيبة، وعاد إلى ما كان عليه من سكون.

لم أستطع التوقّف عن تهوية نفسي، لا لأني شعرت بحرارة خانقة، ولكن لأن قلبي لهج خوفًا. لم يسبق قطّ لأي مدرسة قرية أن فازت بهذه المباراة، ومجرّد تلقينا الدعوة للمشاركة اعتبرناه شرفًا كبيرًا.

لزم لينتانج الصمت منذ الفجر عندما ركبنا شاحنة مفتوحة المؤخّرة بعد الصلاة لتنقلنا إلى عاصمة المقاطعة. جاء معنا أبوه وأمّه وأخواته الصغيرات. كانت هذه زيارتهم الأولى إلى تانجونغ باندان، بمن فيهم لينتانج.

جلست سهارى بيني وبين لينتانج. انحنى لينتانج في جلسته إلى الأمام بهمّة

فاترة. شعر بدُنوّ منزلته، وبعزيمة مثبطة وبالحياء في بيئة غريبة عنه تمامًا. بدا منهكًا مثل شخص يحمل كامل عبء الدفاع عن سُمعتنا. من حين لآخر ألقى نظرة على أمّه وأبيه وأخواته الصغيرات بثيابهم الفقيرة وقد تكوّموا معًا في الزاوية يلوح عليهم الارتباك في ذلك الجوّ الصاخب.

«فلتذهب الثقة بالنفس إلى الجحيم! ما يهمّ هو أن نسمع الأسئلة بعناية، وأن نقرع الجرس بسرعة، ونجيب إجابة صحيحة!» قلت لأشجع لينتانج وسهارى. لم يبد عليهما أنهما اكترثا.

تراءى لي أنه ما عاد يمكن الاعتماد على لينتانج وسهارى. رأيت أيدي المتسابقين الآخرين تبدأ باختبار أزرار الأجراس أمامهم. سهارى التي أوكلنا إليها مهمّة ضغط الزر، والتي دُرِّبت تدريبًا خاصًا على ذلك، عجزت حتى عن أن تُدني إصبعها من الأداة المستديرة. أمسك بخناقها رُهاب المسرح وشلّها. أفزعتنا أصوات الأزرار الصاخبة ومكبّرات الصوت التي لم نختبرها على الإطلاق. خسرنا المعركة حتى قبل أن تبدأ. لاحظ مؤيّدو المحمدية ما نحن فيه من فزع وهذا أصابهم باضطراب بالغ.

نهض رئيس لجنة التحكيم من على كرسيه، قدّم نفسه وأعلن بداية المباراة. تسارع قلبي، غدت سهارى شاحبة كالأموات، ولم يتخلّ لينتانج عن صمته.

لم أمتلك أي شجاعة لأواجه الجمهور. وبو مُس وپاك هرفان لم يمتلكا الشجاعة الكافية لينظرا إلينا. جلس پاك هرفان بظهرٍ محدودب، ربما لأن آماله الكبيرة المعلّقة على أدائنا خابت وهو يرى مدى تدهور معنوياتنا. وتشاغلت بو مُس في التحديق بالمصباح الكبير الذي يتوسّط القاعة والذي بدا مثل ملك أخطبوطي. كانت هذه المنافسة أهمّ حدث في مسار مهنتهما التعليمية. حدث فردي واحد يبيّن بالدليل كلّ ما لا بدّ أن يثبتاه للسيد صمديكون، حدث يضع سمعتهما في مجال التعليم على المحكّ.

بعد فترة وجيزة طلبت امرأة من الحضور أن يلتزموا الهدوء حتى تبدأ في

طرح الأسئلة. ها قد جاءت لحظة الحقيقة. استعدّ المتسابقون لسماع وابل الأسئلة ولمهاجمة الأزرار بهمم عالية. كان الوضع محطّمًا للأعصاب.

تردّد وجيب السؤال الأوّل في كلّ أنحاء القاعة.

«هي فرنسية بين الأسطورة والحقيقة... «

رنّ! رنّ! رنّ!

ضغط أحدهم الزرّ والسؤال لم يصل إلى نهايته بعد. بُغِت مَن يعنيهم الأمر. هاجمت الزرّ الذي أمامنا ذراع خشنة وفعلت ذلك بسرعة خاطفة، وهي ليست إلا ذراع لينتانج!

«فريق ف!» هتفت المرأة التي تطرح الأسئلة.

«جان دارك، وادي لوار، فرنسا!» قال لينتانج من غير أن يطرف له جفن، بلا تردّد، وبلهجة فرنسية مع خنّة مذهلة.

«مئة نقطة!» صاح رجل يجلس إلى طاولة لجنة التحكيم وقوبل بتصفيق مدوٍ من مؤيدي المحمدية. وتابعت المرأة.

«السؤال الثاني: استخدم متحولاً لحساب المساحة المحدّدة بالمعاملَيْن س و ع، حيث ع تساوي ٢ ناقص س، وس تساوي خمسة.»

بلا تلكؤ، انقضّ لينتانج على الزرّ وصاح، «حدّا المتحوّل هما خمسة وصفر، و٢ ناقص س ناقص ضرب دلتا ي يساوي ١٢ فاصلة خمسة.»

مدهش! من غير أن يساوره أي شكّ، بلا كتابة ملاحظة واحدة، وبدون أن ترفّ عينه.

«مئة!» صاح الرجل مرّة أخرى.

صفّق مؤيدو المحمدية وهدروا.

«السؤال الثالث: احسب مساحة حدود التكامل لثلاثة وصفر ومعادلته ستة زائد، س ناقص، س مربّع.»

أغمض لينتانج عينيه للحظة، كما يفعل في أغلب الأحيان عندما تطرح بو مُس

الأسئلة في الصفّ. بعد أقل من سبع ثوان وَلْوَل، «ثلاثة عشر فاصلة خمسة!»

«مئة!»

فورًا بلا تأخّر ولا تباطؤ.

أدهش لينتانج الحاضرين. وأصيب المتسابقون الآخرون بالذهول. تقدّمت بو مُس إلى الأمام. انفرجت أساريرها، ووقفت تتمتم، «سبحان الله، سبحان الله، الله أكبر...»

جلس والدا لينتانج يراقبان ما يجري باهتمام بالغ بينما كان ابنهما يكتسح ساحة أسئلة علم الطبيعة والرياضيات. وتولّى منافسونا الردّ على بعض أسئلة الفئات الأخرى، خصوصًا فريق مدرسة الـ پ ن. مع ذلك عندما انتهت الدورة الأولى كان تقدّمنا مؤكّدًا.

بدأ المنافسون يحرزون تقدمًا تدرّجيًا في الدورة الثانية. وساء وضعنا عندما أخطأت أنا وسهارى في بعض الأجوبة. وهذا كلّفنا نقاطًا. في الدورة الثالثة، نجح متسابقو الـ پ ن النجباء مثل لينتانج في أن يصلوا بنتائجهم إلى نتائجنا، بل تجاوزونا مرّات عدّة.

كلّما أجاب عضو في فريق الـ پ ن إجابة صحيحة هتف مئات المؤيدين بأصوات عالية. وفعل أنصارنا الشيء نفسه معنا. أما أسعد الجميع فكان هارون الذي استمتع أيّما استمتاع بالاحتفال. رأيته يصفّق بلا توقّف ويصيح بكلمات تشجيع، إلا أنه لم يفعل ذلك وهو ينظر ناحيتنا، بل عبر النافذة. وتبيّن لي أنه كان يشجع مجموعة بنات يلعبن الكرة في الباحة.

وقفنا أخيرًا على أعتاب الدورة النهائية. واصل فريقنا وفريق الـ پ ن تبادل الأدوار. كانت نقاطنا أدنى منهم، إلا أن الفرق لم يتجاوز المئة. وصلت المنافسة إلى نقطة حرجة: جواب صحيح يحدّد الفائز، وجواب غير صحيح يحمل معه نتائج مصيرية.

واتتنا الفرصة لنتعادل، ثم طرحت المرأة سؤالاً: «بلينج شات تاي هو...»

بثقة مطلقة ضغطْتُ زرّ الجرس وصحت، «النشيد الوطني الصيني!»

وقد كنت مخطئًا.

«ناقص مئة!»

شتمني الجميع. أي حماقة هذه. كان واضحًا أن الجواب هو تايلندة من السؤال نفسه. لكن بسبب آلينغ، جعلتني أي عبارة تتألّف من ثلاث كلمات أفكّر في الصين، تمامًا كما يجعلني اسم جو جيان لينغ أتذكّر الصين.

أوقعنا غبائي في مطبّ خطير. أصبحنا بحاجة إلى مئتي نقطة. تراقصت الهزيمة أمام عيوننا. كان هذا محزنًا حقًا. تقصيري أنا وسهارى سيحجب نور عظمة لينتانج، خصوصًا تقصيري أنا. لم أفلح أنا وسهارى في الوصول بأدائنا في مجالات خبرتنا إلى مستوى توقّعات بو مُس. وخزني الشعور بالذنب. وغضبت مني سهارى غضبًا شديدًا. همست بانفعال في أذني، «بوي اسمع، إيّاك أن تتدخّل عندما يتعلّق السؤال بالجغرافيا. أغلق فمك وراقب نفسك!»

كانت سهارى صريحة وصادقة.

«إذا ضاعت الأمانة فانتظروا الساعة، وضياع الأمانة أن يوكل الأمر إلى غير أهله!»

مدهش! حتى في هذا الوضع الحرج ونحن نكاد نخسر، ما زالت سهارى تستطيع أن تقتبس من الحديث الشّريف، وما زالت متحفّزة للعراك؛ هذه هوايتها حقًا. ما ألمحت إليه عنى أنها هي الخبيرة بالجغرافيا، وأي سؤال له علاقة بسكّان أي بلد، والمنتجات الزراعية، والأناشيد الوطنية، لا ينبغي لأحد غيرها أن يجيب عليه. على أي حال لم تكتف بأن يمرّ تعنيفها لي على هذا النحو، إذ بينما هي تتلقّف السؤال التالي سدّدت لأضلاعي ضربة محكمة بمرفقها.

«ما النشيد الوطني لبروناي دار السلام؟»

رنّ!

«فريق ف!»

«الله بلي حركان سلطان!»

«مئة!»

بقينا مع ذلك واقفين على أرض مهزوزة، تنقصنا مئة نقطة.

كان السؤال الثاني قبل الأخير عن رجل يُدعى إيرنست روثرفورد.

«ماذا قدّم هذا الرجل المولود في نيوزيلندة إلى العلم؟»

«كان رائدًا في فصل النواة إلى جزيئات أصغر،» أجاب لينتانج بهدوء.

«مئة! «

انفجر أنصارنا مهلّلين بعد تعادلنا مع المنافسين: مئة وثمانية عشر إلى مئة وثمانية عشر. بقي هناك سؤال واحد فقط. غادر الجميع مقاعدهم وتزاحموا وهم يندفعون إلى الأمام. هدأ پاك هرفان وبو مُس كما لو أنهما استغرقا في الدعاء. حتى المرأة التي تطرح الأسئلة توتّرت. «استمعوا جيدًا. هذا هو السؤال الأخير،» قالت بصوت متوتر. «بدأ اختراق علمي يخصّ مفاهيم اللون بحثًا عميقًا في حقل البصريات. في ذلك الوقت، اعتقد كثير من العلماء أن مزج الضوء بالظلام ينتج اللون، رأي ظهر لاحقًا أنه خطأ. وإثبات هذا الخطأ جاء عن طريق انعكاس الضوء على العدسات المقعّرة...»

رنّ! رنّ! رنّ! عوى لينتانج، «حلقات نيوتن!»

أسفر وجه المرأة التي تطرح الأسئلة عن ابتسامة عريضة. كانت تساندنا بصمت. والرجل الذي أعلن عن حصولنا على مئة نقطة ابتسم أيضًا. وجأر، «مئة نقطة!»

هدر أنصارنا وطاروا فرحًا. ربحنا! لم أصدّق هذا؛ مدرسة القرية المتواضعة ربحت! عانقتُ لينتانج. رمى ذراعيه عاليًا في الهواء. قفزنا وقفزنا، لكن فرحنا لم يدم طويلاً. ففي ذروة ابتهاجنا، سمعنا أحدهم يصيح من مقعد في الخلف: «فضيلتكم، فضيلتكم! سيادة رئيس اللجنة! أعتقد أن السؤال والجواب قد جانبا الصواب.»

ران الصمت على الجميع وتوجهت الأنظار إلى مؤخّرة القاعة. كان ذاك الأستاذ ذو الفقار، أستاذ الفيزياء النموذجية في مدرسة الـــ پ ن. أوه لا! هذا قد يعني المشاكل. بقي لينتانج هادئًا. عندما جاء الأستاذ إلى المقدّمة، وقف بعنجهية، وضع يديه على وركيه، وبدأ يتكلّم بأسلوب أكاديمي.

«لا علاقة لتجربة العدسات المقعّرة بنقد نظرية اللون المذكورة والتي تخصّ الضوء والظلمة. الاستنتاج المتعلّق بإنتاج اللون ليس مسألة بصرية، هذا إلا إذا شاءت لجنة التحكيم أن تختلف مع ديكارت. البصريات وأطياف اللون هما أمران مختلفان عن بعضهما كلّ الاختلاف. في هذه الحالة الغامضة تواجهنا ثلاثة احتمالات: السؤال الخطأ، أو الجواب الخطأ، أو أن السؤال عار عن الصحة وكذلك الجواب، وهذا كله ليس سياقيًا!»

أوه يا ربّي! ما قاله فاق مستوى استيعابي. وكان ذكيًا جدًا في بلبلة لجنة التحكيم باقتباسه رأي ديكارت. ومن لديه الجرأة الكافية ليختلف في الرأي مع ضليع بالعلم؟ تعلّقت آمالي كلّها بلينتانج وما يمتلكه من حجّة دامغة.

نظرت إلى سهارى. فخبأت وجهها، كما لو أنها لم تقابلني أو تقابل لينتانج في حياتها. أربك هذا الاعتراض الذكي في ظاهره هيئة التحكيم والحضور. وبدا أن الردّ أمر مستبعد بما أن أغلبنا لا يعرف عما يتحدّث الأستاذ. لكن، كان على شخص ما أن ينقذنا من هذا المأزق. وقف رئيس لجنة التحكيم. حافظ لينتانج على هدوئه وابتسم قليلاً؛ كان مسترخيًا جدًا.

«أشكرك على اعتراضك الوجيه،» قال الرئيس. «ما عساي أقول، مجالي هو المبادئ الأخلاقية...»

شعر الأستاذ ذو الفقار أنه قد انتصر ففهمهَم بسخرية. لم يستطع مقاومة إغراء الإمعان في الحطّ من شأننا. وهكذا صعّد لهجته من الغطرسة إلى الوقاحة الجارحة.

«ربما يتفضّل تلاميذ المحمدية هؤلاء أو لجنة التحكيم ويشرحوا لنا نظرية ديكارت المتعلّقة بظاهرة اللون؟»

ما آذانا أكثر من أي شيء آخر هو طريقته في قول المحمدية، مشدّدًا على الكلمة ليذكّر الجميع بأننا مجرّد مدرسة قرية تافهة.

أنا لم أفهم جيدًا النظريات البصرية، لكنّي كنت مطّلعًا قليلاً على تاريخ اكتشاف اللون. عرفت أن ديكارت عمل بالموشورات والأوراق لاختبار اللون، وليس

للتعامل مع البصريات. نيوتن هو من كان الرائد العظيم في مجال البصريات. من الواضح أن الأستاذ ذو الفقار كان متشدقًا حاذقًا. وهذه مشكلة كلاسيكية في إندونيسيا: يلجأ الأذكياء إلى المناورة في كلامهم ويستخدمون مصطلحات ضئيلة القيمة علميًا ونظريات عالية المستوى، لا من أجل مصلحة التقدّم العلمي وإنما لخداع البسطاء الذين يلتزمون الصمت ولا يجدون الكلمات المناسبة للنقاش.

أمعنت النظر في لينتانج مستجديًا مؤازرته إذا حدث ونلت الأستاذ ذو الفقار بالسوء لاحقًا. احتجت دعمه حقًا. ولكن، ماذا لو ظهر أني أنا المخطئ؟ واجهني لينتانج بابتسامة صغيرة لمّا لاحظ انفعالي. كانت ابتسامة مسالمة. عرفت، أنه كالعادة قرأ ما يعتمل في رأسي. أجاب نظرتي بنظرة وادعة قالت: صبرًا يا أخي الصغير صبرًا، سيهتم أخوك الأكبر بهذا. وفي حين انكمشت أنا وسهارى في مقعدينا بقي لينتانج محافظًا على هدوئه.

زفر رئيس لجنة التحكيم بعمق. نظر إلى زملائه من أعضاء اللجنة. هزّوا رؤوسهم كلّهم في إشارة منهم إلى أنهم لا طاقة لهم بمقارعة الأستاذ ذو الفقار.

«معذرة أيها الأستاذ الشابّ. نيابة عن لجنة التحكيم ينبغي أن أقول إننا نعاني نقص المعرفة في هذا المجال.»

كانت كلمات الشيخ المسكين متواضعة. كان معلمًا كبير السنّ طيب القلب، حظي بالاحترام لعطائه في مجال التدريس في بيليتونج على مدى عشرات السنين. بدا محرجًا ويائسًا. وجّه نظرته نحو الفريق ف، فريقنا. ابتسم لينتانج وبادره بإيماءة رأس طفيفة. فإذا برئيس اللجنة يقول على نحو مفاجئ، «لكن، لعلّ تلميذ المحمدية هذا قادر على المساعدة.»

غرقت القاعة في صمت مطبق، وتسربلت بجوّ من القلق. تفاقم الوضع سوءًا بعد أن شحن الأستاذ ذو الفقار الهواء المتثاقل بتعليق فظّ آخر.

«آمل أن تكون حجّته بدقّة جوابه السابق!»

لقد تجاوز حدوده كثيرًا! وبدا أنه تعمّد استفزاز لينتانج عن سابق إصرار وتصميم، وهذه المرّة علق لينتانج بالفخّ. فوقف ليدلي بما لديه.

«يا أستاذ، إذا كان اعتراضك يتعلّق بأن الجواب غير متوافق مع السؤال، فربّما اعتراضك مقبول. لكن لجنة التحكيم طرحت سؤالاً، والجواب مكتوب مسبقًا في الورقة التي تقرأ منها السيدة الأسئلة. وأنا متأكّد من أن حلقات نيوتن هو الجواب المكتوب هناك، وجوابنا كان حلقات نيوتن. هذا يعني أن الحصول على مئة نقطة من حقّنا. حتى وإن لم يكن ذلك سياقيًا كما ذكرتَ، فهذا يعني أن اللجنة طرحت السؤال الصحيح بطريقة غير صحيحة.»

لم يُبْدِ الأستاذ ذو الفقار استعدادًا للموافقة أو القبول. «بمعنى آخر، لم يكن السؤال صحيحًا لأن المتسابقين الآخرين توقّعوا جوابًا مختلفًا!»

وهنا ردّ لينتانج بالبيّنة والحجّة. «لا شيء غير صحيح إلا بالنسبة إليك يا أستاذ، بتجاهلك جوهر نظرية حلقات نيوتن ورغبتك في تخفيض نقاطنا من أجل توافه.»

شعر الأستاذ ذو الفقار بالإهانة. اعتراه الغضب. وشُحن الجو بمزيد من التوتر. اندفع إلى الأمام. «حسنًا، إذا كان الأمر هكذا، يمكنك إذًا أن تشرح لي جوهر تلك النظرية! أنتم لم تحصلوا على نقاطكم إلا بتخمينات حالفها الحظّ من غير أن تفقهوا شيئًا في الواقع!»

أوه يا ربّي! كان ذاك في منتهى الفظاظة. عبست سهارى، وبعد انجرافها بعيدًا عن الأجواء، عادت كلبؤة مقطّبة وعابسة. ذهل الجمهور ولجنة التحكيم وفغروا أفواههم دهشة.

حدّق لينتانج في أمّه المرتبكة في الزاوية. انتفخت أوداجه، صعد صدره وهبط. بدا كما لو أنه ينوء بحمل ثقيل. فهمت فورًا سبب ردّ فعله. قضيّة حلقات نيوتن ذكّرته حتمًا باليوم الذي اضطرّ فيه إلى بيع خاتم زواج أمه حتّى يتسنّى له الاستمرار في الذهاب إلى المدرسة. بدا غضبه واضحًا. هذه المسألة مع الأستاذ ذو الفقار أصبحت مسألة شخصية، وعلى هذا النحو يجنّ العباقرة.

«الجوهر هو أن نيوتن نجح بما لا يقبل الشكّ في تحديد الأخطاء في نظريات ألوان ديكارت وأرسطو، بل حتى الأكثر معاصرة روبرت هوك! اعتقد أولئك الأشخاص الثلاثة بأنّ اللون له أطياف منفصلة. ثم، من خلال العدسات البصرية المقعّرة، التي ولّدت نظرية الحلقات لاحقًا، أثبت نيوتن أنّ الألوان تمتدّ على طول

طيف مستمرّ، وذاك الطيف لا ينتج بالخصائص الزجاجية لكن بخصائص الضوء الأساسية!»

صعق الأستاذ ذو الفقار. ضاع الحضور في مجاهل نظرية الفيزياء البصرية، وعجزوا حتّى عن الموافقة ولو بإيماءة بسيطة. أما أنا فغمرتني البهجة. أثبت حدسي صدقه! أردت أن أقفز من على مقعدي، أن أقف على منضدة الماهوغاني أمامي، وأزعق: أتعرفون أنتم كلّكم شيئًا؟ هذا لينتانج ساموديرا باسارا، ابن شهباني مولانا باسارا، ولد رائع ورفيق مقعدي! فتحمّلوا هذه الصفعة!

لم يشفَ غليل لينتانج بعد.

«قال نيوتن، إلا إذا أردت أن تشكّك يا أستاذ ببرهان عمره خمسمئة سنة، إن كثافة الجزيئات الشفّافة تحدّد الجزيء الذي تعكسه. تلك هي العلاقة بين سمك طبقة الهواء والبصريات طبقًا لنظرية حلقات اللون. وكل هذا لا يمكن ملاحظته إلا من خلال البصريات. فكيف تقول يا أستاذ، إن تلك الأمور ليست مترابطة؟»

غاص الأستاذ ذو الفقار في كرسيه شاحب الوجه. نفدت منه الكلمات الذكية. انزلقت نظارته بوهن على أنفه. قفز أنصارنا مثل القرود الراقصة لأن مناقشة لينتانج ضمنت فوز مدرستنا بالتحدّي الأكاديمي لهذه السنة، شيء لم يحلم أحد مطلقًا بأننا قد نحققه.

انتزعت بو مُس علم المحمدية من يد فلو ولوّحته بكلّ ما أوتيت من قوّة. وبعينين دامعتين اندفعت تردّد: «سبحان الله، سبحان الله، الله أكبر.»

عانقتُ لينتانج وهنأته على الوفاء بوعده لأمه، وعده لها بأن يفوز بالتحدّي الأكاديمي ليعوّض تضحيتها بخاتم زواجها.

عندما رفع لينتانج كأس النصر عاليًا، صفّر بطلنا الأول، هارون، مثل راعي بقر يدعو الأبقار إلى الحظيرة. انتفخ هارون فخرًا بلينتانج، لكنّه هنأ ترابانِي. بغضّ النظر عن عظمة لينتانج، ما زال ترابانِي معبوده، فهو، وهو وحده من يريد أن يُصبِحَه. في هذه الأثناء، قبعت مديرة مدرسة الـــ ب ن، إيبو فريشا، في كرسي ضخم، تهوّئ وجهها من الحرارة والرطوبة. جلست مقلقلة، والتعبير المرتسم على محياها يوحي بأن ذهنها في الوقت الحاضر يحلّق في مكان آخر جملة وتفصيلاً.

٣١

رجل بقلب كبير كالسماء

تجمّعنا في اليوم التالي أمام خزانة العرض الزجاجية. كان دور لينتانج ليحظى بشرف وضع الكأس في خزانة العرض. وهكذا أخذ كأس التحدّي الأكاديمي مكانه إلى جانب كأس الكرنفال.

أجاب الكأسان عن تساؤلنا لماذا منحنا الله هذين الولدين الموهوبين. بثّ فينا مهار روح الشجاعة لننافس، وبثّ فينا لينتانج روح الشجاعة لنحلم.

كان الكأسان رائعين حقًا. وقفا مُتّحدين، جنبًا إلى جنب، كما لو أنهما يعودان إلى كتيبة من المحاربين الشجعان الذين على أُهبة الاستعداد دائمًا لمواجهة المصاعب كافّة. من قبل، اعتقد الجميع بأن قدراتنا العقلية وجهازنا بل ومدرستنا لن تصمد إلا بضعة أسابيع. لا أحد توقّع منّا أبدًا أن نفوز بهذه الجوائز. لكن انظروا إلينا الآن مع كأسينا المجيدين. انظروا إلى اعتزازنا ونحن نقف أمام خزانة العرض الزجاجية. كنّا أقوى وأمتن من أي وقت مضى. بدأت مثابرة بو مُس وپاك هرفان وإصرارهما على تعليمنا تؤتي نتائجها المثمرة. جاهد هذان الاثنان بقوة ليحبسا دموعهما وهما يتأمّلان الكأسين لأنهما عرفا أنه من اللحظة فصاعدًا، لن يتجرأ أحد أبدًا على إهانة مدرستنا.

على الرغم من تدهور حالة پاك هرفان الصحية، أبدى اندفاعًا أكبر في تعليمنا بعد انتصارنا في التحدّي الأكاديمي. وأخذ يُعدّنا بلا كلل لمواجهة الامتحان النهائي.

درّبنا لساعات. عمل كما لو أنه كان يطارد شيئًا. وعلى الرغم من ثقل الحمل كنّا سعداء للغاية. جعلت طُرق پاك هرفان التعليمية الاستظهارَ أشبه بلعبة ممتعة. أصبحت المعضلات المعقّدة تحدّيات، وعلم الحساب الصعب فترة ترفيهية.

درج پاك هرفان في عطل نهاية الأسبوع على قيادة دراجته ما يقارب مئة كيلومتر إلى تانجونغ باندان، ومعه سلّة محصول من حديقته: أناناس وموز وبطاطس حلوة وجذور «الغالانغال». كان يبيعها ليشتري لنا بثمنها كتبًا مدرسية. في طريق عودته إلى البيت يتوقّف عند مكتبة البلدية. هناك يستعير كتبًا فيها نماذج من أسئلة الامتحان النهائي السابقة.

لكن الربو الذي يعاني منه پاك هرفان استفحل واشتدّ. أصبح يسعل دمًا وغالبًا ما اضطررنا إلى تذكيره بضرورة حصوله على قسط من الراحة.

«إذا توقّفتُ عن التعليم يزداد مرضي،» أجابنا دائمًا، ثم يمازحنا بقوله، «وإذا متّ، أريد أن أموت في هذه المدرسة.»

كنّا كلّ مساء، على مدى شهور، بعد أن ننتهي من درس القرآن، نهرع عائدين إلى المدرسة ليعطينا پاك هرفان دروسًا إضافية.

ثم في إحدى الأمسيات، وبعد أن انتظرنا فترة في الصفّ، لم يحضر پاك هرفان. ذهبنا إلى مكتبه قرب حديقة المدرسة. قرعنا الباب ولم نلق جوابًا. فتحنا الباب ورأينا پاك هرفان جالسًا إلى مكتبه ورأسه على الطاولة. ناديته فلم يجب. تقدّمت منه أكثر، وبدا لي أنه غارق في النوم. ناديته مرّة أخرى بعد اقترابي. بقي صامتًا. لمست يده ووجدتها باردة كالثلج. لم يكن يتنفّس. لقد رحل عنّا پاك هرفان.

امتهن پاك هرفان التعليم منذ سنّ المراهقة، لأكثر من إحدى وخمسين سنة. هو بنفسه قطع الخشب من الغابة ليبني مدرسة المحمدية. على كتفيه حمل أوّل وأثقل قطعة خشب، القطعة التي تشكل عمود الدّعم الرئيس في صفّنا. الدعامة التي قسنا أطوالنا عليها على مرّ السنين، حتى عجّت بخدوش سكاكين الجيب. بالنسبة إلينا كانت تلك الدعامة مقدّسة.

يُقال إنه منذ زمن طويل كان لدى پاك هرفان العديد من التلاميذ والمعلمين. ثم بدأ المجتمع يفقد شيئًا فشيئًا ثقته بالمدرسة، وفقد المعلمون اعتزازهم بمهنتهم. التمييز التربوي الذي طبّقته الـــ پ ن أوْهَن رغبة الناس في الإقبال على تحصيل العلم. وجعل أهالي بيليتونج يعتقدون أن التلاميذ من أبناء موظفي الـــ پ ن هم فقط يمكن أن ينجحوا في الدراسة، ويمكن أن تواتيهم فرصة الذهاب إلى الجامعة، وأن المعلّمين الوحيدين الذين لديهم مستقبل هم التابعون لمدرسة الـــ پ ن. أدّى هذا إلى تخلّي أطفال القرية عن المدرسة واحدًا تلو الآخر، وكذلك بدأ المعلّمون أيضًا يتنحّون واحدًا بعد الآخر، إما ليعملوا في مدرسة الـــ پ ن أو ليصبحوا عمّالاً أو صيادي سمك.

«ما العبرة من المدرسة؟» دأب أطفال القرية على أن يسألوا بنبرة مفعمة بالاتهام. «لن نقدر في جميع الأحوال على متابعة الدراسة.»

ساء الوضع أكثر عندما بدأ النجاح يحالف أطفال القرية الذين لا يذهبون إلى المدرسة. فقد حقّقوا المكاسب من العمل بقطف ثمار الفليفلة، وحراسة الدكاكين، وجلفطة المراكب، وبَشْر جوز الهند، أو حتى قضاء حاجات أصحاب قوارب الصيد.

بالنسبة إليهم، كانت المدرسة شيئًا نسبيًا، خصوصًا للذين وجدوا عملاً يدرّ عليهم ربحًا جيدًا؛ ممّن ملكوا شجاعة كافية للتوغّل في الغابات بحثًا عن خشب الأغار وخشب الصندل الأصفر. إذ جعلهم هذا العمل يتحمّلون ثمن الدراجات النارية، بينما كان على پاك هرفان، مدير المدرسة، أن يدّخر روبية وراء روبية ليبدّل إطار دراجته المتهالكة. وهكذا ما لبث أن أصبح التعليم مسعى عقيمًا لأطفال

عالقين في دائرة شيطانية، وأملهم بارتياد المدرسة شبه معدوم، يكافحون من أجل ضروريات الحياة في ظلّ التمييز والتحامل.

ومع ذلك، لم يفقد پاك هرفان الأمل، ولم يكفّ عن محاولاته في إقناع أولئك الأطفال بأن المعرفة تتعلّق باحترام الذات، وأن تحصيل العلم هو فعل ولاء للخالق، وأن المدرسة لم تكن دائمًا مرتبطة بأهداف مادّية؛ مثل الحصول على شهادة تؤمّن لحاملها الرفاه، أن المدرسة في الواقع مبجّلة ومهيبة، أنها احتفاء بالإنسانية؛ أنها بهجة الدراسة وضوء الثقافة. هذا كان تعريف پاك هرفان العظيم لمعنى العلم. إلا أن ذلك التنوير لم يصل إلى قلوب الأطفال الذين همّشهم التمييز، وأصابهم عمى إغراء السلع المادّية.

لم يستسلم پاك هرفان قطّ، ولم يتخلّ عن محاولة إقناعهم بالذهاب إلى المدرسة. بل حتى دأب على تزويدهم بالكتب وهم في عرض البحر. ودأب على البحث عنهم عند مصبّات الأنهار حيث يسدّون شقوق المراكب. دأب على انتظارهم تحت شجيرات ثمار الفليلفة. لكن أحدًا لم يستجب له. وفي أحيان كثيرة يواجهه مُستخدمو الأطفال بالطرد، هذا إن لم يطرده الأطفال أنفسهم.

في مساء ساكن، أدركت المنية رجلاً فقيرًا قلبه كبير كالسماء. بغيابه، جفّت إلى الأبد بئر من آبار المعرفة في حقل قاحل مهجور. لكنه ترك في صميم تلاميذه الأحد عشر بئر معرفة نقية لن تنضب أبدًا.

بكينا في الصفّ. كان هارون أشدّنا حزنًا وبكاءً، لأن پاك هرفان احتلّ منزلة الأب في قلبه. نشج ونشج ولم يواسه شيء. سالت دموعه أنهارًا حتى بلّلت قميصه.

٣٢

سكرتير نادي هواة الأشباح

أطلقوا على أنفسهم اسم «سوسيتيت دي ليمپاي»، أو بكلام أبسط، مجموعة «ليمپاي».

«الليمپاي»، حيوان مرعب وخارق وأسطوري في علم أساطير بيليتونج. حكايته الأسطورية مثيرة بسبب اختلاف تعريف المخلوقات الغامضة مع اختلاف مناطق الحكايات الشعبية. يعتقد الساحليون أنه جنيّة تعيش في الجبال. ويعتقد الجبليون أنه حيوان هائل أبيض يشبه الماموث. ويرى أهالي السهول الملايويين أنه ريح؛ ريح إذا غضبت يمكن أن تسقط الأشجار وقصب الأرز. في المناطق النائية يعني «الليمپاي» الغول أو الشبح الأسود الضخم. أما جيل الشباب فقد أخطأ كليًا في تعريفه. بالنسبة إليهم «الليمپاي» هو أسطورة حضرية، كابوس أو نذير موت قادر على إخفاء نفسه في أي شكل أو هيئة.

لقصّة «الليمپاي» جذورها في تعاليم بيليتونج القديمة والمتناقلة عبر الأجيال، وهدفها التحذير من إساءة استغلال الغابات ومصادر المياه. تحمل تلك التعاليم قوّة إقناع عظيمة لأنها تجعل الناس يخافون من لعنة الحظّ السيئ إن هم انتهكوا حرمة الغابات ومصادر المياه المحروسة بشبح «الليمپاي».

يرى البالغون ممّن لديهم علم واسع أن «الليمپاي» ليس أكثر من سديم يحوم في رؤوس محبّي الإشاعات من الأغبياء ذوي الإيمان المهزوز والذين ليس لديهم ما يشغلهم: ذاك هو «الليمپاي».

مارست مجموعة «ليمپاي» نشاطها سرًا. كانت حركة تعمل في الخفاء. لم يعرف الغرباء قطّ متى وأين يجتمع الأعضاء أو ماذا يناقشون. وإذا فاجأهم أحد، يغيّرون موضوع الحديث بسرعة ويتظاهرون بأنهم لا يعرفون بعضهم بعضًا. على هذا النحو تكتموا على نشاطهم. ليس لأنهم كانوا شيوعيين خطرين وفوضويين، أو من منتهكي القانون، بل ليتفادوا السخرية. وهذه المجموعة لم تتضمّن إلا حفنة من أشخاص عديمي النفع يجمعهم ولعهم المفرط بالعوالم الخفية.

تألّفت «السوسيتيت» من تسعة أعضاء. وكانت متطلّبات الانضمام إلى المجموعة صارمة جدًا. أكبر الأعضاء سنًا هو مدير ميناء متقاعد في السابعة والخمسين من العمر. وأصغر مَن في هذه المجموعة مراهقان. أما الأعضاء الستّة الآخرون فهم أمين صندوق الفرع المحلي لمصرف إندونيسيا الوطني، وصيني يعمل في مجال طلاء الذهب، وشخص عاطل عن العمل، وعازف منفرد على الإلكتون، وبالغ تخلّى عن دراسة الهندسة الكهربائية وفتح متجر دراجات، وموجيس الذي يبيد البعوض.

أغرب ما في الأمر أن زعيم «السوسيتيت» ليس إلا أصغر أعضائها، وهو في الواقع مؤسّس المنظّمة، ويحترمه بقية الأعضاء بسبب تعمّقه الكبير في العالم المظلم ومجموعته الواسعة من الإشاعات والأخبار الحمقاء. وما ذاك إلا مهار. أما العضو الأصغر الآخر، فهو فلو طبعًا.

كانت نشاطات «السوسيتيت» محمومة جدًا. ذهب الأعضاء في رحلات إلى الأماكن المخيفة، تحرّوا الأحداث الباطنية، ومسحوا على الخريطة علم أساطير الملايو. كان من الممكن اعتبارهم مجموعة شجعان متلهّفين على كشف أسرار العالم بأقصى درجات الشكّ؛ لا يصدّقون إلا ما يرونه بأعينهم ويلمسونه بأيديهم.

برع مهار وفلو في القرن بين اسم «الليمپاي» واسم عصابتهما. لأن لقب ذلك المخلوق كان مجازيًا، ويعتمد فكّ طلاسمه على من ينظر إليه. ولذلك يمكن القول إن «السوسيتيت» ضمّت أناسًا من المجانين العلميين، أو جماعة من المنشقّين دينيًا،

كما أن فلسفتها تفاوتت كتفاوت تفسير معنى «ليمپاي».

قامت المجموعة، تحت إشراف العضو الذي اعتزل الهندسة الكهربائية، بتركيب كاشف حقل كهرومغناطيسي يمكن أن يقرأ الموجات في المناطق موضوع الدراسة، موجات تتراوح ما بين اثنين إلى سبعة ميليغاوس، أي وحدة الحثّ المغناطيسي، لأنهم اعتقدوا أن ذاك هو المدى الذي تقاس فيه نشاطات الأرواح. وصنعوا كذلك مجسّ تردّدات يمكن أن يكتشف التردّدات المنخفضة جدًا، تحت ستين هيرتز. وحسب طريقة تفكيرهم، تلك هي تردّدات أصوات الغيلان. إضافة إلى أنهم تزوّدوا بالبخور، وخشب «الألوي» وتعاويذ بيض السحالي والدّجاج البرّي القزم، وهذه كلّها، كما رأوا، أسرع الطرق لاستشعار وجود العفاريت.

مرةً، ذهبوا إلى غابة جينتينج أبيت، المنطقة الأوحش في بيليتونج. تخفي تلك الغابة في مجاهلها آلاف الحكايات المخيفة، وأبرزها على الإطلاق ظاهرة ضباب الهيولى. ذاك الضباب يحادث نفسه، وعلى نحو طبيعي، وربّما شيطاني، يتحوّل إلى أشكال بشرية وحيوانات أو عمالقة. وليس من النادر التقاط هذه الأشكال بآلة تصوير عادية. ولطالما أُسدي النصح المشدّد إلى السائقين الذين يعبرون منطقة جينتينج ألا ينظروا في مرايا سيارتهم الخلفية لأن أشباح الوادي غالبًا ما تتطفّل وتركب معهم لفترة في المقاعد الخلفية. وهذه هي طبيعة المناطق المرعبة التي كان جماعة «السوسيتيت» يجرون أبحاثهم فيها.

يمكن القول باختصار إن هذه المنظمة السرية كانت كثيرة الأشغال، وتطلّبت جدول أعمال لضبط الإدارة والتمويل والممتلكات؛ أي أنها ببساطة احتاجت إلى سكرتير.

عندما عرض علي مهار المنصب، قبلت به فورًا. على الرغم من أنه ليس مدفوع الأجر. شعرت بالتكريم لأن مجموعة من الناس الذين يصادقون الأشباح قرّروا أن يعيّنوني سكرتيرهم. وسررت أيضًا لأن العرض عَنَى تمتعي بمصداقية كافية لأتولّى الشأن المالي. في أدنى الأحوال عَنَى ذلك أنني موضع ثقة، حتى لو أن العرض جاء من أشخاص يفتقرون إلى التفكير السوي. ويا صديقي، في حال

صحّ أن يوصف هذا العمل بالوظيفة، فلا ريب أنه قد ملأني فخرًا. وتاليًا يمكنني الاعتراف بأن عملي سكرتيرًا لدى هذه المنظمة السرّية؛ «سوسيتيت دي ليمباي»، هو أول وظيفة لي.

تميّزت مهمّتي بالسهولة حيث يمكن تنظيمها بدفتر سجلات. وتضمّنت مسؤولياتي تدوين مستحقّات الأعضاء، وحفظ المال، وكتابة الملاحظات عن الموادّ التي قد يبيعها الأعضاء أو يرهنونها لشراء الأجهزة وتمويل البعثات الاستكشافية. تضمّنت الواجبات الأخرى، طبقا لأوامر رئيسَي مهار وفلو ترتيب الاجتماعات السرية، وصبّ الشاي للأعضاء الحاضرين فيها. هنا، من العدل تسميتي بالنادل.

درج مهار وفلو، بعد العودة من إحدى الرحلات الغامضة، على جلب القصص المثيرة معهما إلى المدرسة. في أحد الأيام أخبرانا أنهما بينما كانا في قلب غابة مظلمة اكتشفا بعض القبور، مساحة كلّ منها ثلاثة بستّة أمتار، مع مسافة بين الشواهد تبلغ على الأقل خمسة أمتار. وبما أن الملايويين يؤمنون بضرورة وضع الشواهد عند بداية القبر وعند نهايته، يمكن الاستنتاج من هذا أن أصحاب الجثث المدفونة هم مخلوقات ضخمة وكبيرة الحجم على نحو استثنائي.

حدّثنا مهار عن العلاقة بين القبور القديمة العملاقة في بيليتونج ونظريات علماء الآثار المشهورين مثل «باري تشاميس» و «هارولد ت ويلكينس»، اللذين رأيا أنه في فترة زمنية ما ضرب العمالقة في الأرض. أشار مهار إلى وجود صلة بين قبور بيليتونج وجمجمة «باسنوتا» البشرية العملاقة التي عُثر عليها في أوماها، والهياكل العظمية الناقصة التي نُبشت من مقبرة قديمة في مرتفعات الجولان. عندما أعيد تركيب تلك الهياكل شكّلت إنسانًا طوله ستة أمتار تقريبًا.

ربما كان مهار ولدًا غريب الأطوار اجتاز المنطقة المُشوّشة بين الواقع والخيال، إلا أنه كان بلا شكّ فتى لامعًا، يتميّز بطريقة تفكير منظّمة جدًا، ويمتلك معرفة واسعة عن العالم فوق الطبيعي.

جلس مهار وفلو بلا تكلّف على فرع منخفض من شجرة الفيلسيوم مثل كاهنين من معبد للسيخ يرويان الحكايات. بينما نحن، أعضاء لاسْكار بِلانجي، جلسنا القرفصاء بعيون مشعّة تفعمنا الدهشة ونحن نستمع إلى قصّتهما عن كهف في جزيرة نائية.

«تحرّينا الكهف. عندما رفعنا مصباحنا الزيتي، فوجئنا برؤية رسم من العصر الحجري القديم يصوّر أشخاصًا عراة يأكلون وطاويط الكهوف النيئة،» قالت فلو مسترجعة المشهد.

لم يكن اكتشاف الرسم الخاصّ بالعصر الحجري القديم ليعادل في إثارته للدهشة، الدهشة التي أثارها، كما روى مهار، الهمسُ الذي جاء من ذلك الرسم بينما استلقى هناك نصف نائم ونصف صاحٍ.

«ليموريا، ليموريا،» هَمهَم مهار. «هسهست الرسوم في أذني مثل أفعى مانوس. أتعرفون يا رفاق أسطورة ليموريا؟» قال وفرائصه ترتعد. «اخترقني الهمس مثل هاجس تحذيري مسبق، حاملاً بين طياته نبوءة مخيفة تتعلّق ببيليتونج، وأن سلطة فيها لن تلبث أن تسقط!»

أحبّ مهار المبالغة، لكن كان من المستحيل أن ننكر إمكان تحقّق ما يقوله من هراء عاجلاً أو آجلاً. هذا حدث مرارًا وتكرارًا.

لذا أخذت كلامه على محمل الجدّ. أيختفي أهل بيليتونج مثل أهل بابل وليموريا؟ ما جعلني أتردّد هو المجيء على ذكر ليموريا. فقد اعتقد العديد من الناس أن حكاية ليموريا ليست أكثر من حكاية من حكايات الجنّ، مثل جزيرة أطلانتس تمامًا. على أي حال، إذا ثبت توقّع مهار فهل يعني هذا أن حكاية ليموريا حقيقية أيضًا؟ طاردتني كلمة «ليموريس» المخيفة. «ليموريس» هي أصل كلمة ليموريا وتعني «الأرواح الزائلة.» ترى، ما الكارثة التي تنتظر في أفق جزيرة بيليتونج وتتربّص بها؟

في عالم آخر، خيّم القلق على بو مُس وهي تفكّر في النهج الذي سلكه مهار وما وصل إليه، حيث غاص في العالم الباطني غير آبهٍ لإنجازه الفني، كما تنصّ

خطته أ. ومع وجود فلو إلى جانبه هُدرت موهبته الفنية أكثر فأكثر.

بيد أن بو مُس سرعان ما وجدت نفسها تواجه ورطة أكبر؛ تسلّمت رسالة من شركة الـ ب ن تنصحها بإنهاء النشاط الدراسي في مدرستنا. فعمّا قريب تأتي ثلاث جرّافات لتبدأ أعمال التنقيب عن القصدير تحت المدرسة.

٣٣

بروس لي يصبح رئيسًا

بدأ البنّاؤون يشيّدون الثكنات للعمّال حول مدرستنا. وأثارت أعصابَنا أصواتُ الجرّافات الصاخبة التي كانت تزداد اقترابًا منّا.

صمّمت بو مُس على الاستمرار في تعليمنا على الرغم من التحذير الذي تلقّته. واضطرّت في بعض الأحيان إلى الصياح وهي تشرح لنا شيئًا لتنافس ضوضاء المكائن.

لم تتوان بو مُس عن الردّ على الرسالة التحذيرية، مرفقةً ردّها بالتماس إلى أعلى سلطة في الـ ب ن حتى لا تهدم مدرستنا. وطلبت أيضًا منحها فرصة التحدّث مع المدير شخصيًا. إلا أن أحدًا لم يولِ رسالتها أي اهتمام.

منذ وفاة پاك هرفان أُلقي على عاتق بو مُس تدريسنا جميع المواد، والتغلّب على المشاكل المالية، وتحضيرنا للامتحان، والتصدّي لتهديدات السيد صمديكون. وها قد جاءتها المشكلة الأكبر الآن: خطر الجرّافات. وقد واجهت كلّ ذلك وحدها.

على الرغم من أننا كنّا في وضع حرج، وقفت بو مُس شامخة. إذا شعرت أن التشاؤم يسيطر علينا تدعونا للتحدّث عن كأسينا، وتذكّرنا بأنهما مكافأة من لم يستسلموا للهزيمة. لكن ابتهاجنا ما كان ليدوم طويلاً. ففي يوم وصلت إلى أسماعنا من بعيد طقطقة كاتم صوت العادم المرعبة. إنه السيد صمديكون!

كان قد حان وقت جولته التفتيشية النهائية. تدافعنا ونحن نحاول تحضير أنفسنا. عجّلت بو مُس لتتأكّد من أن كلّ شيء مرتّب وفق الأصول. إذا فشلنا، فلن نضطرّ

إلى الانتظار حتى تسحقنا الجرّافات. كان مصيرنا بيد السيد صمديكون.

كنّا على أي حال أكثر تفاؤلاً من المرّات السابقة بسبب حرصنا على تهيئة كلّ شيء: تجهّزنا بعدّة الإسعافات الأولية التي أصبحت مقبولة مع أنها لم تحتو إلا على حبوب «أي بي سي» وشراب الدود. واشترينا بجائزة الكرنفال المالية لوحًا جديدًا وممحاة لوح. وأصبح لدينا مرحاض حتى وإن لا نستطيع وصفه بالجيّد لأنه لا يتألّف إلا من برميل غائر، لكنه عنى أنه ما عاد علينا أن نلبّي نداء الطبيعة في الأحراش.

اكتملت أزرار قمصاننا، واعتنينا بتمشيط شعرنا جيدًا. انتعلنا كلّنا شيئًا في أقدامنا مع أنه اقتصر لدى بعضنا على صندل مطاطي مصنوع من عجلات السيارات. لم يتقلّد أحد منّا مقلاعًا. ثيابنا بقيت مبقّعة قليلاً بالنسغ؛ ثيابي وثياب كونتشاي وشهدان، إلا أن بقعها لا تكاد ترى. وكذلك أُعدّت بطاقة علامات هارون. جهدنا في تعليمه أن الجواب الصحيح لحاصل جمع اثنين واثنين هو أربعة. وكلّما اختبرناه، أصرّ على رفع ثلاثة أصابع.

بل حقّقت بو مُس أيضًا مطالب السّيد صمديكون البديهية والصعبة: حاسبة، وبوصلات، وطباشير ملونة. نجحت في شراء بضع بوصلات وبعض الطباشير الملونة بما عادت به عليها الخياطة من مال. ولأن الآلات الحاسبة كانت غالية الثمن اشترت بدلاً منها مِعدادًا. أما المهمّ حقًا فهو الكأسان. رأينا أنهما سيفحمان السيد صمديكون حتمًا ويستثيران إعجابه.

طلبت منّا بو مُس أن ننقل خزانة العرض الزجاجية من الزاوية إلى جانب منضدتها حتى يرى السيد صمديكون الكأسين مباشرة. اندفعت سهارى كالمجنونة نحو البئر وعادت تحمل خرقة ودلوًا. نظّفت زجاج الخزانة ليرى الناظر الكأسين بوضوح.

بدا لنا أننا أصبحنا جاهزين لاستقبال السيد صمديكون. صفّتنا بو مُس عن يمين ويسار خزانة العرض وأمرتنا أن نبتسم.

كنّا متوترين لكن مُستعدين. نظرت حولها لتتأكّد من عدم نقصان أي شيء، وفجأة، عندما عاينت الجدار فوق اللوح تشنّجت كما لو أنها قد رأت شبحًا. امتُقع

وجهها الذي نبض قبل برهة بالحياة. لاحقنا كلّنا نظرتها. أوه لا! أدركنا في الحال أننا نسينا صورة الرئيس، ونائب الرئيس، وشعار الدولة: «غارودا پانكاسيلا»!

لم نكن قد تسلّمنا بعد هذه الأغراض من «كاهيا أبادي»، متجر التجهيزات المدرسية في تانجونغ باندان. لم نتوان عن سؤال صاحب المتجر عن طلبيتنا ما بين فترة وأخرى، وقال دائمًا إنها نافدة وأنه ينتظر شحنة جديدة من جاكرتا.

تعتبر تلك الرموز الوطنية من أهم الشروط الواجب توافرها. وبدونها لا أهمّية لبقية الأشياء على الإطلاق. ولن يقبل السيد صمديكون عذرنا.

توقّفت قرقعة كاتم صوت العادم. ما عنى أن السيد صمديكون أصبح قاب قوسينِ أو أدنى. كنّا قبل قليل جاهزين لمواجهته، ثم ها نحن نقع فريسة اليأس والاضطراب. وقفت بو مُس مذهولة. بكت سهارى، وأطلق كوتشاي بصفته عريف الصفّ زفرة كئيبة. جميع جهودنا المنهِكة لنحقّق المطلوب، جميع جهودنا لنفوز بالجوائز، ذهبت أدراج الرياح. وسيغلق السيد صمديكون مدرستنا بالتأكيد.

سمعناه يركن دراجته البخارية. فجأة، والخناق يضيق علينا أكثر فأكثر، هبّ مهار وقفز فوق المقاعد، ثم وزان نفسه كالقرد على الجدار الجانبي، تمسّكت إحدى يديه بالحائط، وأنزلت يده الأخرى ملصق «بروس لي» وملصق «جون لينون» وصورة والدي تراپاني في عرسهما، ثم استولى على جميع المسامير. راقبناه بوجوه حائرة. دار مهار حول نفسه، عاد وقفز فوق المقاعد، ثم انقضّ على ممحاة اللوح. وعلى رؤوس أصابعه فوق أحد المقاعد، علّق ببراعة الصور عاليًا جدًا فوق اللوح. ودقّ المسامير بالممحاة.

علّق مهار المُلصقات على شكل مثلث، كما تُعلّق رموزنا الوطنية عادةً. علّق صورة والدي تراپاني عاليًا في الوسط، حيث النقطة المخصّصة لشعار الدولة «الغارودا پانكاسيلا». تحتها إلى اليمين، أطلّ «بروس لي» مبتسمًا وهو ينضح بمنصبه الرئاسي. إلى جانبه من اليسار شغل «جون لينون» منصب نائب الرئيس.

عاد مهار إلى مكانه بيننا. وما هي إلا هنيهة حتى وقف السيد صمديكون أمامنا.

ارتعشت بو مُس، ولم يحاول أحد منّا استراق النظر إلى الأعلى.

أخرج السيد صمديكون استمارته وقائمة التدقيق. كنست نظرته الصفّ من الزاوية إلى الزاوية، وبعد ذلك بدأ يدوّن ملاحظاته. لم يتكلّم. كان وجهه قاسيًا كالمعتاد. وضع نموذج تفتيش المُنشأة على الطاولة أمامنا، وكان يمكننا أن نرى ما يكتبه.

في فقرة اللوح والأثاث رفع تقويمه السابق (ه) سيئ إلى (ب) مقبول. وتحسّنت درجات تقويمنا أكثر في بنود حالة التلاميذ والمرحاض والإنارة وعدّة الإسعافات الأولية والأدوات البصرية. لم يكن هناك أي مشكلة في المستوى الأساس. إلا أننا قلقنا عندما وصل إلى بند الرموز الوطنية. رفع نظره إلى ما فوق اللوح. بدا أن عليه أن يبذل جهدًا كبيرًا ليرى بوضوح. أغمض عينيه نصف إغماضة، خلع نظارته، أخرج منديلاً من حقيبته، مسح النظارة وأعادها. فرك عينيه مجاهدًا مرّة أخرى ليتفحّص الصور العالية. عندها وعندها فقط أدركنا مغزى حيلة مهار العبقرية. عرف أن السيد صمديكون يعاني من قصر نظر حادّ ولن يقدر على استشفاف الصور وهي معلّقة عاليًا فوق مستوى اللوح بكثير.

عاد السّيد صمديكون إلى استمارته. ارتفعت نتيجتنا في بند الرموز الوطنية من (و) غير متوافرة إلى التقويم الرائع (أ) مكتملة. لم يملك السيد صمديكون أدنى فكرة عن أن «بروس لي» و»جون لينون» قد استوليا على الحكم السيادي المطلق في جمهورية إندونيسيا.

بعد رحيل السيد صمديكون وقفنا نرمق مهار بإعجاب. وكالمعتاد، قابلنا ببصمة توقيعه المزعجة ولكن الطريفة. ابتسم في وجه معبوده «بروس لي» في مُلصق «كونغ فو» التنين: قتال حتى الموت. وبادلنا «بروس لي» الابتسام. عندما طلب مهار من بو مُس أن تعلّق مُلصق «بروس لي»، أتى على ذكر نظريته عن القدر الدّوار، مبينًا أن المُلصق قد يثبت فائدته في يوم ما. وفي ذلك اليوم برهنت نظريته السخيفة على صحتها.

٣٤

أرنب مشلول

بعد بضعة أيام من زيارة السّيد صمديكون التفتيشية، وصلتنا طلبية الشعارات الرسمية. فعلّقناها في أماكنها الموقّرة. لم يفتعل «بروس لي» و»جون لينون» معركة.

لكن الشعارات لم تصمد مدة طويلة. فبعد ثلاثة أيام، دخل بعض المشرفين على عمّال الـــ پ ن إلى الصفّ وطلبوا الإذن من بو مُس لينزلوها. لم يرغبوا في التورّط بأي إجراء إجرامي لاحقًا، في حال داستها الجرّافات. عرفوا أن القانون يحمي تلك الرموز، في حين أن لا مشكلة على الإطلاق أن تُدكّ مدرسة قرية فقيرة عمرها مئة سنة. فلا قانون هناك يعاقب الـــ پ ن إذا فعلت ذلك، ولا قانون يحمينا.

تعاقب وصول المزيد من مكائن التنقيب عن القصدير. وبدأت الجرّافات تقترب أكثر فأكثر. اتجهت مقدّمات المكائن العملاقة؛ الكبيرة كملاعب كرة القدم، والمرتفعة كأشجار جوز الهند نحونا. وقبعت مدرستنا بلا حول ولا قوة مثل أرنب مشلول يحيط به قطيع من الضباع.

مضت علينا سنوات ونحن نرزح تحت وطأة ضغوطات السيد صمديكون. ونجحنا أخيرًا في تطويعه. أما شركة الـــ پ ن فليست شيئًا يمكن مخالفته. على امتداد مئات السنوات، لا أحد أبدًا وقف في طريقها معترضًا على استغلالها أرض القصدير. إذا تطلبت القضية تعويضًا فمصادرها لا تنضب ولا تجفّ. كان

من المألوف أن تحرث الجرّافات الحدائقَ والأسواق والقرى بل حتى المكاتب الحكومية. ومدرسة فقيرة كمدرستنا ليست إلا شيئًا تافهًا، مجرد ذرة وسخ صغيرة تحت ظفر الـ ب ن.

على الرغم من رغبتنا القوية بالثبات، نحَونا أخيرًا إلى الواقعية. أدركنا أن لا قِبَل لنا بمواجهة الـ ب ن. ناهيك عن تدهور معنويات بو مُس بعد موت پاك هرفان كما لم يحدث من قبل قطّ. وما لبثت أن بدأت تلتمس منّا الأعذار لنعفيها من متابعة التدريس.

صرنا في فترات الاستراحة نجلس والحزن يعتصرنا، ننظر مذهولين إلى نصف باحة مدرستنا الذي سحقته الآلات وسوّته بالأرض. كان هذا أعظم اختبار ابتلينا به. كنّا نغدو أكثر فأكثر يأسًا مع مرور كلّ يوم جديد. وما انفكّت بو مُس تتطلّع إلينا بقنوط. ما أفزعها أكثر من تدمير الجرّافات لمدرستنا هو خوف تشاركت به مع المرحوم پاك هرفان. ويبدو أخيرًا أن ما خشيا حدوثه أكثر من أي شيء آخر قد أصبح حقيقة واقعة.

اختفت رأس كوتشاي الكبيرة من المدرسة ثلاثة أيام. وبعد ظهورها عادت واختفت من جديد. عمّت الفوضى صفّنا بلا عريفنا الأسطوري. سألت بو مُس والده عنه، فأعلمها أن كوتشاي يغادر يوميًا في الصباح إلى المدرسة. فاندلعت نيران الفضيحة!

بعد كثير من التقصّي، ظهر أن كوتشاي قد التحق بأولاد من القرى المجاورة ليعمل في قطف ثمار الفليفلة.

في ليلة الأربعاء؛ ليلة دفع الأجور، وبعد درس القرآن في مسجد الحكمة، أخرج كوتشاي رزمة مال من طيات سارونغه. لعق طرف أصبعه واستغرق يعدّ ماله مرّة تلو مرّة، مثل صرّاف في محل رهونات. من المؤكّد أنه كان يعرف مجموع ما معه، وحرص على ألا تفرّ كلمة واحدة من فمه المخادع. ما فعله هو في الحقيقة استدراج مخيف. وقد تبيّن أن الاستدراج من مواهب كوتشاي الكامنة.

في اليوم التالي، غاب شمشون.

لم يكن من المألوف أن يتغيّب شمشون عن الحضور في يوم الخميس؛ يوم الجمنازيوم والصحة، يومه المفضّل.

لم نسمع منه على امتداد أسبوع كامل. وفي ليلة الأربعاء التالي جاء لحضور درس القرآن بجسم فاحم السواد وعضلات أكبر من السابق. أصبح شمشون حمّال ثمار جوز الهند.

من طيات سارونغه أخرج قنينة. «أحدث زيت لإنبات الشعر، صُنع في باكستان!» قال مفاخرًا. «غالي الثمن.» أردف وهو يمسّد صورة رجل ملتح على القنينة. «مصنوع من عرق السحالي! وهو قوي جدًا! تستطيع أن تلطّخ به جبينك وينمو الشعر هناك،» تابع وهو يفرك جبيني.

ثمّ حلّ أزرار قميصه. ربّاه. إنه الشيء الحقيقي! كان الشعر قد بدأ ينمو في صدر شمشون. عاد وزرّر قميصه. على مدى ستّ سنوات في المدرسة لم يستطع شمشون شراء أي شي. الآن، بعد ستة أيام فقط من حمل ثمار جوز الهند أصبح قادرًا على شراء مقوٍّ خاصّ صنع في الباكستان!

في اليوم التالي اختفى مهار.

اتضح أنه وجد متّسعًا من الوقت ليعمل في مبشرة جوز الهند. في البداية عمل فقط بعد المدرسة، إلا أنه سرعان ما أصبح يعمل بدوام كامل. هذا الترقّي عنى شيئًا واحدًا فقط: وداعًا يا مدرسة. بعد ثلاثة أيام، عندما لم يكن معلم القرآن ينظر صوبه أخرج مهار شيْئًا أخفاه في سارونغه: عصا مزدوجة! سلاح «بروس لي» الأوّلي! عرضها مهار بزهو، فقد أراد أن يشتري هذه العصا طول عمره، وها هو حلمه يتحقّق.

طبعًا، لا بدّ أن يحاكي التابع المخلص آكيونج أي شيء يفعله مهار. ففي صباح يوم اثنين اختفت من المدرسة أرنبة أنف آكيونج ورأسه الشبيهة بالصفيحة. لم يشأ أن يبقى بعيدًا عن معلّمه مهار فاختار مهنة بيع الكعك. حمل على رأسه الكعك في طست غسيل وباعه في السوق حيث يبشُرُ مهار جوز الهند في دكان منتجات صينية.

أخبرني آكيونج أن حمل الكعك الطري على رأسه بدا في الحقيقة عملاً واعدًا.

«مردود هذا العمل أكبر بكثير من مردود الغطس في الماء بحثًا عن كرات الغولف يا إكال. بيع الكعك عمل غير مجهد يأتيك منه مال محترم ولا يضطرّك إلى منافسة التماسيح.»

فكّرت في العمل الذي نقوم به غالبًا لنكسب بعض المال؛ نغوص في الماء بحثًا عن كرات الغولف التي تسقط بعيدًا في البحيرة، والتي لا يقدر حديثو النعمة من موظفي الـــ ب ن والمبتدئين في الغولف على استرجاعها بأنفسهم. وبعد ذلك نقوم ببيع تلك الكرات مرّة أخرى إلى الغلمان الذين يساعدون لاعبي الغولف.

داعب آكيونج العملة المعدنية في جيبه المنتفخة فجلجلت تلك القطع. سحرتني جلجلتها.

مع مطلع يوم الاثنين التالي تركت المدرسة لأبيع الكعك في السوق.

كان ذلك من المفارقات الساخرة: كوتشاي، عريف الصفّ، والشخص الذي من المفترض أن يقوّي الروح المعنوية فينا ترك المدرسة، وبتصرّفه هذا بدأ سلسلة من ردود الفعل التي يمكن أن تودي بمدرستنا إلى الإفلاس. وكما أخبرتك دائمًا يا صديقي، تلك هي الطبيعة الانتهازية للسياسي بالفطرة.

بعد رحيلنا لم يبق في الصفّ إلا سهارى وفلو وتراپاني وهارون وشهدان. كان شهدان التالي. أراد حقًا أن يقاوم إلا أن حزن بو مُس اللانهائي على موت ﭘاك هرفان نشر التشاؤم في أرجاء حجرة الدراسة. وهكذا بوكزة بسيطة من كوتشاي، هجر شهدان المدرسة ليستأثر بالعمل الموقّر الخاصّ بجلفطة القوارب.

تلميذ واحد فقط تشبّث بمبادئه؛ على الرغم من إطارات الدراجة المستوية، على الرغم من سلسلة الدراجة الموصولة بجديلة من البلاستيك، وعلى الرغم من الرحلات المحفوفة بمطاردات التماسيح، تمسّك لينتانج بالمدرسة. لم يهتمّ لأن رفاقه هجروها، ولم يهتمّ بتهديد الجرّافات. التزم دائمًا بالحضور أبكر من الآخرين، وعاد دائمًا آخر واحد فيهم إلى بيته:

«سأواصل الدراسة إلى أن تنهار الدعامة المقدّسة التي تسند هذه المدرسة،»

قال لي عن قناعة تامّة.

تلك الدعامة المقدّسة هي تذكار من پاك هرفان، ولطالما رآها لينتانج رمزًا لكفاح مدرستنا.

تولّى لينتانج مهمة بو مُس في الصفّ بعد أن تزايد تخلّفها عن الحضور. علّم كلّ شيء من الرياضيات إلى التاريخ الإسلامي، مثل بو مُس تمامًا. اقتصر تلاميذه على سهارى وفلو وتراپاني وهارون. وما جمعهم هو رغبتهم في الصمود.

دُهشت بو مُس دهشةً عظيمة لمّا أخبرها موجيس أنه عندما تفقّد المدرسة من بعيد رأى فيها بعض التلاميذ. فهبّت إلى دراجتها وقادتها كالمجنونة ميمّمة باحة المدرسة.

لما وصلت إلى هناك، أسندت الدراجة إلى جذع شجرة الفيلسيوم. وتناهى إليها لغط أصوات صادر من الصف. تقدّمت بعصبية واسترقت النظر من بين شقوق الجدران. ارتعش جسمها عندما رأت لينتانج يروي لسهارى وفلو وتراپاني وهارون كيف جاهد رئيس إندونيسيا الأول سوكارنو الذي سجنه الهولنديون في باندانغ ليواصل دراسته في السجن من أجل استقلال بلاده.

انهمرت دموعها على وجهها. كانت قد روت لنا مرّة هذه القصّة لتوّجّج فينا روح الصمود؛ قصّة علّمتنا أن نكافح من أجل مدرستنا مهما كانت الظروف.

٣٥

لا تترك المدرسة

كنت منحنيًا تحت طست الغسيل ولم أر وجه المرأة التي وقفت تنتقي قطع الكعك.

سألتني، «كم ثمن هذه أيها الشابّ؟»

ميّزت الصوت من الكلمة الأولى. كانت بو مُس تقف أمامي بثبات.

«إكال،» قالت، «عُد إلى المدرسة.»

شعرت بالأسى على بو مُس، لكن التمسّك بالمدرسة بدا أشبه بإحكام قبضتي على الريح.

«وماذا يمكننا أن نفعل يا إيوندا غورو؟»

«لدي الخطّة المُثلى،» أجابت.

نحيّتها عني وأنا أرى إحباطها العظيم. إلا أنها مع ذلك قصدت آكيونج ومهار. رأيتهما يهزّان رأسيهما مستنكرين.

«لا تفقدوا الأمل. تعالوا إلى المدرسة يوم الاثنين القادم لنتحدّث عن خطّتي،» طلبت منّا بو مُس.

لاحقًا، سمعت أن بو مُس بعد تفقّدنا قادت دراجتها عشرات الكيلومترات وتوغلت في أعماق الغابة قاصدة مزارع الفليفلة، طلبًا لكوتشاي. بحثت عن تلميذها بين مئات الصبيان والبنات الذين تحت سنّ البلوغ والذين يعملون في قطف الفليفلة، وكلّهم لم تطأ أقدامهم المدرسة يومًا.

سألت بو مُس أي شخص رضي أن يستمع إليها عن كوتشاي. أرتهم صورته.
بعد يومين في المزارع، والنوم في بيوت السكّان نجحت بو مُس في العثور على عريفنا. كانت تقوم بما درج پاك هرفان على القيام به تمامًا: إقناع الأطفال بارتياد المدرسة.

بعد توجيه محاضرة طويلة وشاملة لكوتشاي اللامبالي، ركبت بو مُس قاربًا مع شعب السارونغ. أرادت الإبحار إلى جزيرة ميلدانج في جهة بيليتونج الشرقية لتعثر على شمشون الذي عمل هناك حمّال جوز هند.

لم يخف عليّ أن كوتشاي وشمشون وقفا موقفي وموقف آكيونج ومهار نفسه. فالمال قد سمّمنا وحرّضنا لنرفض العودة إلى المدرسة.

لم نرغب في العودة لأننا لم نشأ أن نبني آمالاً كبيرة كاذبة على مدرستنا. وإذا لم تنجح بو مُس في إنقاذها ستتأذّى أذى كبيرًا، وسنتأذّى نحن أيضًا. لو أن القضية تتعلّق بالضائقة المالية، أو ببناء آيل للسقوط، أو بإهانات الناس، أو بتهديدات السيد صمديكون لكان ما زال في وسعنا أن نحاول، ولرغبنا في أن نصمد، ولكن معارضة الـــ پ ن ما هي إلا ضرب من المستحيل. حاولت أن أناقش بو مُس بالمنطق.

«انتهى كلّ شيء يا إيبوندا غورو. لعلّ جميع أولئك الأشخاص محقّون. ما عليك إلا أن تتخلّي أنت أيضًا عن المدرسة.»

شدّدت بو مُس قبضتها على مقود دراجتها بوضوح ظاهر. بدا بما لا يقبل الشك أنها لن ترضى، ولا لأي سبب، أن تقف وتتفرّج على مدرسة المحمدية تتهاوى.

«قال رئيس عمّال مناجم الـــ پ ن إنهم سيعوّضونك بتوفير وظيفة تعليم لك في مدرستهم. اغتنمي الفرصة. الراتب مغر جدًا!» اقترح مهار.

نظرت بو مُس في عيني مهار مباشرة. «أنا لن أقايض أحدًا منكم مقابل أي شيء!»

عندما اختُتم نقاشنا في وقت متأخّر من فترة العصر مضت بو مُس إلى مناطق سهول نهر لينجانج الفيضية بحثًا عن شهدان. بحثت عنه طوال المساء. كان المدّ

عاليًا والريح قوّية والصيادون يركنون قواربهم لإصلاحها. حملت جلفطة القوارب لشهدان أملاً أكبر من تحصيل العلم في مدرسة قد تسوّى بالأرض بعد يوم أو يومين. كان من الصعب أن يلومه أحد على تفكيره بهذه الطريقة.

في مساء الجمعة، بعد أسبوع واحد من مجيء بو مُس لرؤيتي في السوق، صادفتُ موجيس. حدّثني عن الأمر نفسه الذي حدّث به بو مُس؛ قال إنه ما زال هناك تلاميذ يدرسون في صفّنا. أردت أن أرى بأمّ عيني.

عندما أنهيت بيع ما معي من كعك في اليوم التالي قصدتُ المدرسة. كانت الباحة فوضى مطلقة. بدت مدرستنا وسط مكائن التنقيب عن القصدير كما لو أنها قد حشرت في زاوية. أطلقت الآلات اهتزازات قوية جدًا جعلت المدرسة أكثر اعوجاجًا، وتسبّبت بسقوط كسوة ألواح السطح، محوّلة بذلك القسم الأكبر منها إلى بناء بلا سقف. وبدا لي أن هبّة ريح قوّية واحدة كفيلة بهدمها.

أين ذهبت سارية علم المدرسة من الخيزران الأصفر؟ وأين اختفى الجرس؟ لوحة اسم المحمدية سقطت وحطّت على الأرض بطريقة محزنة. حديقة أزهارنا الجميلة راحت أدراج الرياح. الجدار الخشبي في مؤخّرة صفّنا ما عاد هناك. والقرويون الذين رأوا أن إنقاذ مدرستنا مستحيل جاؤوا وخلعوا ألواحها الخشبية في غياهب الليل.

تحوّل صفّنا إلى غرفة نصف مفتوحة. العارضات التي دعمت يومًا الجدار الخلفي أصبح الجيران يستعملونها لربط ماشيتهم. ولو حاولت بقرة ما أن تشدّ رسنها قليلاً لانهارت المدرسة بالتأكيد. لم يبق هناك إلا اللوح وخزانة العرض الزجاجية وفيها جوائزنا العظيمة، ومطر نقود «روما إراما»، و«بروس لي» في عراك «كونغ فو» التنين: قتال حتى الموت، و«جون لينون» وعبارة الحياة هي ما يحدث لك بينما أنت مستغرق في إعداد خطط أخرى.

من بين فجوات جدارٍ ما زال صامدًا لمحت لينتانج يشرح مسألة رياضية لسهارى وفلو وترapاني وهارون. كان يعلّمهم تحت الشمس الحادّة لأنه ما عاد هناك

سقف يستر اللوح. كان يتصبّب عرقًا لكن طاقته تأججت وشعّ البريق من عينيه.

لمحني من زاوية عينه فخرج للقائي. «ها، هذا أنت يا إكال! تعال لندرس! إننا ندرس الرياضيات. وهي رائعة!»

كان الموقف مؤثّرًا؛ لم يظهر على لينتانج أي استعداد لقبول مصير مدرستنا المحتوم. سألته، «لماذا تصرّ على الصمود يا لينتانج؟» ابتسم لينتانج. «ألم يسبق لي أن أخبرتك يا بوي؟ سأستمرّ في الدراسة إلى أن تنهار دعامة مدرستنا المقدّسة.» تلك الدعامة الأساس التي بقيت ثابتة وراسخة، وحالت دون تهاوي الدعامات الأخرى المتصلة بها والتي تعتمد عليها، بدت لي مثل شخص يجاهد ليبقي عائلته عائمة على وجه الماء لئلا تغرق.

«أنت ترى هذا بنفسك، صح؟ دعامة مدرستنا المقدّسة ما زالت صامدة بقوّة.»

«لكنها لن تلبث أن تنهار،» قلت.

سمّر لينتانج نظره علي. ثم قال ببطء، «لن أخيّب أمل أمّي وأبي يا إكال. يريدان مني أن أكمل تعليمي. ينبغي أن تكون لنا أحلامنا، أحلام طموحة يا بوي، والمدرسة هي الطريق التي علينا أن نبدأ منها. لا تستسلم يا بوي. لا تستسلم أبدًا.»

استوقفتني كلماته.

«يجب أن نواصل تعليمنا حتى لا يضطرّ أولادنا إلى ارتياد مثل هذه المدرسة، وبالتالي لا يجحف أحد في معاملتنا.»

اصطبغ صوته بالمرارة. «لا تترك المدرسة يا بوي، لا تفعل.»

أخفيت وجهي وراء طست الغسيل الذي كنت أحمله. لم أطق النظر إلى لينتانج. لم أمتلك الجرأة على التطلّع في وجه مثل هذا الشخص العظيم. وكنت خجلاً، خجلاً من دموعي المتدفّقة.

٣٦

نصف روح

في صباح يوم الاثنين تجمّعنا أنا وبو مُس وسهارى وفلو وترابانى وهارون ولينتانج، تحت شجرة الفيلسيوم أمام المدرسة. ووقفنا ننتظر بقية أعضاء لاسْكار بِلانجي الهاربين.

كما قال مهار مرّة؛ القدر دوّار. كانت بو مُس تمرّ بالتجربة نفسها التي اختبرتها يوم وقفت تنتظر التلميذ العاشر عندما جئنا إلى المدرسة في ذلك اليوم الأول. وقفت تحدّق إلى ما بعد حدود فناء المدرسة بخوف يخالطه الأمل.

قاربت الساعة العاشرة ولا أحد ظهر. دفننا الصمت. ثم فجأة رأيت وجه بو مُس يسفر عن ابتسامة. في المدى ظهر آكيونج يقود دراجته بسرعة جنونية. كان يسابق الريح إلى المدرسة. وفي المقعد الخلفي جلس معلّمه مهار الذي بدا أنه يزأر على آكيونج بأوامره. وصلا إلى المدرسة فهلّلنا احتفاءً بهما.

ثم ما لبث أن ظهر طيف آخر في المدى يتهادى صوبنا مثل «كينغ كونغ». فخلال المدّة القصيرة التي عمل فيها حمّال جوز هند أصبح جسد شمشون أضخم بكثير. تهادى بروية وقوّة ونفوذ وهو يحمل شيئًا صغيرًا أسود وغزير الشعر على كتفيه. ولم نكتشف إلا بعد أن اقترب بما يكفي أن ذاك الشيء الصغير الشعراني ليس إلا شهدان.

وهذا أبقى كوتشاي، سياسينا الفاسد الذي لم يهتمّ بأن يرينا رأسه الكبيرة حتى الساعة الحادية عشرة.

أخيرًا طلبت منا بو مُس أن ندخل الصفّ. أحزنها عدم حضور كوتشاي وقالت إن علينا مهما كلّف الأمر أن نعيده إلى المدرسة. كان موقف بو مُس من هذه المسألة حازمًا للغاية.

«بالنسبة إلي،» قالت، «أن أفقد طالبًا واحدًا لا يختلف في شيء عن فقدي نصف روحي.»

فكّرنا في سرّنا، لماذا يشكّل طالب واحد كلّ هذه الأهمية؟ لكن بالنسبة إلى بو مُس لم يكن الأمر بهذه البساطة.

«طالما أنا قادرة على الوقوف، لن يخسر هذا الصفّ طالبًا واحدًا.»

عرفنا من شمشون أن كوتشاي لا يستطيع ترك مزارع الفليفلة لأنه قبض أجره مقدمًا.

قرّرت بو مُس أن تقبل أكبر قدر من طلبات الخياطة. انكبّت على العمل ليلاً ونهارًا حتى تجمع المبلغ اللازم لتدفعه عن كوتشاي. سلّمت الصفّ إلى لينتانج طوال ذلك الأسبوع. لم نكترث لأن صفّنا تحوّل إلى إسطبل مفتوح. لم نُعِر الضوضاء التي سبّبتها عربات مشروع الـ ب ن أي اهتمام، مع أنها ما انفكّت تتحرّك إلى الأمام والوراء عبر باحة مدرستنا بينما ازداد اقتراب الجرّافات المهدِّدة. علّمنا لينتانج بإقبال عظيم وكنّا طلابًا مجتهدين. أصبحت لدينا رؤية جديدة: يمكن أن تسحق الجرّافات مدرستنا ولكننا لن نتوقّف عن الدراسة حتى لو عنى ذلك أن ندرس في العراء.

ركبت بو مُس دراجتها ثانيةً بعد أن كسبت ما يكفي من المال وقصدت قلب الغابة متّجهة إلى مزارع الفليفلة النائية لتعيد كوتشاي.

كان اليوم المدرسي قد اقترب من نهايته عندما وصلت بو مُس وكوتشاي على مقعد دراجتها الخلفي. جاء في حالة مزرية، فقطاف الفليفلة أقرب إلى الأشغال الشاقّة. تناوبنا في معانقته بينما استسلم إلى البكاء.

جمعتنا بو مُس في حلقة. ونظراتها تحطّ علينا واحدًا بعد الآخر، أخبرتنا أن

باك هرفان ما كان ليرضى حتمًا أن تتعرّض هذه المدرسة إلى الدّمار. «هذا وقتنا لنقف بعزم.» قالت. «ندافع عن هذه المدرسة مهما حدث. يجب أن ندافع عن كرامة باك هرفان!» كانت يداها ترتعشان. وعندما جاءت على ذكر باك هرفان نهشنا الحزن.

«جفّفوا دموعكم،» قالت بو مُس بتصميم وهي تحاول إخفاء دموعها. «جفّفوها في الحال! ممنوع أن يراكم أحد تبكون خارج هذه الغرفة.»

بعد ذلك نهضت بو مُس فجأة وتوجّهت إلى الخارج. لحقنا بها. مضت بسرعة قاصدةً باحة المدرسة، مباشرةً نحو الضجيج المتصاعد، وصاحت في وجه مشغّلي المكائن الثقيلة، «أوقِفوا هذه الآلات!»

ذهل العمّال وتلفّتوا ينظر بعضهم إلى بعض.

«أوقِفوا هذه الآلات! قلتُ أوقِفوها!»

ماتت المكائن حالاً. أصاب المشغّلين والسائقين والعمّال شيء يشبه الخدر.

«اهدموا هذه المدرسة إذا شئتم، اهدموها. ولكن عليكم أن تفعلوا هذا فوق جثتي!»

شكّلنا أمام بو مُس درعًا بشريًا. إذا أرادت شركة الــ پ ن أن تسقط هذه المدرسة، فعليها أن تسقطنا قبلها.

٣٧

صبيةٌ تتحدّى الملك

من البداية، أدرك الجميع أننا نتحدّى شركة الــ پ ن بلا جلبة. وعرف الجميع أيضًا أن بو مُس بعثت رسالة تدفع فيها بالحجّة التحذير الذي جاءها. مع ذلك، فإن صراخ بو مُس في وجه العمال ليوقفوا المكائن، بيّن بما لا يقبل النقاش نيّتها في معارضة مملكة الــ پ ن. وهذه أول مرّة يتصدّى فيها مواطن عادي لشركة الــ پ ن علنًا، ومن فعل ذلك ليس إلا صبية يافعة؛ مجرّد معلّمة في مدرسة قرية فقيرة.

أصرّت بو مُس بموجب رسالتها على الاجتماع برئيس الــ پ ن. كان تصرّفًا شجاعًا جدًا. لم يسبق قطّ أن أقدم أحد على شيء مماثل، ولا حتى مدير المؤسسة الحكومية التي دحرتها الجرّافات.

بسبب سلوكها هذا، اعتقد العديد من الناس أن بو مُس أصيبت بالجنون. ولذلك جاهدت لتقود دراجتها بسرعة كبيرة كلّما مرّت صباحًا بالسوق لأنها لم تقدر على تحمّل سخرية الناس. ولكن هذا لم يكن حال الجميع. إذا كثيرًا ما قابلها بالتصفيق أعضاء اتحاد الحلاقين وباعة عصير التمر وزوّار أكشاك القهوة والمشرفون على مواقف السيارات.

«ثابري يا بو مُس،» اعتادوا أن يصيحوا. «نحن نؤازرك!»

من ناحية أخرى بدأ بعض الناس من ذوي الأفق الضيق يُرهِبونها. حاول المتشائمون أن يوضحوا لها أن سلوكها الأحمق لن يقودها إلى أي مكان. في ذلك الوقت كانت معارضة أصحاب السلطة من المحرّمات؛ فهم على تلك الدرجة من

القوة، وكثيرة هي الأصوات المعارضة التي اختفت على نحو غامض.

لم تتراجع بو مُس. تمسّكت بموقعها: إذا فشلنا في منع الجرّافات من هدم مدرستنا ونهب القصدير تحتها، يجب على أقلّ تقدير أن يسمعنا من يمثّل السلطة العليا في الـــ پ ن أولاً، لنخبره بما تعنيه مدرستنا بالنسبة إلينا.

لكن، من كانت بو مُس حقيقةً؟ ومن كنّا نحن؟ الكلّ يعرف أن رئيس الـــ پ ن أعلى من أن نصل إليه، وأننا أقلّ من أن يخصص لنا وقتًا. ما لديه من مشاغل أهمّ بكثير من حلّ مشكلة مدرسة قرية لا قيمة لها. وهكذا، أوكلت شركة الـــ پ ن هذه المهمّة إلى رئيس فريق مسح الخرائط، أدنى مسؤول إداري لديها.

كان رئيس المسّاحين متوسط السنّ حسن الأخلاق وليس مفاوضًا فطنًا. وفي الوقت نفسه لم يسرّه الاضطلاع بمهمة الاجتماع ببو مُس؛ لعلّه احترم شجاعتها أو ربما شعر أن التنكيل بمدرستنا غير أخلاقي.

«عيّنني المكتب لأتباحث معك بخصوص نقل هذه المدرسة إلى موقع آخر حتّى يتسنّى للجرّافات أن تعمل هنا،» قال من غير أن يهدر الوقت بالمجاملات.

ابتسمت بو مُس ولم تردّ. انتظر جوابها، لكن معلّمتنا حافظت على صمتها. كان رئيس هذا الفريق حكيمًا بما يكفي ليدرك أنها بعدم الردّ قد ردّت. شكرها واستأذنها لينصرف.

«سأطلع رئيسي على قرارك يا سيدتي.»

لم يُسرّ رئيسه، رقيب العمّال، عندما سمع بما حدث. عنى هذا أنه أصبح على خطّ النار. مهمته عُرقلت لأن مدرسة قرية أظهرت شجاعة كافية لتقف في طريق التنقيب الحتمي عن القصدير. أرسل مرؤوسه المباشر ليستدعي بو مُس إلى مكتبه. قطّبت بو مُس جبينها.

«رجاءً أخبر رقيب العمّال أننا هنا إذا احتاجنا. مناقشة مصير هذه المدرسة يجب أن تأخذ مجراها أمام طلابي، في هذا الصفّ. هم المعنيون بهذه المجازفة أكثر من أي أحد آخر.»

أخيرًا جاء رقيب العمّال. بلا اختلاق جلبة كبيرة أخرج آلة حاسبة وعرض على بو مُس رقمًا كبيرًا جدًا.

«هذا مال ضخم يا بو مُس. تستطيعون أن تشتروا أرضًا تبلغ مساحتها عشرة أضعاف هذه الباحة، ويمكنكم أن تبنوا مدرسة أفضل عشر مرّات من هذه المدرسة.» تكلّم بنبرة تنازلية.

«يا سيدي الرقيب، هذه ليست مدرستي أنا، هي مدرسة الشعب. ثم إنني سبق أن قلت مرارًا وتكرارًا لن نبيع هذه المدرسة مهما تضعضعت، ولن نبيع الأرض التي تقف عليها مهما ارتفعت قيمة العرض.»

كان ردّ فعلها هادئًا، ومن طريقتها في الكلام لن يغيب عن أحد أن شخصًا مثل بو مُس لا يعنيه المال. لم يبهرها المال قطّ على الرغم من فقرها المدقع.

شعر رقيب العمّال بالإهانة وغدا كيديًا. «حسنًا، لعلّ هذا لأنكم هنا لستم في موقع يؤهّلكم للبيع. على حدّ علمي تعود مُلكية هذه المدرسة إلى الجالية الدينية وليس لكم.»

كانت وجهة نظره صحيحة قانونيًا، إلا أنها كانت في هذه القضية بالذات واهية الحجّة.

«يا سيدي الكريم، فعلاً تعود ملكية هذه الأرض للجالية الدينية، ولذلك لا يمكن أن تباع. نحن مؤتمنون عليها، ويقتضي منّا الواجب أن نحافظ على الأمانة. إذا كنت أيها الرقيب مسلمًا أترى أنه ينبغي لي أن أشرح لك ما تعنيه الأمانة للمسلم؟»

غدا وجه رقيب العمّال بحمرة الشمندر من شدّة ما أصابه من إحراج.

غضب رئيس التعدين؛ رئيس رقيب العمّال، غضبًا شديدًا، إذ كان حادّ المزاج بطبعه، وعندما تولّى منصب إدارة قوات أمن الـ ب ن الخاصّة، سلّح رجاله بكلاشنكوفات أي كي - ٤٧. احتدّ على رقيب العمال لعجزه عن تولّي مهمّة بسيطة. وهكذا اضطرّ إلى الحضور إلى مدرستنا بنفسه ليهتمّ بهذه المشكلة التافهة كما رأى، بعد أن نال منه الإحباط مناله، فضلاً عن أنه كان منهمكًا بالمفاوضات مع المستثمرين في جاكرتا وبيليتونج.

ومع أن بو مُس أدركت أنها بصدد التعامل مع مسؤول مشهور بقسوته حافظت على هدوئها. لكن مهار لم يشعر بكثير من الارتياح. فعيّن شهدان، عميل استخباراتنا السرّي ليجري تحقيقاته. أعلمنا شهدان أن رئيس التعدين متبلّد الحس ومن النوع العنيف؛ وهذا بطبيعة الحال مزيج خطير. جمع مهار أعضاء لاسْكار بِلانجي تحت شجرة الفيلسيوم وقال إن الوضع قد يتأزّم ويخرج عن السيطرة. تدارسنا القضية. وفي النهاية توصّلنا إلى حلّ، إلا أنه ذلك النوع من الحلول التي حاولنا سابقًا تفاديها. جاء الحلّ من سياسِيّنا كوتشاي.

«أدعو أصدقائي المراسلين الصحفيين من تانجونج باندان،» قال.

كانت فكرة كوتشاي فذّة.

هرع رئيس التعدين إلى مدرستنا. بدا واضحًا من لغة جسده أنه جاء وفي نيّته أن يطلق العنان لغضب مسعور.

«يا بو مُس،» بدأ، «أأحتاج إلى تذكيرك أن الدولة هي التي تملك شركة الــ پ ن؟ هناك قوانين حكومية تضمن حرية أعمال الدولة التجارية من أجل الصالح العام!»

لم تفتقر بو مُس إلى شيء من سعة الاطّلاع إضافة إلى التزامها الرائع بضبط النفس.

«الصالح العام؟» انبرت تسأله. أأحتاج يا سيد إلى تذكيرك بالقوانين التي تضمن حقّ المواطن بتحصيل العلم؟ هذا القانون مدوّن في دستور البلاد. وعلى حدّ علمي، الدستور هو القانون الأعلى المُتّبع على الأرض. أتحبّ أن أستشهد بالنصّ الأصلي؟»

صعق رئيس التعدين. تبيّن له أنه قد قلّل من شأن بو مُس. وبدا كما لو أنه ضُرب بطابوقة. كان يجب أن يتعلّم من تجارب رئيس المسّاحين ورقيب العمّال.

«في حال قرّرت أن تبقى على إصرارك يا سيد، فنحن سنقيّد أنفسنا بأعمدة هذه المدرسة،» قالت.

أراد رئيس التعدين أن يفلت عنان غضبه لكنه كان واعيًا بحضور المراسلين

المتربّصين والجاهزين لالتقاط صورة ضمنوا أنها في صباح اليوم التالي ستحتلّ الصفحة الأولى، بعنوان عريض يقول: «موظف شركة پ ن يتعامل بوحشية مع مجتمع بلا حول ولا قوة»، أو «رئيس التعدين لا يعرف الدستور»!

حُشر الرجل في بقعة ضيقة. اضطرّ إلى الاعتراف بأن بو مُس محقّة. وخشي أيضًا أن يحتلّ عناوين الأخبار. قرأ المراسلون نيّاته من شتائمه ومن تصرّفه بعيدًا عن اللياقة تحت سقف مدرسة إسلامية عريقة. ولم يغب عن أحد أن في هذا العالم شيئين لا يمكن معارضتهما: الله ثم المراسلون الصحفيون.

في اليوم التالي ظهرت أخبار مقاومتنا في الصحف المحلّية. وبطرفة عين أصبحت مدرستنا التي تشبه سقيفة جوز الهند المبشور مشهورةً. هدر الناس في مختلف الأرجاء بالحديث عن الصبية التي امتلكت شجاعة كافية لتتحدّى الملك، وعن تلاميذها الأحد عشر الذين ارتفعت أسهمهم إلى مرتبة «الأبطال النموذجيين». جلبت لنا مقالات الصحف تعاطفًا بالغًا مع قضيتنا. وأُنهكت مختلف أنواع الأحكام العامة بحثًا، تلك الأحكام التي سبق أن تخمّرت في أكشاك القهوة ومقاهي الرصيف.

ضمن فترة لا تُذكر، ومن أكشاك القهوة طبعًا انتشرت قصص عن أن بو مُس هي في الحقيقة محامية مُعينة من الحكومة ـ تخرّجت في جامعة عُليا في جاكرتا، ومتنكّرة بزي معلّمة مدرسة المحمدية. وإمعانًا في إتقان تنكّرها تتظاهر أيضًا بأنها خياطة. وأسفر الأمر أيضًا عن أن الراحل پاك هرفان كان تقني دراجات برتبة أستاذ وأنه تنكّر على مدى واحد وخمسين سنة بشخصية معلم فقير. وتظاهر أيضًا بزراعة «الكاسافا» في حديقته زيادة في إتقان تنكّره.

أمّا الطلاب فهم في الحقيقة أولاد عائلات غنية. وقد أخفى أهلنا حقيقتنا بأن أظهرونا فقراء. وما فعلنا هذا كلّه إلا، كما زعموا، كي نفضح معاملة شركة الـ پ ن المجحفة بحقّ أهالي بيليتونج.

ازدحمت مدرستنا بالزوار نتيجة ما حدث من هرج ومرج. مدرستنا، التي لم يزرها أحد قطّ من قبل أو منحها بعض وقته، تناوب على زيارتها السياسيون

وأعضاء الأحزاب وأعضاء من الجمعية التشريعية إلى جانب أكابر المسؤولين الحكوميين. أصبحوا فجأة مهتمّين بمحنتنا، على الرغم من أنهم لطالما مرّوا بباحة مدرستنا وهم في طريقهم إلى مكاتبهم الفاخرة ولم يمنحونا ولا دقيقة تفكير واحدة. ثم فجأة عالجت عماهم الأخبار وكمّية القصدير الهائلة تحت مدرستنا والفرصة لإعطاء صورة بأنهم يناصرون الضعفاء. وكما يقول المثل الملايوي القديم: تجلب ضوضاء العسل النحل الطّنان.

كان هنالك أولئك الذين جاؤوا وهم جاهزون لتمثيلنا والتحدّث نيابة عنّا بلا مقابل. عدا عن لوثة الكرم التي أصابت الجميع. أراد شخص ما أن يعوض بو مُس ماليًا عن سنوات خدمتها المجانية؛ وأبدت المنظّمات والمؤسسات استعدادها لترميم مدرستنا.

رفضت بو مُس بأدب المساعدات التي عُرضت عليها لأنها كلّها هدفت إلى الربح الشخصي. رغبت إحدى المؤسسات في التبرع بمضخّة ماء، وقابلتها بو مُس بالرفض مرارًا. إلا أن تلك المؤسسة كانت مصمّمة على ذلك، وفي وقت متأخّر ذات ليلة جاء من ركّب تلك المضخّة عند بئرنا بلا إذن من أحد. وبعد تركيبها التقط المعنيّون بالأمر صورة لهم قربها ومدرستنا تظهر في الخلفية.

أجرت بو مُس العديد من المقابلات مع المراسلين. بل أنا أيضًا أُجريَت معي بعض المقابلات والتُقطت صوري. وكلما وُجّه لي سؤال ارتعدت. لم أعرف ماذا يسألونني أو كيف ينبغي لي أن أجيب. ما عنانا في الأمر أنهم صوّرونا. كان هارون أكثر من ابتهج بالصور طبعًا. وفي كلّ مرّة التُقطت له صورة رفع عاليًا ثلاث أصابع.

كان كوتشاي يضحك طوال الوقت بينه وبين نفسه. أسعده أن يرى مستقبله السياسي يجري بيسر. ربما كان كوتشاي ماكرًا، لكننا هذه المرّة أكبرنا جهوده؛ فالاهتمام بقضيتنا انتشر انتشارًا واسعًا حتى أزعج تيكونج أخيرًا.

شغل تيكونج المنصب الذي يعلو منصب رئيس التعدين. وهو يعتبر الرجل

الثاني بعد زعيم شركة الـــ پ ن. يحمل الناس في أغلب الأحيان لقب تيكونج عندما يصلون إلى سنوات التقاعد لأن هذا اللقب يدلّ على منزلة رفيعة، فالمعلّم الذي يعلّمنا الدراسات القرآنية على سبيل المثال يُدعى تيكونج رزاك.

تكلّم تيكونج بطريقة مختلفة عن أولئك الأدنى منه مرتبة: رئيس المسّاحين ورقيب العمّال ورئيس التعدين، لأنه كان واسع العلم. ولم يلق الأوامر والتهديدات جزافًا.

«لست أتحدّى شركة الـــ پ ن. ولست أكافح من أجل هذه المدرسة بالتحديد، بل أنا أحارب من أجل آلاف الأطفال الملايويين في هذه القرية،» قالت بو مُس.

أومأ تيكونج برأسه.

«هذا البناء ليس مجرّد مدرسة يا تيكونج. لقد أصبح رمزًا، رمزًا للأمل. أمل الفقراء بتحصيل العلم. إذا هُدمت هذه المدرسة، يعلق أطفال القرية إلى الأبد في مزارع الفيلفلة ومعامل جوز الهند والقوارب التي تحتاج سدّ الشقوق ومتاجر المنتجات الصينية. سيكفّون عن الإيمان بجدوى مدارس القرى، ويتوقّفون عن الإيمان بضرورة تحصيل العلم.»

حدّق تيكونج في بو مُس بدهشة ممزوجة بالإعجاب. قال لو أن القرار بيده فسيلغي الحكم.

«لكن القوّة بيد المسؤول الأعلى يا بو مُس.»

هلّلنا عندما قال تيكونج إنه سيرتّب اجتماعًا بيننا وبين رئيس الـــ پ ن. وعلى الرغم من أن احتمال إنقاذ مدرستنا ضئيل، فإن إصرارنا، في أدنى الأحوال، جعل طلبنا الاجتماع بالرئيس الأعلى يتحقّق.

٣٨

الجنّة هنا في قريتنا

أخيرًا، بفضل تيكونج، جاء الردّ على رسالة بو مُس من سكرتيرة المدير الأعلى في شركة الـــ پ ن. أعلمتنا الرسالة متى يتلطّف الرئيس ويستقبلنا.

هاجت القرية بالحديث عن اللقاء الأول من نوعه على الإطلاق. اتصل العديد من الناس ببو مُس وعرضوا تمثيلنا، لكنها رفضت.

كسبنا مزيدًا من المؤيدين. بدأت المشاعر السلبية تجاه الـــ پ ن التي دُفنت طويلاً تفور على السطح. فتح عملنا الريادي عيون الناس على الرغم من حتمية فشل مسعانا، وبيّن لهم أنه حتّى لو كانت مؤسسة ما مملوكة من الدولة، فهي لا تستطيع أن تعامل الناس وفق هواها. وأولئك الذين قالوا في كتاباتهم إن بو مُس مجنونة بذلوا جهدهم ليتراجعوا عن أقوالهم. لم يتخيلوا قطّ أن يوافق المدير على استقبالها.

ركّزنا على الاجتماع. وضعت بو مُس بمساعدة سياسينا كوتشاي خطابًا عظيمًا، تألّف من خمس صفحات من الورق الأبيض. استعرنا آلة كاتبة من مكتب القرية وتولّت سهارى طباعته.

بدأ الخطاب باقتباس مقدّمة دستور ١٩٤٥. ثم انتقل إلى تاريخ التعليم الإسلامي في بيليتونج. وتابع متحدّثًا عن الأطفال الملايويين الفقراء الذين ما عادوا يؤمنون بالعلم، وأشار إلى حكاية النضال الشجاع من أجل التعليم الذي حمل رايته أبطال مجهولون مثل پاك هرفان وغيره من الروّاد. ونكّهناه بما أثبتناه من شأن بفوزنا بالكأسين العظيمين.

قبل إنهاء الخطاب، وبناءً على نصيحة كوتشاي، اقتبست بو مُس البند ٣٣ من الدستور، البند الذي يقول إن التعليم هو حقّ جميع المواطنين. وبعد الاسترسال والإسهاب جاءت خاتمة الخطاب موجزة: لذا رجاءً أيها السيد لا تغلق مدرستنا.

تجمّعنا، كما اقتضت الخطّة، أمام باب المُلكية الرئيس. لبسنا أفضل ما لدينا من ثياب. وظهر أن أفضل ملابس مهار وشهدان ما زالت تفتقد بعض الأزرار. أما أفضل ملابس لينتانج فكانت مبقّعة بعصارة التفاح الوردي. وأفضل ملابسي هي الزي الديني الذي حصلت عليه بعد احتلالي المركز الثالث في مسابقة الأذان عن السنة الماضية. قبل أن ننطلق إلى المكتب المركزي صلينا معًا. كانت صلاة مبهجة ومدمية للقلب في آن واحد. فتح حرّاس الأمن الباب ودعونا إلى الدخول.

دخلنا المُلكية. وما حدث لاحقًا سيكون من الصعب أن ننساه لسنوات قادمة. مشينا متلاصقين والخوف يمنعنا من التقدّم والذهول يلجمنا. مضينا بأفواه فاغرة نعاين مشهدًا لم يسبق لنا أن تخيّلناه ولا حتى في أكثر أحلامنا جموحًا.

كانت أوّل مرّة لنا؛ ما عدا فلو بطبيعة الحال، نرى فيها المُلكية. شعرنا كما لو أننا ما عدنا في بيليتونج.

بدا أقرب بناء إلينا أشبه بالقلعة. ومن القلعة صدحت موسيقى غريبة، أعرف الآن أنها موسيقى كلاسيكية. رأينا حيوانات غريبة تتبختر في الساحة. بعد شهور قليلة اكتشفنا أسماء تلك المخلوقات الغريبة من موسوعة معارف عامة. ديوك رومية وطواويس وحمام إنجليزي وكلاب من فصيلة «البودل»، تُركت كلها هناك تسرح بحرية ولا أحد يراقبها.

رأينا أيضًا مجموعة من القطط الغريبة جدًا التي لم يسبق لنا أنا صادفنا شيئًا يشبهها. كانت مختلفة عن قطط القرية التي أوحت دائمًا أنها تريد أن تسرق شيئًا. كانت قططًا رشيقة وجميلة ومتخمة. من وجوهها أدركنا أنها قد أفسدت دلالاً. وإذا استبدّ بك الفضول يا صديقي لتعرف نوعها فهي قطط «الأنجورا»!

حاولت فلو أن تجعل من نفسها دليلاً مفيدًا نظرًا إلى أنها من أهل المُلكية.

«هذه البيوت هي من مخلّفات المستعمرة الهولندية. نمط فنّها المعماري فيكتوري،» شرحت لنا فلو.

كانت ستائر البيوت عريضة وذات طبقات. ومساحة حدائقها تعادل مساحة باحة مدرستنا. الفناء مفروش بسجّاد من الحشيش «المانيللى» اللطيف مثل ملاعب الغولف. كان هناك مُتنزّه وبركة نمت على حفافها الزنابق الجميلة.

«يا إيبوندا غورو،» همست سهارى بانفعال، «الجنّة على ما يبدو هنا في قريتنا.»

كانت بو مُس مثل شخص تاه في الزمان والمكان. تنظر محبوسة الأنفاس وتكاد تخنقها كلماتها.

«سبحان الله يا صغيرتي، الله أكبر... تأمّلي هذا المكان.»

رافَقنا حرّاس الأمن إلى المكتب المركزي في وسط مُجمّع المُلكية. ثمّ دُعينا لندخل غرفة أمانة السرّ هناك. في تلك الغرفة قابلت بو مّس رفيقات صفّها السابقات اللاتي أصبحن يعملن في شركة الــ پ ن سكرتيرات وموظّفات إداريات. وقد ظهر عليهن يسر الحال أكثر بكثير من بو مُس. ارتدين كلّهن ثيابًا أنيقة في حين بدت ملابس بو مُس متواضعة نوعًا ما.

اقترب رجل يلبس سترة «سفاري» وطلب منّا دخول قاعة الاجتماعات. كانت خيالية نوعًا ما بأثاث ضخم وعريض. مجرّد وجودنا هناك أتلف أعصابنا. بعد وقت قصير نسبيًا دخل رجل افترضنا فورًا أنه المدير المسؤول، وصحبه ثلاثة رجال متهندمين ببزّات رسمية. رأينا بوضوح أنه الآمر الناهي، وأن الذين حوله تباروا في التحرّك بين يديه وتنافسوا على خدمته. كان تيكونج أحد الرجال المتهندمين.

ثبت لنا خطأ ما توقّعناه عنه مسبقًا؛ افترضنا أنه يشبه رئيس التعدين؛ يتّبع أسلوب الترهيب وأنه ما جاء إلا ليربح المعركة. لكن المدير الذي وقف أمامنا كان مختلفًا جدًا. كان رجلاً ضئيل البُنية، ووجهه النظيف ينمّ عن ذكاء عالي المستوى. شعره أبيض وخفيف. بدا ودودًا وراغبًا في الاستماع إلى آراء الآخرين. نظر إلى

بو مُس للحظة ثم ابتسم.

نهضت امرأة، وبعد المجاملات العمومية وحَسنٌ هذا وحسنٌ ذاك قالت لبو مُس، «رجاءً أخبرينا ما سبب حضورك أنت وتلاميذك إلى هنا لمقابلة المدير.»

عدّلت بو مُس جلبابها ووقفت. لكن على الرغم من أنها مرّت بمحن كثيرة، وتعرّضت لتهديد السيد صمديكون القاسي وترهيب رئيس عمّال التعدين، كانت هذه أوّل مرّة أراها ترتعش. فتحت خطاب الصفحات الخمس.

جهّزنا أنفسنا لسماع صوتها يرتجّ وهي تبدأ افتتاحية خطابها، مقدمة الدستور، المعركة التي لا نهاية لها من أجل العلم، مدرستنا كرمز لتعليم الناس المهمَّشين، مصير الأطفال الملايوبين الفقراء، العلم باعتباره حقًا إنسانيًا. كانت أيدينا جاهزة للتصفيق دعمًا لكلّ فقرة تأتي في السياق. لكن بو مُس بقيت صامتة تحدّق في الورق. مرّت لحظات ولم يظهر عليها أنها تستطيع قراءة مخطوطتها.

«نعم يا سيدتي تفضّلي،» قالت المرأة.

لم تحرّك بو مُس ساكنًا. بدت كأنها أرادت أن تقول آلاف الأشياء التي لم ترِد في تلك الصفحات الخمس. لكن كلمة واحدة لم تفرّ من فمها. نظرت إليها زميلاتها السابقات بنفاد صبر.

«هيا يا مُس، هذه فرصتك، تكلّمي!» هسهست إحدى زميلاتها.

بقيت بو مُس صامتة. نظر مدير الــ پ ن إلى بو مُس بدهشة. ونحن أيضًا نظرنا وتهامسنا. ماذا حلّ بمعلمتنا؟ أأصابها رُهاب خشبة المسرح؟ حاولت المرأة التي افتتحت الاجتماع أن تهدئ من روع صديقات بو مُس. بدا كوتشاي نافد الصبر كما لو أنه يفكّر في انتزاع الخطاب من يد بو مُس، كما لو أنه أراد أن يلقيه بنفسه أمام المدير.

«ما الحكاية يا إيبوندا غورو؟» همست سهارى. .

ومع ذلك بقيت بو مُس صامتة. فتكلّم المدير. «تفضّلي يا إيبو غورو، لا تخافي. تكلّمي.»

بدلاً من أن تجيب وقفت بو مُس تحدّق فيه. اتسعت عيناها واهتزّ جسمها.

أحكمت قبضتها على الأوراق التي تحملها بمزيد من القوة. تراءى لنا كما لو أن شيئًا قد استحوذ عليها. ولأننا كنّا طلابها لسنوات وسنوات، حدسنا السبب. لا بدّ أنها تذكّرت پاك هرفان. ولا بدّ أن وجوه مؤسسي المحمدية في بيليتوج تطاردها. المؤسسون الذين تعرّضوا للتهديد والسجن والتعذيب والنفي والطرد والقتل على يد السلطات الاستعمارية لتأسيسهم المدرسة. لم تطق فكرة اضطرارها إلى الدفاع عن المدرسة وحدها. فهي في النهاية لا تقف ضدّ السلطات الاستعمارية بل ضدّ أبناء جلدتها. ترقرقت الدموع في عينيها لكنها أبت أن تبكي. لم ترد بو مُس يومًا أن تظهر ضعيفة أمامنا.

خيّم الصمت على القاعة. أخرجت بو مُس من حقيبتها شيئًا ملفوفًا بمنديل. تقدّمت نحو مدير الـــ پ ن وسلّمته الحزمة.

ثم عادت إلى مقعدها.

فتح المدير الرزمة. احتوى المنديل علبة طباشير. فتح العلبة وأخرج منها قطعًا صغيرة من الطباشير التي سبق أن استعملتها بو مُس.

«شكرًا لك يا إيبو غورو،» قال مدير الـــ پ ن.

وهكذا طلبنا الإذن بالانصراف.

٣٩

تاجر الفقر

عدنا أدراجنا بخُفي حنين. فشلت مهمتنا. حال انفعال بو مُس الشديد دون أن تتحصّن بواجهة احترافية للدّفاع عن مدرستنا. قضت علينا عظمة المُلكية. وثبتت لنا صحة ما قاله الجميع قبل ذلك: المُلكية و الـــ پ ن أقوى من التحدّي.

لم يبق لنا إلا الإذعان لمصيرنا. كلّ ما فعلناه لنحمي مدرستنا: مواجهة المفتش العامّ وبذل الجهود لنيل جوائز رفيعة المستوى وتحدّي الملك، كلّه ذهب هباءً منثورًا.

اتفقنا على الحضور إلى المدرسة في الثلاثاء التالي لننقذ ما تبقّى، وأعني بذلك كأسينا الرائعين. كان الكأسان أثمن ما لدينا وكانا ثمينين لنا وحدنا. اتفقنا أيضًا على أن نودّع بعضنا تحت شجرة الفيلسيوم.

لكن، عندما وصلنا في صباح الثّلاثاء، وجدنا مفاجأة بانتظارنا. لم نسمع في أي مكان ضجيج المكائن الذي أرهبنا لشهور. رأينا عمّال الـــ پ ن يهدمون الثكنات، وفريق النقل والتموين يحزم الأغراض كما لو أن الجميع يستعدّون للتحرّك. والجرّافات التي اتجهت شرقًا بانتظار هدم مدرستنا أصبحت الآن تواجه الشمال.

اندفعت بو مُس صوب باحة المدرسة تستكشف ما يجري.

أقبلت سيارة فاخرة. ترجّل منها رجل واقترب من بو مُس. كان ذاك تيكونج. قال وهو يبتسم، «أصدر مدير الـــ پ ن أوامره لقائد الجرّافات كي يغيّر وجهتها.»

تأثرت بو مُس تأثّرًا عميقًا. ضغطت قلبها بيديها. شكرت تيكونج وأسرعت إلى

مؤخّرة المدرسة. تبعناها. أنقذت بو مس لافتة مدرستنا التي سقطت بوجهها على الأرض ومرّغها التراب. مسحت اللافتة بطرف جلبابها حتى غدت الكتابة مرئية. كانت اللافتة تحمل رسم شمس، وسرعان ما أشرقت أشعتها البيضاء مرّة أخرى. لقد عادت مدرستنا القديمة إلى الحياة.

غلبت علينا نشوة عارمة لأننا استرجعنا مدرستنا. رفعت بو مُس العلم الأبيض والأحمر في الباحة. رفرف بطريقة رائعة، يعصف به الهواء والغبار وهدير المكائن الثقيلة وهي تغادر. درنا ورقصنا حول السارية.

وزّعت بو مُس علينا المهامّ لنعيد ترميم المدرسة. أصلحنا السقف، علّقنا اللوح على الجدار، أضفنا دعامة جديدة حتى لا ينهار المبنى، أعدنا تشييد حديقة أزهارنا المدمّرة.

أغرب ما في الأمر هو أنه بعد تفشّي خبر عدول الجرّافات عن هدم مدرستنا اختفى فجأة جميع الذين توافدوا عليها في السابق من سياسيين وأعضاء أحزاب ونواب. عاد إليهم عماهم. وعاد الناس إلى لا مبالاتهم. حتى المؤسسة التي ركّبت مضخّة الماء بلا استئذان، استعادتها، وفعلت ذلك بلا استئذان أيضًا.

علّمتني هذه التجربة شيئًا مهمًا عن الفقر: إنه سلعة تجارية. ألغت الـ پ ن خطط استغلال القصدير في مدرستنا، وما فعلته لم يجعلنا أكثر فقرًا ممّا نحن عليه. فقط لمجرّد أننا لم نتعرّض للإبادة، انتفى وجود أي نزاع مع الـ پ ن. لا أحد يمكنه ابتزاز الـ پ ن بهدف استغلال الوضع لصالحه، أو ليحصّل الشهرة بدفاعه عن الفقراء. لا أحد يمكنه أن يصبح بطلاً مزيفًا، لا أحد يمكنه أن يكتسب الأصوات الانتخابية من وراء الحادثة. لن تكون هناك صور حزينة مرفقة بعروض جمع التبرّعات. وهكذا، هبطت قيمة فقر مدرستنا في السوق بعد انحسار الجرّافات عنها.

٤٠

وعدي لبو مُس

كانت سماء الصباح مظلمةً، ثم ما لبثت أن هطلت أمطار غزيرة. خُضنا طريق المدرسة الذي أصبح بركة ماء ونحن نحمي رؤوسنا بأي شيء تيسّر لنا.

تجمّع في الصفّ الأحد عشر طالبًا، ولم تكن بو مُس قد حضرت بعد. تزايد زخّ المطر، وقصف الرعد. وقفنا على رؤوس أصابعنا نسترق النظر من بين فجوات ألواح الحائط الخشبية. استحكم فينا القلق ونحن ننتظر بو مُس. ثم لمحناها من بعيد تجري بخطوات قصيرة تحت المطر المنهمر، وتعبر باحة المدرسة محتمية بورقة شجرة موز، تتوقّف بين حين وآخر تحت إحدى أشجار «الغايام» التي تحدّ طرف الباحة الشمالي.

راقبناها باهتمام. لا أحد تكلّم، لكنني عرفت أن قلوب الجميع، مثل قلبي، كانت تختلج: شعور بالتعاطف الممزوج بالفخر والإعجاب. فتلك المرأة النحيلة الهشّة كما يبدو ما انفكت تتعرّض للصعاب، وما انفكت تذلّل عقبة تلو الأخرى. ومع ذلك انظروا كم هي قوية حقًا.

رأتنا بو مُس ونحن مصطفين نترقّب وصولها من خلال الشقوق. كانت تقطر ماءً لكنها ضحكت بسرور متحرّقة شوقًا للقاء طلابها. شعرنا، كما شعرنا دائمًا، أننا أهمّ الأطفال الملايويين. لم تُرد بو مُس أن تفقد ولا واحدًا منّا. هي أيضًا كانت تعادل نصف روحنا، نعمة منّ بها الله علينا، ولا يمكن وصف تفانيها في تأدية واجبها. وبينما راقبتها تعبر الباحة محتمية بورقة شجرة الموز قطعت على نفسي

عهدًا: عندما أكبر سأكتب لمعلمتي هذه كتابًا.

عملت بو مُس بهمّة على رفع روحنا المعنوية مجدّدًا. واسترجعت مدرستنا عهدها السابق، هادئة في أدائها، تحتفي بالتعليم حتى مع قصورها، عظيمة في تواضعها، ومسالمة في فقرها.

جاء يوم تسليم بطاقات علاماتنا مرة أخرى قبل أن ندرك ذلك. كان يومًا مرحًا لأن أهالينا حضروا إلى المدرسة. بعد توزيع العلامات، نكون على مشارف شهر الامتحان النهائي. تشير العلامات الزرقاء إلى النقاط التي فوق خمسة، والحمراء للخمسة وما دونها. إذا حصلنا على أكثر من ثلاث علامات حمراء فلن يُسمح لنا بالترفّع صفًا.

بقي لينتانج محافظًا على المرتبة الأولى، وعدت أنا إلى مرتبتي الثانية. لم يُسرّ هارون بأي عدد غير ثلاثة، وطلب من بو مُس أن تعطيه هذه العلامة على جميع الموادّ في تقريره. نظر إلى «الثلاثات» المتراصفة وهو يضحك ملء شدقيه. أسعده ذلك على الرغم من أن طلبه نزل به إلى رابع أدنى مرتبة في الصفّ.

ثم حدث ما فاجأنا. اعترف كوتشاي بذنبه لأوّل مرة في تاريخ مسيرته السياسية. صحيح أننا اعتدنا على العمل بدوام جزئي بعد المدرسة، إلا أن كوتشاي حرّض أعضاء لاسكار بِلانجي على ترك المدرسة والعمل بدوام كامل. بطريقة نبيلة جدًا طلب من بو مُس أن تحذف علامتين من مادّة الأخلاق المحمدية. درجاته في الواقع لم تكن أبدًا جيدة جدًا، ولذلك أدّى طلبه هذا إلى هبوط مستواه في التصنيف العام وأصبح بعد هارون مباشرة.

لم تُدهش بو مُس كثيرًا من نتائج هارون وكوتشاي، لكن تفاجؤها باسمين غيرهما جعلها تدلّك صدغيها لأن نتائجهما جاءت في غاية السوء. وهما طبعًا ليسا إلا مهار وفلو المثيرين للجدل. وقد أزعجها أكثر من أي شيء آخر هوسهما بالغيبيات الذي أفقدهما الاهتمام بالدراسة. وهذا الهوس هو بحدّ ذاته انتهاك خطير في نظر المحمدية ونظر المسلمين عمومًا. ولزيادة الأمور سوءًا حدث هذا الانتهاك

في مدرسة إسلامية. حدّدت الأرقام الحمراء تقريريهما كما يتحدّد ظهر شخص كُشط بالمعدن كجزء من خضوعه لنوع من التدليك التقليدي. لم ينالا علامات زرقاء إلا في المعرفة الزراعية والمهارات الحرفية وآداب السلوك واللغة الإندونيسية؛ وهي تقتصر على الكلام فقط. كانت علامات فلو أكثر تدنيًا من علامات مهار. نالت على الرياضيات واللغة الإنجليزية والعلوم علامتين فقط، وبدت تلك العلامات كأنها سرب من ست بجعات تسبح كل اثنتين منهما معًا. كان مجموع علاماتها أسوأ حتى من مجموع علامات هارون.

وقع مهار وفلو في مأزق عظيم، وأدركا أن هناك احتمالاً كبيرًا في أن يتأخّرا صفًا. خصوصًا أنهما تسلّما إلى تلك اللحظة ثلاثة إنذارات. ولذلك تآمر والد فلو سرًا مع بو فريشا مديرة مدرسة الـــ پ ن لتغري فلو بالعودة إلى هناك، حيث وعدت بو فريشا بأن تجعل فلو تحصل على درجات تستدعي الفخر. ولإغراء فلو، رتبت بو فريشا الأمر مع مدرّس شابّ وجذّاب وأوكلت إليه محاولة التقرّب منها.

في ذلك المساء مررنا بالسوق ونحن في طريقنا إلى بيوتنا بعد حضور مباراة كرة قدم. كانت بو فريشا والمعلم المرح يتسوّقان. مضت فلو مباشرة نحو بو فريشا مثل راعية بقر تهمّ باستعراض بطولاتها.

«اسمي فلو، فلوريانا،» قالت وهي تسلّم على بو فريشا. هزّ المعلم الجذّاب رأسه بأدب، وأعطى فلو واحدة من أحلى ابتساماته.

«رجاءً أعلمي هذا الرجل أنني لن أتخلّى أبدًا عن بو مُس ومدرسة المحمدية.»

اكتفت فلو بهذا، وتركت بو فريشا والمعلم الجذاب يحكّان رأسيهما. من يومها لم تُطرح ثانيةً فكرة إغراء فلو لتعود إلى مدرسة الـــ پ ن.

أجهد مهار وفلو دماغيهما للتوصّل إلى حلّ يتغلّبان به على أزمتهما. لم يرغبا في الانقطاع عن المدرسة، لكنهما كانا مُدمنين على خوض عالم الخوارق.

من حيث لا يدري أحد، طلع مهار بفكرة هي أكثر الأفكار منافاة للعقل على الإطلاق. قرّر هو وفلو اللجوء إلى الكهانة؛ مفتاح مختصر: مفتاح فريد من نوعه، سخيف، ويتضمّن مخاطر جمّة.

اقتنع مهار ومن بعده فلو أن القوى الخارقة للطبيعة يمكن أن تمنحهما حلاً سحريًا لعلاماتهما المُتدنية، وهما بطبيعة الحال يعرفان شخصًا يمتلك القدرة على تسخير ذلك النوع من القوى لصالحهما. شخص قوي جدًا، نصف رجل ونصف شبح، الشامان توك بيان تولا الذي برهن على قدراته الخارقة يوم حدّد طريق العثور على فلو عندما تاهت في جبل سوليمار. ملك الكهّان يمكن بسهولة أن يغير الستّة إلى تسعة، والأربعة إلى ثمانية، والعلامات الحمراء إلى زرقاء.

رحّب جميع أعضاء «السوسيتيت» ترحيبًا بالغًا بفكرة زيارة توك بيان تولا في جزيرة القرصان، لكن المخاطرة التي تكتنف الرحلة لم تكن ممّا يُستهان به. وفي حال قرّر توك بيان تولا أنه لا يريد استقبالهم، فالزوّار لن يعودوا مطلقًا إلى ديارهم. مع ذلك، أبدوا استعدادهم للمجازفة ما داموا سيحصلون على فرصة رؤية وجه توك بيان تولا، حتى وإن فعلوا هذا مرّة واحدة في حياتهم.

مثّل الإبحار إلى جزيرة القرصان ذروة نشاطات «السوسيتيت» المستكشِفة للخوارق وأهمّها على الإطلاق. كانت البعثة باهظة التكاليف. وكان لا بدّ أن يستأجر الأعضاءُ مركبًا تبلغ قوة محرّكه أربعين حصانًا، وقبطانًا متمرّسًا من شعب السارونغ. وقد طالبهم القبطان بأجر مرتفع جدًا لقاء خبرته، ولأنه على دراية بسمعة توك بيان تولا، ولأنه أيضًا لم يرغب في أن يموت ميتة حمقاء.

عمل أعضاء «السوسيتيت» على جمع المال اللازم. رهن مهار الدراجة التي ورثها عن جدّه. باعت فلو عقدها وسوارها الذهبيين اللذين أعطتها إياهما أمها. تخلّى موجيس عن أثمن ممتلكاته، راديو فيليبس بترنْدين. وتسلّم مزيدًا من مهام رشّ البعوض حتى وصل نشاطه إلى تانجونج باندان. ووسّع مجال خدماته ليشمل الجرذان والزواحف بل والنمل أيضًا. كان مستعدًا لكلّ ذلك. جمع العاطل عن

العمل القمامة وباعها لتحصيل المال. استدان المُتخلي عن الدراسة المال من أبيه. العازف المنفرد على الإلكتون رهن إليكتونه؛ مصدر رزقه. كسر الصيني الذي يعمل بطلاء الذهب حصّالة النقود أمام أطفاله المنتحبين، واشتغل صرّاف البنك وقتًا إضافيًا إلى منتصف الليل. رهن مدير الميناء المتقاعد خزانة العرض الزجاجية التي يملك والتي استلزمت أربعة أشخاص لحملها، مشعلاً بذلك حمم شجار هائل مع زوجته. وأنا نفسي أعرتُ خدماتي لمدير مكتب البريد.

خفقت قلوبنا بانتظار يوم الانطلاق. نجحنا في جمع ١,٥ مليون روبية. مدهش! وما فتئ المال الذي غلبت عليه القطع المعدنية يُخشخش.

لم أر في أي يوم من حياتي مبلغًا كبيرًا من المال كذاك. من غير الحاجة إلى الإشارة أنني بصفتي السكرتير كنت المسؤول عنه. لمسته، وذهلت من شعوري بالثراء. تبيّن لي أنه شعور مرعب قليلاً بالنسبة إلى شخص عاش عمره فقيرًا حتى من قبل أن يتخلّق في رحم أمه. حافظت على المال بعناية وأبقيته دائمًا في جيبي. وفجأة بدا الجميع في نظري أشبه باللصوص. إن للمال تأثيرًا قاسيًا بالفعل.

رحلنا في المساء التالي. حذَّرَنا العديد من صيادي السمك من أن فصل العواصف قد حلّ، وأن الذهاب إلى جزيرة القرصان محفوف بالمخاطر. لكننا لم نتراجع. انجذابنا نحو قوى توك بيان تو لا الخارقة كان شديدًا، وكذلك كان تصميم مهار وفلو على معالجة مشكلتهما في المدرسة. لم ندرك قطّ أن الموت وقف لنا بالمرصاد في عرض البحر.

٤١

جزيرة القرصان

في السّاعة الرّابعة من عصر يوم السبت أبحرنا إلى جزيرة القرصان.

اتّسمت الرحلة في بادئ الأمر بالمرح. طاردت الدلافين مقدّمة المركب. وسطعت الشمس الباهرة فوقنا. ثم بعد وقت ليس بالطويل، ومع حلول موعد صلاة المغرب، بدأت الأمواج تتقاذف مركبنا، وأخذت شراستها تتصاعد مع مرور الدقائق. وكلّما أوغلنا أكثر، ازدادت صعوبة السيطرة على المركب. وما لبثت أن بدأت عناقيد السحب السوداء تحثّ خطاها نحونا. وراحت الصواعق تضربنا واحدة تلو أخرى.

حاول القبطان الالتفاف، لكن قوة الأربعين حصانًا خذلته. خشي أن ينقلب بنا المركب إذا حاولنا مصارعة الأمواج التي بلغ جنونها ذروته. كلّ ذلك والعاصفة الحقيقية لم تصل بعد. ساطتنا الأمواج العملاقة. تجمّعنا في دائرة صغيرة حول السارية وجاهدنا لنصمد.

ندمت لأنني انضممتُ إلى بعثة معتوهي «السوسيتيت» لأقابل الشامان الذي لا يكترث حتى بحياته هو. تفرّست في وجه البحر المظلم غير قادر على تخيّل ما يكمن تحته. أفزعني الغرق في ذلك العالم الغريب القاتم.

ثمّ جاءت العاصفة وأخذت تلطم المركب بلا رحمة. دوّمت الدّوامات ودار المركب حول نفسه كأنه قطب. وقعنا وتدحرجنا على طول ظهر المركب. أطفأ القبطان المحرّك. أنزل الشراع الذي مزّقته الريح، أغلق المخزن ونحّى الأجسام

الحادّة بعيدًا. أمرنا أن نربط أجسامنا إلى السارية. لففنا الحبال حول خصورنا لفات عدّة وأحكمنا ربط أنفسنا لئلا نسقط في البحر.

لم ينبئ وجه القبطان عن وجود بارقة أمل واحدة. هو أيضًا ربط نفسه إلى السارية. إذا حدث وغرقنا فستطفو أجسامنا بعد أن تستقر نهايات الحبال في قعر المحيط، ونبقى معلّقين مثل مجسّات أخطبوط.

جاءت اللحظة التي خشيناها. من بعيد رأينا موجة عالية جدًا. اصطدمت بالمركب وكسرت السارية التي ربطنا أجسامنا إليها محوّلة إياها إلى شظيّتين كبيرتين. ثقبت إحدى الشظايا جسم المركب فراح الماء يتدفّق فيه.

ضربت الشظيّة الأخرى موجيس ومهار والرجل الصيني الذين تمسكوا بالشراع، ورمتهم نحو نهاية السطح. ولو لم يكن تمسّكهم بالشراع مُحكمًا لأصبحوا علفًا لمخلوقات البحر. زعقوا. اعتقدت أن هذه نهايتنا وأن البحر لن يلبث أن يغدو أحمر بينما تحتفل أسماك القرش بوليمتها. وفي أصعب لحظة على الإطلاق سمعتُ صياحًا. كان مدير الميناء المتقاعد يرفع صوته بالأذان مرّة تلو مرّة ونحن نُقذف هنا وهناك والماء يكاد يملأ السطح. ثم، ثم بدأ تلاطم المركب يهدأ شيئًا فشيئًا.

ردّد مدير الميناء الأذان مرّات ومرّات، وبينما صدح أذانه في المدى بدأ عباب البحر ينحو إلى الهدوء. أصبحت الأمواج الوحشية أليفة، وبعد لحظة توقّفت العاصفة كما لو أن أحدًا أطفأ مروحة. اختفت العاصفة ببساطة. سمعت كثيرًا من شعب السارونغ أنهم في حالات البحر المهلِكة عندما يعدمون كل حيلة لمساعدة أنفسهم، فإن سبيلهم الأخير للخلاص هو في سؤال لطف الله من خلال الأذان. وقد أثبت هذا الاعتقاد مصداقيته.

خيّم الليل. دفعنا المركب تحت القمر شبه المكتمل والنجوم اللامعة. شغّل القبطان المحرّك. وعاد المركب إلى الإبحار من جديد.

بعد فترة قصيرة، أطفأ القبطان المحرّك وتفحّص المدى بعينين خبيرتين. لمحنا ظلالاً سوداء أمامنا، غير واضحة ويتخلّلها السديم. أشار وهو يصيح بصوته الأجشّ.

«جزيرة القرصان!»

بدت الجزيرة كما لو أنها لا تريد أي زوّار. كان يمكن سماع عواء الكلاب المتوحشة المديد وهي تنبح على الأشباح التي تحتلّ الجزيرة.

نضح المكان بالعوالم المبهمة. وأوحى بأنه مقبرة: مقبرة الارتداد والخيانة ومعصية الله. تناهت إلينا صيحات قرابين من الحيوانات. وكادت تزكمنا رائحة دم مراق، ونتن جيف متروكة في العراء، ودخان بخور لاستدعاء الشيطان.

لم نر أثرًا للكلاب التي عوت في هدأة الليل. كانت أصواتها في بعض اللحظات تتحوّل إلى ما يشبه بكاء أطفال رضّع أو أنين جدّات عجائز يستجدين الرحمة وألسنة نيران الجحيم تلعقهن. حطّمت تلك الأصوات أرواحنا. لا ريب في أن قدرة توك بيان تولا على التنويم المغناطيسي كانت عظيمة. آنذاك اضطررت إلى الاعتراف بأنه شامان جبّار أينما حلّ به المقام.

رسونا وغادرنا المركب وتتبّعنا ممرًا يؤدي إلى فتحة كهف. كانت الأرض عند فم الكهف مفروشة بأوراق من سعف النخيل على عددنا. عنى ذلك أننا قد قوبلنا بالترحيب. وبقي علينا أن نستعدّ لمواجهة خطر الموت.

لاح لنا في الكهف لباس هفهاف يرفرف. ثم بدأ يظهر ببطء طيف طويل. رأيت الطيف يتحرّك من غير أن يلامس الأرض. أعرف أن الناس يشكّون في حقيقة السحر، لكني رأيت بأمّ عيني بشريًا يطفو في الهواء، ويروح ويجيء مثل جسم لا وزن له. وذاك البشري الذي رأيته هو توك بيان تولا.

انتصب أمامنا على مسافة مترين منّا. وقفنا احترامًا له. كان جسمه مستترًا بقماش أسود. شعره ولحيته وشاربه كلها غير مقصوصة ولا مشذّبة. عظمتا خديه واضحتان ومحددتان تنمّان عن قدرة على إنجاز الأعمال القاسية بشكل لا يمكن تصوره. حاجباه كثيفان وعاليان يدلّان على أنه لا يخشى شيئًا ولا حتّى الآلهة. أما ميزته الأبرز فتمثّلت في عينيه اللتين لمعتا مثل عيني دبّ، عينين طغى عليهما سواد مطلق.

لم يُظهر لنا الشامان الشبح ولا أدنى إشارة مودّة. حدّق فيه مهار من غير أن

يملك جرأة كافية ليقترب. دنت فلو من مهار وشدّت يده. جذبته تلك البنت المميّزة نحو الشامان بلا وجل.

همس مهار بحذر مخاطبًا توك بيان تولا. لم يوله الشامان أي اهتمام. حدّق بعيدًا في المحيط الوامض تحت ضوء القمر. أخبره مهار بصوت لا يكاد يُسمع عن الخطر المميت الذي واجهناه في الطريق إليه.

«عاصفة... رياح عاتية... سارية محطّمة... الأذان...»

استمع توك بيان تولا بلا اكتراث.

«أنا وفلو قد نُطرد من المدرسة. تسلّمنا إلى الآن ثلاثة إنذارات على علاماتنا الحمراء... جئنا نلتمس منك المساعدة لننجح في الامتحان.»

التفت توك بيان تولا بشكل مفاجئ نحو مهار وفلو. امتُقع الولدان الشقيّان وعلاهما شحوب الموت. ربّت الشامان كتف مهار وهزّ رأسه. ارتاحت أسارير مهار. ارتسم تعبير الفخر على وجوه أعضاء «السوسيتيت» لأن الشامان العظيم الذي تُجلّه قلوبهم لمس زعيمهم. عرف مهار ما ينبغي عليه فعله. أخرج ورقة وقلمًا وناولهما باحترام إلى توك بيان تولا. أخذ الشامان الورقة والقلم وعاد إلى كهفه بسرعة لا تُدرك.

ما حدث بعد ذلك كان أقرب إلى الخيال. سمعنا أصواتًا عالية تصرخ في الكهف، كأن عشرة أشخاص يتعاركون. التصقنا ببعضنا ووقفنا متأهّبين لمواجهة الوحوش الخفية المولولة.

كان توك بيان تولا يحارب مخلوقات شريرة في كهفه. بدا أنه توجّب عليه صدّ آلاف الأشباح ليتحقّق مراد مهار. ظهرت علامات الندم على وجه مهار. لم يتحمّل فكرة موت معبوده المحبوب بسبب طلبه النجاح في الامتحان.

تطاير الغبار خارج الكهف. بقيت المعركة مستعرة إلى أن سمعنا في النهاية صيحة هزيمة. ثم ظهرت من الكهف عشرات الأشكال الشبحية التي بدت مثل جثث ملتحفة بقماش أسود، واندفعت تطير هاربة عبر رؤوس أشجار «السانتيجي» قبل أن تختفي فوق البحر.

خرج توك بيان تولا من مدخل الكهف بخرق بالية. كان القماش الذي يستر جسمه ممزّقًا ووجهه في حالة يُرثى لها. أرعبني أن أرى شخصًا بهذه القوّة في تلك الحالة المزرية. لقد وضع روحه على المحكّ في سبيل تحقيق طلب مهار وفلو.

رفع توك بيان تولا لفافة الورق التي تحوي أوامره عاليًا، كما لو أنه يقول، *انظري إلى هذه أنت أيتها الديدان الصغيرة يا عديمة الفائدة. لا أحد ممن يُرى رأي العين أو من عالم الأشباح يمكن أن يقف ضدي. قهرتُ الشياطين في أعماق الجحيم لأحقّق معجزات تتحدّى قوانين الطبيعة. علامات امتحانكم ستتغير في عمق الظلام لتنقذكم في مدرستكم القديمة. خذوا جائزتكم لأنكم أطفال شجعان صارعتم الموت لتقابلونني.*

تخلّى توك بيان تولا عن لفافة الورق فتلقّفها مهار بيديه الاثنتين. انحنى فلو ومهار وبقية أعضاء «السوسيتيت» لتوك بيان تولا. أما أنا فأبيتُ الانحناء وهذا أزعج مهار كثيرًا.

وضع مهار لفافة الورق في أسطوانة مستعملة تستخدم لحفظ كرات الريشة، ثم دسّ الحاوية في سترته. أعطانا توك بيان تولا شروط فتح الرسالة عندما نعود أدراجنا، وأشار إلى مركبنا لنبدأ رحلة العودة. بسرعة البرق مثل الريح تلاشى وغاب عن أنظارنا مغمورًا بظلمة الكهف ودخان البخور.

ركضنا إلى المركب. شغّل القبطان المحرّك وانطلقنا. جرى الاتفاق على أن نفتح الرسالة بعد ثلاثة أيام تحت شجرة الفيلسيوم عندما ينتهي الدوام المدرسي.

٤٢

رسالة الشامان

لم يكن الحدث عاديًا. كان اليوم في منتصفه، وفي باحة المدرسة تجمّع العديد من الناس إلى جانب فريق لاسكار بِلانجي، وجميع أعضاء «سوسيتيت دي ليمباي»، إضافة إلى الوفد الذي أُرسل إلى جزيرة القرصان يوم جرى البحث عن فلو في الماضي.

دعا مهار أيضًا قبطان المركب، وجماعات القيل والقال في أكشاك القهوة، ومدير مكتب البريد، وقادة المراكب، وبعض هواة الخوارق الخبراء. والجميع اعتملت فيهم الإثارة لأنهم سيشهدون فتح الرسالة من جزيرة القرصان.

انتشرت قصة نجاح «السوسيتيت» بسرعة في أنحاء القرية كافّة، وذاعت على الفور شهرة هذه المجموعة التي أصبحت محترمة وما عادت تعتبر مجرد حفنة من مبدّدي الوقت السخيفين. وهكذا احتشد الناس في باحة مدرستنا في ذلك العصر المحدّد ليهنئوا مهار على إنجازه الشاماني، وليشبِعوا فضولهم بخصوص المخلوق الذي نصفه رجل ونصفه شبح، وليكتشفوا نوع الوصفة السحرية التي زوّد بها الشامان هذين التلميذين الكسولين لينجحا في الامتحان.

الطريف في الأمر هو أنه بسبب نجاح «السوسيتيت»، جاء الناس أيضًا لإبداء رغبتهم في الانضمام إلى عضوية منظّمة الأشباح. رأوا أن مهار، هو توك بيان تولا المستقبلي، وأن فلو تحمل بذرة شامان واعدة. أظهروا استعدادهم للتخلّي عن

التفكير السليم مقابل تفكير مهار الغريب. وبصفتي سكرتير «السوسيتيت»، انهمكت في كتابة أسماء الأعضاء الراغبين في الانضمام.

انتظر مهار وفلو بفارغ الصبر مغادرة بو مُس إلى بيتها. إذ لو حدث وعرفت شيئًا عن مراسم فتح الرسالة فستمنع ذلك بالتأكيد.

تبع الجميع مهار وفلو إلى شجرة الفيلسيوم بعد أن تركت بو مُس المدرسة. كان وجهاهما يشعّان بهجة. فعما قريب يختفي عبء علاماتهما الرديئة.

وقف مهار على أعلى جذر من جذور الشجرة بعد أن حجز له المكان أتباعه. بدا كما لو أنه يعتلي منصّة. وكالعادة، ألقى خطابًا. كان مدمنًا على إلقاء الخطب. مسّد بيده حاوية كرات الريشة التي حملت بوليصة التأمين التعليمي له ولفلو.

«الحظّ حليف الشجعان!» أرعد صوته. واندلع التصفيق. «بعنا أغراضنا الثمينة، جازفنا ونحن ندرك أن توك بيان تولا قد يجلينا من على وجه الأرض، وأثبتنا في النهاية أن السوسيتيت دي ليمپاي ليست مجموعة من البُله!»

هزّ أعضاء السوسيتيت رؤوسهم بزهو، مُثنين على أنفسهم وعلى زعيمهم مهار قبل كل شيء.

«غزونا البحر وكدنا نغرق وأنقذنا أذان مدير الميناء.»

سُرّ مدير الميناء بهذا المديح. ضمّ يديه إلى صدره وانحنى على الطريقة اليابانية.

«شهدنا بأنفسنا توك بيان تولا يخوض معركة مهلكة مع الأشباح من أجل هذه الرسالة! وأشعر، بصفتي زعيم السوسيتيت، أنه يكِّن لي الاحترام!»

قام مهار هنا بحركته المزعجة والمضحكة في آن.

«لقد أثبتت علوم التخاطر والميتافيزيقيا والخوارق أنها صالحة للاستخدام في أي مجال!» تابع وأشار إلينا نحن رفاق صفّه.

«أنتم هناك! اقرأوا ما تشاؤون من الكتب إلى أن تسقط مُقَلكم. ادرسوا إلى أن تتقيأوا، لكن توك بيان تولا سيجعلنا أنا وفلو أذكى منكم. وسنترفّع في الصفوف إلى

أن لا يعود في المتناول أي صفّ آخر!»

تأذّت معدتي من محاولتي كتم ضحكي، وفي الوقت نفسه أدهشتني طلاقة مهار الخطابية. كان خطابه أفضل من أي خطاب ألقاه سياسينا كوتشاي، وأعظم حتى من الخطابات التي يلقيها وزير التربية.

دنت أخيرًا اللحظة المُرتقبة. فتح مهار حاوية كرات الريشة المختومة. ترنّح من فرط توتره. فهو لن يلبث أن يقرأ إعلان استقلاله واستقلال فلو من استعمار العلم المُتطلّب.

أخرج بحذر بالغ لفافة الورق من الحاوية.

لم يفتح الورقة مباشرة. «هذا أعظم شرف للسوسيتيت دي ليمپاي،» قال بصوت مخنوق.

أراد الجميع الاطّلاع على الكلمات السحرية التي دوّنها أعظم شامان في العالم. تسارعت دقات قلوبهم. أولئك الذين لم يستطيعوا الاقتراب بما يكفي اعتلوا فروع شجرة الفيلسيوم الواطئة ليشهدوا واقعة قراءة الرسالة. تضرّج وجه فلو بالحمرة وهي تحاول عبثًا كبت اندفاعها، وما انفكّت تتململ في وقفتها. ببطء، فتح مهار اللفافة، وهناك، كُتب على الورقة بخطٍّ واضح:

هذه تعليمات توك بيان تولا:

إذا أردتما النجاح في الامتحانات،

افتحا الكتب وادرسا!

درجنا على مشاهدة الأفلام مرّتين في الشهر بعد صلاة المغرب في بناء يشبه الحظيرة؛ بناء يستعمله عمّال الـــ پ ن لعقد اجتماعاتهم. ويُعرف أيضًا باسم سينما الطبقة العاملة. الأفلام التي تُعرض فيه تقدّمها شركة الـــ پ ن للأطفال الذين لا يعمل ذووهم لديها. كانت السينما رديئة ومن نوعية الدور المفتوحة، مزوّدة بمكبري صوت من نوع ت و أ. ولأن الأرضية ليست مصمّمة كأرضيات قاعات السينما

المتدرّجة لم يكن المشاهدون في المؤخرة يرون شيئًا. وكنّا نحن العشرة وفلو معنا نشغل عادة آخر صفّ مقاعد.

أما أبناء الموظفين في الـــ پ ن فكانوا يتفرّجون على الأفلام في مكان آخر اسمه «ويسما ريا» أو دار المرح. تُعرض الأفلام هناك أسبوعيًا. وكانت تقلُّ روّادَ السينما حافلةٌ زرقاء. وطبعًا لا بدّ من الإشارة إلى اللافتة التحذيرية الصارمة خارج المسرح: يُمنع دخول من ليس له حق.

عندما قرّرنا الذّهاب إلى السينما في أحد الأيام، لم يملك أحد منّا فكرة عن أن عنوان الفيلم الجميل: «جزيرة الأميرات» هو في الحقيقة فيلم رعب. اعتقدنا بناءً على العنوان أننا سنشاهد قصة تصوّر مجموعة من الأميرات الجميلات يمرّغن أجسادهن بمستحضرات السمرة، ويتراكضن ضاحكات هنا وهناك على الشاطئ.

«لطيف،» قال كوتشاي بوجه باشّ.

لكن ظهر أن تفكيرنا ذهب بنا بعيدًا. إذ بعد لحظات قلائل من بداية الفيلم ظهرت ساحرة ذات نقيق شرير. ثم انضمت الغيلان إلى النقيق، وفر «س باجيو» نجم الفيلم بجلده طلبًا للنجاة.

من مؤخّرة القاعة رأيت أبناء العمال ينكمشون في مقاعدهم كلّما ظهرت الساحرة الشريرة الطائرة. بكت البنات. ولم يمتلك بعض الأطفال شجاعة كافية ليتابعوا الفيلم فهربوا من المسرح المُضعضع ولم يعودوا.

من مقعدي رأيت عن اليسار شمشون الذي امتنع عن متابعة الفيلم وأخفى رأسه تحت إبط شهدان. شهدان أخفى رأسه تحت إبط آكيونج، وآكيونج أخفى رأسه تحت إبط كوتشاي، وكوتشاي أخفى رأسه تحت إبطي. أنا وترapاني احتمينا بإبطي مهار. بكى ترابانى كالأطفال وصاح مستغيثًا بأمّه كلّما هدمت الساحرة قرية. وأبقى مهار رأسه محنيًا كأنه يصلي.

لم يجلس معتدلاً إلا هارون وفلو وسهارى. وضحك الثلاثة بصوت عالٍ على «س باجيو» الذي هرب كالمجنون من الساحرة. وعندما نجح في الإفلات منها صفقوا.

في الطّريق إلى البيت من المسرح، أمسك كلّ منا يد الآخر. ولما مررنا بالمقبرة غدت يد تراپاني باردة كالثلج.

في اليوم التّالي أثناء فترة استراحة العصر، أصرّ شمشون على أن «س باجيو» هو من كان يطارد الساحرة. ولا أحد عرف لماذا وقر في نفسه هذا الاعتقاد. فما قاله هو عكس ما حدث فعليًا.

«مستحيل،» قال كوتشاي.

«رأيتك ترتعد تحت إبط شهدان،» قال آكيونج.

حاول شمشون الدفاع نفسه. «أتفرّجتَ أنت؟ على حدّ علمي لم يصمد أحد إلا هارون وسهارى وفلو.»

زجرتنا سهارى باستياء. «كلّ الصبيان جبناء!» قالت وهزّ هارون رأسه موافقًا.

«إذا فوّتنا بعض المشاهد لا يعني هذا أننا نجهل كيف جرت أحداث الفيلم،» قال كوتشاي متصديًا لشمشون.

«آه! وماذا تعرف على أي حال؟ اذهب ورجّل شعرك أو أي شيء آخر.»

ضحكنا، وأخرج كوتشاي مشطه.

كنا في خضمّ معركة كلامية، تراپاني وحده وقف مذهولاً. كان تراپاني في الآونة الأخيرة أهدأ من المعتاد وفي أغلب الأحيان بدا كأنه في غيبوبة.

شعر شمشون بالخجل من الإقرار بأنه أخفى رأسه تحت إبط شهدان. لم يرد أن يحطّم صورة الرجل صاحب العضلات المفتولة.

احتجنا إلى وسيط لإنهاء النقاش، شخص يمتلك معرفة واسعة وكلمات ذكية. لكن لينتانج الذي زوّدنا دائمًا بالحلول لم يظهر له أثر على مدى يومين. ولم تردنا أخبار منه.

بدأ القلق ينتابنا عندما لم يظهر لينتانج في اليوم التالي أيضًا. لم يتغيّب لينتانج عن المدرسة يومًا واحدًا خلال جميع السنوات التي قضيناها معًا. كنّا في موسم المطر، وهو ليس وقت العمل في تجفيف لبّ جوز الهند، ولا هو موسم جني

«البطلينوس». وأشجار المطاط قد بُزلت في الشهر الماضي. لا بدّ أن أمرًا جديًا طارئًا اضطرّه إلى عدم الحضور، لكن بيته كان أبعد من أن نرسل أحدًا إليه ليأتينا بالخبر اليقين.

جاء يوم الخميس، ولينتانج لم يظهر طوال أربعة أيام متتالية. بدا الصفّ فارغًا بدونه. حدّقت بتوق في المقعد الشاغر إلى جانبي. أمعنت النظر إلى فرع شجرة الفيلسيوم حيث اعتاد أن يجثم ليراقب قوس القزح، ولم أجده هناك.

ما عاد الصفّ على حاله مع غياب لينتانج. افتقدنا أجوبته العظيمة، كلماته الذكية، وافتقدنا متابعته وهو يناقش المعلّمة. بل حتى افتقدنا شعره الأشعث، وصندله الغثّ وجرابه المصنوع من الخيزران.

حدانا الأمل في يوم الاثنين التالي أن نرى لينتانج وابتسامته المشعّة وأحدث حكاية من حكاياته المدهشة. إلا أنه لم يأت. وفيما نحن نتّفق على القيام بزيارته، جاء إلى المدرسة رجل هزيل حافي القدمين. كان من قرية لينتانج. سلّم الرجل رسالة إلى بو مُس.

قرأت بو مُس الرسالة. لقد مررنا بأوقات محزنة كثيرة مع بو مُس على مرّ السنين. وتعرّضت بو مُس إلى اختبارات صعبة لا نهاية لها، لكن كانت هذه أوّل مرة نراها تبكي. تساقطت دموعها على الرسالة. ذُهلنا. مضيتُ إليها فناولتني الرسالة لأقرأها. كانت قصيرة.

إيبوندا غوررو،

لقد توفي أبي. سآتي إلى المدرسة غدًا لأودّعكم.

تلميذك،

لينتانج.

كان لينتانج أكبر الأبناء في عائلة صيّاد السمك الفقير، وأصبح لزامًا عليه أن يُعيل أمّه وشقيقاته الصغيرات وأجداده الأربعة وعمّيه العاطلين عن العمل. وليست

لديه فرصة من أي نوع ليواصل تعليمه لأن عليه تأمين لقمة عيش ما لا يقل عن أربعة عشر شخصًا. ذلك العبء الثقيل يجب أن يقع على عاتق فتى ما زال طري العود لأن والده النحيل صاحب الوجه اللطيف قد مات. الرجل الذي يشبه شجرة الصنوبر سقط. ووارى جثمانَه الثرى الذي وارى أيضًا آمال ابنه الوحيد العظيمة.

اتفقنا على وداعه تحت شجرة الفيلسيوم. كنت أنازع من الداخل. شعرت بالفراغ يعمّ قلبي. لم يكن الوداع قد بدأ بعد عندما انبرى ترابِاني ينشج نشيجًا متواصلاً. جلس هارون وسهارى معًا متشابكي الأيدي واستسلما للبكاء. ذهب مهار وشمشون وهارون مرّات عدّة ليغسلوا وجوههم، بحجّة الاستعداد للصلاة كما زعموا، لكنهم فعلوا ذلك في الواقع ليتخلّصوا من دموعهم. غرق آكيونج في حالة من الذهول وطلب أن ندعه وشأنه. فلو التي لم تلتق لينتانج إلا من فترة قريبة والتي لا تتأثّر بسهولة حطّت عليها الكآبة؛ وحدّقت في الأرض بعينين كامدتين. وتلك أول مرة أراها فيها حزينة.

كان علينا أن نتخلّى عن عبقري بالفطرة. كان لينتانج مثل المنارة. بعث من حوله دائمًا طاقة عظيمة وبهجة وحيوية. ولطالما اغتسلنا ونحن قربه بالضوء، الضوء الذي صفّى أذهاننا وأذكى فضولنا وفتح لنا طريق الاستيعاب. منه تعلّمنا التواضع والتصميم ومعنى الصداقة. وعندما ضغط ذلك الزرّ على طاولة الماهوغاني في مباراة التحدّي الأكاديمي غرس فينا الجرأة لنحلم.

اضطرّ فتى عبقري، ابن أغنى جزيرة في إندونيسيا، إلى ترك المدرسة بسبب الفقر. فأر صغير مات جوعًا في مخزن يغصّ بالأرز. معًا ضحكنا وبكينا ورقصنا حول نيران المخيم. لم نسأم قطّ من أفكاره الجديدة والمتمرّدة. افتقدت عينيه اللطيفتين وابتسامته البريئة وكلّ كلمة ذكية خرجت من فمه، حتى قبل أن أودّعه الوداع الأخير.

لم يكن في هذا عدل. لينتانج الذي حارب حتى الموت من أجل تحصيل العلم، تحتّم عليه أن يرحل الآن. عندما واجهت مدرستنا خطر الدمار بقي ثابتًا ليرفع

معنوياتنا. كرهت أولئك الذين يعيشون في حضن الرفاهية في المُلكية. كرهت نفسي وكرهت رفاق صفّي لعجزنا عن تقديم المساعدة للينتانج لأن عائلاتنا كانت هي أيضًا فقيرة جدًا، وعلى أهالينا أن يكافحوا يومًا بيوم لتأمين لقمة العيش.

جاء لينتانج بوجه خالٍ من أي تعبير. لم يخفَ عني أن قلبه كان يبكي، يقاوم بيأس عدم رغبته في وداعنا. المدرسة، أصدقاؤه، كتبه والدروس عنت له العالم بأسره. كانت هي محور حبّه ومحور حياته.

عانقنا لينتانج. انهمرت دموعه ببطء، وعناقه القوي باح برفضه التخلّي عنّا. لم أتحمّل رؤية وجهه البائس، ومهما حاولت المداراة تغلّب عليَ حزني وأفرغ الدموع من عيني. عجزت عن التفوّه ولا حتى بنصف كلمة لأقول وداعًا. بكينا كلّنا. ارتعشت شفتا بو مُس التي حبست دموعها. لم تسمح لدمعة واحدة بالهروب من مقلتيها على الرغم من احمرار عينيها. أرادتنا أن نكون أقوياء. وخزني صدري وأنا أراها على تلك الحال. لم يمرّ علينا قطّ يوم محزن كذاك في تاريخ بيليتونج، من دلتا نهر لينجانج إلى شاطئ بانجكالان بوناي، من جسر مارانج إلى تانجونج باندان.

في تلك اللحظة، أدركتُ أننا كنّا كلّنا أخوة النور والنار. تعاهدنا على البقاء مخلصين مهما ضربتنا الصواعق والأعاصير التي تهزّ الجبال. كُتب عهدنا في طبقات السماء السبع، شهوده التنانين الغامضة التي حكمت بحر جنوب الصين، ومعًا شكّلنا أجمل قوس قزح أبدعه الخالق.

بعد اثني عشر عامًا

٤٣

توقّع قدر الله

اقتربت مني امرأة متوسطة العمر مع رجل اسمه دهرودجي. مشكلة؛ نعم، لا بدّ أن هناك مشكلةً ما من جديد.

«إذا أردتِ أن تغضبي يا سيدتي فصبّي جام غضبك على هذا الرجل الفوضوي،» زأر دهرودجي.

تفحّصتني المرأة التي بدت جذّابة جدًا بالنسبة إلى عمرها. هممت للحظة. مكياجها، أسلوب نطقها الغريب لحرفي الراء والجيم، حاجباها المرفوعان، وطريقتها في النظر إليَ تركت كلّها عندي انطباعًا بأنها قضت مدة طويلة في الخارج، وأنها قد نالت كفايتها من قلّة كفاءة هذه البلاد.

ظهر أنني أخطأت في تصنيف رسالة موجّهة إليها من مكتب الجمارك، لتستردّ بموجبها نقود ضريبة لوحة اشترتها من وراء البحار. وترتّب على هذا الخطأ أن وصلتها الرسالة متأخّرة. كان ينبغي أن أضعها في صندوق تشياوي، لكنني وضعتها عن غير قصد في صندوق جانانج سيندور. خطأ بشريّ.

أخطأت ثلاث مرات هذا الأسبوع. ألقيتُ اللوم على حِمْل العمل الثقيل. أعجزني تدبّر كمّيات الرسائل الهائلة وفكّ امتدادات الرموز البريدية غير المألوفة. ولم يرغب دهرودجي؛ رئيس قسم التسليم، في الاستماع إلى مشاكلي.

نظرت بقنوط إلى الأكياس ذات الحروف الثلاثية المؤشّرة بختم الاتحاد البريدي العالمي، بينما تابعت المرأة الجذّابة تشكّيها. كرهتُ فوضى حياتي. أحد مؤشّرات الحياة الفاشلة هو أن يصيح عليكَ زبون حتى قبل أن يتاح لك تناول فطورك الصباحي. على أي حال، بعد عملي في مكتب البريد مدّة طويلة، أصبحت أعرف كيف أصمّ أذني.

«هو فاك مويت إك جه دات نوغ زيغن!» قذفتني بكلماتها واستدارت لتغادر. لقد فهمتها جيدًا، ألم أفعل؟ عنت جملتها، اشتكيت مرات عديدة وما زلت ترتكب الأخطاء نفسها!

عدت إلى التحديق شارد الذهن بالأكياس ذات الحروف الثلاثة. وعلى الرغم من شعوري بالكآبة لأن هناك من صاح في وجهي، ما زال علي أن أفرز الرسائل، لأن أوّل دفعة من سعاة البريد لا بدّ أن تأخذ الرسائل العاجلة في الثامنة صباحًا. كنت عامل بريد، مهمّتي فرز الرسائل في قسم العمليات المستعجلة، وأداوم في النوبة الصباحية التي تبدأ مع الفجر.

كنت أشعر بنفور كبير من مفارقات حياتي الساخرة. اختفت خطتي أ التي وضعتها في الماضي، والتي نصّت على أن أصبح كاتبًا ولاعب ريشة طائرة، غاصت عميقًا والتصقت بقعر صندوق فرز الرسائل. حتى خطتي ب التي اقتضت أن أكتب عن لعبة تنس الريشة فشلت، مع أنني في أعماق قلبي ما زلت متمسّكًا بالتقديرات الجميلة التي حصلت عليها من أبطال اللعبة السابقين ووزير التربية.

لقد كتبت ذلك الكتاب. بلغ تقريبًا ثلاثة وثلاثين فصلاً، وأكثر من مئة ألف كلمة. لأعكف على كتابته أجريت بحثًا مركّزًا عن اتحاد كرة الريشة الطائرة. تعمّقت في الثقافة الشعبية واتجاهات التطوير الشخصي لأجعله غنيًا. حتى عنوانه كان مؤثّرًا: «تنس الريشة واكتساب الأصدقاء». لم تشهد إندونيسيا قطّ كتابًا مثله. لسوء الحظّ، وبناءً على اعتبارات تجارية لم يُبد أي ناشر استعداده لنشره. كان الناشرون يسعون وراء الكتب الخلاعية المتخمة بكلمات تدرّ الربح مثل العازل الذكري والاستمناء وهزّة الجماع.

في النهاية، أصبحت مجرّد رجل يحاول طمأنة نفسه كل يوم. ومهما فعلتُ لأطمئن نفسي، لأجعلها أقوى، ألحفت في الغرق تحت أكداس الفشل المتكوّمة فوقي. منذ عهد بعيد، علمني پاك هرفان وبو مُس ألا أتراجع أمام الصعوبات، لكن في هذه المرحلة من حياتي واجهني القدر بما يُعرف بالضربة الفنية القاضية.

ثمّ، ذات صباح محبط جدًا تحت المطر المنهمر، حزمت بجديلة من البلاستيك أربع نسخ رئيسة من كتابتي مع ستة أقراص مُدمجة تحتوي الملفات، وربطت معها بعقدة يستحيل فكّها ثقّالة ورق من الصفيح تزن نصف كيلوغرام، من النوع الذي يُربط عادة بأكياس البريد. جريت نحو جسر سيمبور في بوجور في جاوة الغربية. وهناك أغمضت عيني وألقمت أعماق نهر سيليوانج كتاب تنس الريشة الطائرة. رأيت أنه في حال لم تعلق الحزمة بين أحجار النهر، فستطفو مع مياه الفيضانات المتّجهة إلى جاكارتا منجرفة بعيدًا وهي تحمل أحلامي.

كلّما واجهني أمر مربك، هربت إلى أجمل مكان عرفته؛ المكان الذي اكتشفته في طفولتي عندما شنّ الحب هجومه علي لأوّل مرّة في حياتي. ذاك المكان هو قرية جميلة ذات حدائق غنّاء تحيط بها أسوار الحجارة الرمادية، ودروب غاباتها مظلّلة بأغصان أشجار الأجاص. آه، إنها إدنسور، جنّة خيالي.

كانت تلك القرية ترياق قلبي المحطّم. وكلما زادت حياتي صعوبة أكثرت من لجوئي إلى كتاب «هيريوت». كثيرًا ما زرت إدنسور في أحلامي. وعندما أستيقظ أستشعر ألما في صدري لأن الأحلام تذكّرني بمحبوبتي آلينغ، وتجعل الحياة تغدو فوق طاقة احتمالي.

في أحد الأيام وأنا عائد إلى البيت من عملي في فرز الرسائل، جلست وحدي تحت شجرة عند طرف حقل سيمبور على مقربة من النُزل الذي أقيم فيه. وواجهت مياه سيليوانج الجارية وشكوت أمري إلى الله. «ربّاه، ألم أتوسّل إليك منذ عهد بعيد بأن تجعلني أي شيء ما عدا عامل بريد، إذا أخفقتُ في أن أصبح كاتبًا ولاعب تنس الريشة؟ ألم أتوسّل إليك ألا تمنحني عملاً يبدأ مع صلاة الصبح؟»

كان واضحًا أن الله استجاب لصلواتي بعكس ما سألته تمامًا. هذا هو تدبير الله. إذا نظرنا إلى الصلوات والاستجابة لها باعتبارها متغيّرات في دالّة الخالق الخطيّة، نرى في هذه الحالة أنها لا تختلف عن الموسم الماطر. أكثر ما يسعنا فعله هو القيام بالتوقّعات. بل أريد أن أخبرك شيئًا يا صديقي، تدابير الله غريبة. تلك التدابير لا تمتثل المُسلّمات أو النظريات.

لذا، ها أنا هنا الآن. يصف موظفو مكتب الإحصائيات الحكومي أناسًا مثلي بأنهم أولئك الذين يعملون في قطاع الخدمات الحكومية، ويستهلكون أقل من ٢١٠٠ سعرة حرارية في اليوم، وأنهم قرب خطّ الفقر.

الفقر، صديق حياتي الدائم. كنت رضيعًا فقيرًا، وطفلاً فقيرًا، ومراهقًا فقيرًا، وأصبحت بالغًا فقيرًا. كنت معتادًا على الفقر كاعتيادي على أخذ حمامي اليومي.

وضعي الديموجرافي: أعيش حياتي وحيدًا، مهمَلاً، أعمل عشر ساعات يوميًا، وأُصنَّف ضمن الفئة العمرية ما بين عشرين إلى ثلاثين سنة. أما رسمي البياني فهو: رجل وحيد يتضور جوعًا للاهتمام. يعتبرني مسوقو السلع التجارية فردًا من الجمهور الذي يستهدفونه لمنتجات زيوت الشعر، وحبوب زيادة الطول، ومستحضرات منع تساقط الشعر، والمشدّات، ومزيلات الروائح الكريهة، أو أي منتج آخر له علاقة بتعزيز الثقة بالنفس. العالم لا يهمّه أمري، والدولة لا تعرفني إلا من خلال رقم توظيفي في مؤسسة البريد والذي يتألّف من تسعة أرقام: ٩٦٧٢٧٥٣٣٧.

لم تكن هناك أي بهجة في عمل فرز الرسائل. هذا العمل لم يُدرج مع المهن التي عرضها تلاميذ مدرسة الـــ پ ن في الكرنفال. كنت أغرق يوميًا في بحار عشرات الأكياس البريدية من أُممٍ أنا لا أعرف أسماءها حتى. عرق ممزوج بالغبار. ومستقبلي أن أتقاعد فقيرًا وأزور بانتظام المستوصف الذي نصّ عليه التأمين الحكومي، ثم أموت بائسًا كأي نكرة.

كنت بعد الدوام أعود إلى مسكني منهكًا إلى درجة عزوفي عن الاختلاط بالناس. وربما بسبب الإحباط الذي نجم عن انهيار أحلامي بدأت أعاني من مرض

يعانيه من هم تحت وطأة الإجهاد: الأرق. كلّ ليلة وأنا نصف نائم نصف صاح أستسلم لتخدير قصص «وايانغ» الإذاعية. وبعد انتهاء القصّة يبقى الأرق رفيقي. ثم صرتُ أستسيغ الاستماع إلى خشخشة الراديو إلى أن يطلع الصباح. وهكذا شعرت أن الجنون قد بدأ يحطّ علي رويدًا رويدًا.

بعد كل ليلة تعذيب، باكرًا جدًا في الصباح، وأهالي بوجور يتمرّغون في أسِرّتهم الدافئة، كان علي أن أتوجّه إلى عملي. أزحف خارج سريري في الجوّ البارد، أترنّح على دراجتي في طريقي إلى مكتب البريد على طول نهر سيليوانج الذي لم ينكشف عنه بعدُ ضباب الصباح الكثيف، لأفرز آلاف الرسائل. وبينما ينهض أهالي بوجور ويتثاءبون، أو يبقون في أحضان أسِرّتهم كأنهم اليرقات، أو يفتحون بتكاسل صحف الصباح وأمامهم الشاي الساخن والخبز المحمص، أستمتع أنا أيضًا بفطوري: شكوى السيّدة الهولندية.

تلك كانت حياتي. مستقبلي غير واضح المعالم، ولا أملك أدنى فكرة عما قد يحمله. الشيء الوحيد الذي تيقّنت منه هو أنني إنسان فاشل. لعنت نفسي كلّ مرّة اضطررت فيها إلى الوقوف في باحة مكتب البريد في اليوم السابع عشر من كلّ شهر لحضور مراسم رفع العلم التي تؤديها هيئة المستخدمين الحكوميين الإندونيسيين.

إذا بقي هناك شيء يمكن أن يُدعى مثيرًا في حياتي فذاك ليس إلا «إرين ريسفالديا نوفيلا». كانت طيّبة القلب ومتديّنة وذكية وجميلة، وفي الحادية والعشرين من العمر. لقّبتها بالفائزة، لأنها مُنحت جائزة لتفوّقها في واحدة من أهمّ الجامعات عالية المستوى في إندونيسيا، حيث درست علم النفس. إرين هي ابنة أخي الذي سرّحته شركة الـــ پ ن من عمله لديها. فتحمّلتُ مسؤولية تمويل دراستها.

كان إعيائي من العمل طوال النهار يزول فجأة كلما رأيت الذكاء المشعّ في عيني أرين، إقبالها على الدراسة، ومواقفها الإيجابية. وقد رضيت عن طيب خاطر أن أعمل من أجلها وقتًا إضافيًا، وأن أتسلّم أعمالاً أخرى مختلفة مثل مترجم لغة

إنجليزية، وطابع على الآلة الكاتبة، وناسخ ملفّات بدوام جزئي. وكنت على استعداد للتضحية بكلّ شيء بما في ذلك رهن آلة التسجيل التي أعتبرها أثمن ممتلكاتي لأموّل دراساتها.

كانت تجربتي المرّة مع لينتانج مؤلمة. وقد عملت أحيانًا بمزيد من الجهد من أجل إرين لأعوّض شعوري بالذنب الذي سيطر علي لأنني عجزت عن مساعدة لينتانج. منحتني إيرين الشعور بأنني ما زلت مفيدًا للعالم بطريقة ما مهما كلل الفشل حياتي أو حطّ عليها البؤس. لم تكن حياتي تتضمّن ما يستحقّ أن أفخر به، ولذلك أردت أن أكرّسها لشيء مهمّ. وكانت إرين الشيء الوحيد الذي له مغزى عندي.

كانت تمرّ بفترة عصيبة، فقد أنهت سنتها التحضيرية في الفصل الماضي، وما زالت منذ خمسة أشهر تبحث عن موضوع أطروحة جيّد. رفض المشرف عليها كلّ ما عرضته عليه من اقتراحات. ومع آخر رسالة رفضٍ أرفق المشرف خمس عشرة صفحة تحتوي عناوين أطروحات كتبها الطلاب الآخرون. ألقيت نظرة على العناوين. ورأيت أن ما ذكره المشرف صحيح، فقد كتب ثلاثون طالبًا تقريبًا في المواضيع التي اقترحتها إرين: اضطراب الشخصية، والتوحّد، والرضا الوظيفي، ومتلازمة داون، وتوعية الأطفال.

طالبها المشرف بأن تطرق موضوعًا جديدًا، شيئًا مختلفًا، شيئًا يمكن أن يحقّق إنجازًا علميًا كبيرًا لأنها طالبة حاصلة على الجوائز. وقد اتفقتُ معه.

في الواقع كان لدى إرين تصوّر ما عن موضوع فريد. أخبرتني أنها تودّ إجراء بحث عن حالة نفسية يكون فيها الفرد معتمدًا اعتمادًا كاملاً على فرد آخر، إلى درجة أن التابع يعجز عن القيام بأي شيء في حال غياب الشخص المتبوع. أخبرت المشرف وأعطاها موافقته.

أما المشكلة فتمثّلت في نُدرة هذا النوع من الحالات. كانت هناك بعض حالات التبعية، لكن درجة حدّتها منخفضة، وبالتالي لم تتطلّب معالجة خاصة. كانت إرين تبحث عن حالة حادّة. وفي خضم بحثها عن الحالة المنشودة تواصلت مع علماء النفس والأطباء النفسيين وأساتذة الجامعات ومؤسّسات الصحة العقلية وأطباء

مستشفيات الأمراض العقلية في جميع أنحاء إندونيسيا. بحثت إرين عن هذه الحالة أربعة أشهر تقريبًا ولم تجد ضالتها. وبدأت تشعر بالإحباط.

ثم طرقت البشارة بابها. تسلّمت رسالة من مدير مستشفى «سنجايليات» للأمراض العقلية في بانجكا، وقالت الرسالة إن المستشفى لديها حالة كتلك التي تبحث عنها.

جزيرة بانجكا هي جارة جزيرة بيليتونج، والجزيرتان تقعان في المحافظة نفسها، بانجكا – بيليتونج. لذا عندما طلبت مني إرين مرافقتها، لم أتردّد في أخذ إجازة من عملي في فرز الرسائل. وفي الوقت نفسه خطّطنا لزيارة قريتنا الأمّ في بيليتونج.

كانت مستشفى «سنجايليات» للأمراض العقلية قديمة جدًا. بناها الهولنديون، ودعاها أهالي بيليتونج «زال باتو» أو «غرفة الحجارة،» لأن الجدران في غرف المعاينة كانت مصنوعة من الحجارة. ونظرًا إلى عدم وجود مستشفيات أمراض عقلية في بيليتونج؛ وهذا صحيح إلى اليوم، كان الناس الذين يعانون من أعراض عقلية خطيرة يرسلون في أغلب الأحيان عن طريق البحر إلى المستشفى في بانجكا. ولهذا السبب عنى اسم «زال باتو» دائمًا لأهل بيليتونج كلّ ما هو مؤلم ومظلم وميؤوس منه.

عندما وصلنا، سمعنا الأذان يتردّد من المساجد المحيطة بـــ «زال باتو». دخلنا المبنى القديم الأبيض المدعوم بأعمدة طويلة.

واجهتنا أبواب فولاذية ضخمة الأقفال، وعنابر أدوية فيها قناني صغيرة كثيرة، ومناضد معاينة قابلة للطي، وعمّال بلباس أبيض، ومرضى يكلّمون أنفسهم أو يحدّقون في الفراغ بطريقة غريبة. فاح المكان برائحة كرائحة المستشفيات.

اقترب منا ممرّض. عرف أننا ننتظر ففتح لنا الباب. دخلنا رواقًا طويلاً اصطفت على جانبيه غرف المرضى. حدّقت في وجوه المرضى الواقفين خلف القضبان الفولاذية. تحوّلت القضبان الفولاذية إلى عشرات السيقان البشرية، ومن

الفجوات بين السيقان رأيت وجهًا مجدورًا أعرفه. فتح الحزن الذي يعمّ مستشفى المجانين مكانًا مظلمًا في رأسي؛ المكان الذي يختبئ فيه بودينغا.

اصطحبنا الممرّض إلى مكتب الأستاذ يان، مدير المستشفى الذي كاتب إرين. كان وجهه هادئًا وأصابعه تداعب حبّات مسبحة في يده.

«تُعدّ هذه الحالة من الحالات المتطرّفة المتعلّقة بعقدة الأمّ.» قال بصوت ثقيل. «لا يستطيع الابن الشابّ أن يفترق عن أمّه ولا دقيقة واحدة. إذا استيقظ من النوم ولم يرها يبادر إلى الصراخ بطريقة هستيرية. هذه التبعية المزمنة أدّت إلى إصابة الأم بالجنون. مضى على وجودهما هنا حوالي ست سنوات.»

قادنا الأستاذ يان إلى غرفة صغيرة معزولة. خشيت أن أتخيّل ما أنا بصدد رؤيته. تدافعت الأفكار في رأسي. أتراني أمتلك من القوة ما يجعلني أتحمّل مشاهدة مثل تلك المعاناة الرهيبة؟ أليس من الأفضل لي أن أنتظر في الخارج؟ وقبل أن أتخذ أيّ قرار فتح الأستاذ يان الباب.

وقفنا في المدخل. كانت الغرفة كبيرة وبسكون الموت. الضوء الوحيد فيها انبعث من مصباح منخفض أخفق في تسليط الإضاءة نحو السقف العالي. لم تحتو الغرفة على أثاث باستثناء مقعد طويل وضيّق في الزاوية.

هناك، على المقعد الطويل، على بعد خمس عشرة خطوة تقريبًا جلس مخلوقان مسكينان متقاربين؛ أمّ وابنها. بدا عليهما القلق، كما لو أنهما يتوسّلان أن ينقذهما أحد.

اتّسمت جلسة الابن الهزيل جدًا بالاعتدال، شعره الطويل حجب وجهه. شعر سالفيه وحاجبيه وشاربه كان غزيرًا وأشعث. أما بشرته فشاحبة.

بدت الأم هشّة. أخفت عيناها في محجريهما كمًّا هائلاً من الألم، في قدميها خفّ أكبر بكثير منهما. وكشف وجهها عن إجهاد عقلي لا يُطاق.

راوح الاثنان النظر إلينا ما بين تارة وأخرى، إلا أنهما أبقيا رأسيهما مطأطئين أغلب الوقت. جلس الابن وهو متعلّق بذراع أمه. وعندما دخلنا ازداد التصاقًا بها. استأذنتُ لأخرج من الغرفة.

ساعد الأستاذ يانُ إرينَ على إجراء مقابلة مع المريضين. بعد ساعة ونصف الساعة انتهت المقابلة. أشارت لي إرين لأودّع الام وابنها. رجعت إلى الغرفة واغتصبت ابتسامة على الرغم من تفطّر قلبي وأنا أتخيّل معاناتهما.

غادرنا نحن الثلاثة الغرفة. كنت الأخير في الخروج، وتحتّم عليَ أن أكون مَن يغلق الباب. في تلك اللحظة ناداني صوت.

«إكال...»

فوجئ الأستاذ يان وإرين بقدر ما فوجئت أنا نفسي. التفتنا لننظر. لم يكن هناك أحد آخر غير ثلاثتنا وغير المريضين المسكينين. تردّدت في فتح الباب.

«إكال،» صاح الصوت مرة أخرى.

كان من الواضح أن مَن يناديني هو أحد المريضين.

أدرت مقبض الباب واقتربت بحذر. وقف الاثنان. تفرّست فيهما باهتمام. حنت الأمّ رأسها وبكى الابن. ارتعشت شفتاه وهو يعيد لفظ اسمي مرّة تلو مرّة، كما لو أنه كان ينتظرني منذ سنوات. أشار لي لأقترب.

تقدّمت لأتأمّلهما عن قرب والحيرة ما زالت تعصف بي. أزاح الشابّ شعره عن وجهه وفي تلك اللحظة كدت أغيب عن رشدي. أردت أن أصرخ. كنت أعرف ذلك الرجل؛ إنه ترابانی.

٤٤

الخطة ج

مرّت الحافلة التي رجعت بنا إلى قريتنا بمتجر «سينار هارپان». لم يتغيّر المخزن قيد أنملة؛ ما زال في حالة فوضى عارمة. ظهر إلى جانبه دكان جديد اسمه «سينار پيركاسا» أو «شعاع القوة». لفت نظري العامل هناك. كان ضخمًا وطويلاً، شعره الذي بلغ طوله حدود كتفيه معقوص على طريقة الساموراي وأكمامه مشمّرة. ولن أدهش إذا كان اسم الدكان الجديد مستوحى من مظهر العامل.

حوّلت نظري إلى متجر «سينار هارپان» وابتسمت لنفسي وأنا أستعيد ذكريات الحبّ فيه. ما زالت مشاعر جميلة حتى بالنسبة إلى بالغ مثلي. يبدو أن ذلك الحبّ تدفق إلى ما هو أعمق من قيعان صفائح الكيروسين المكدّسة في المتجر. في الحافلة العتيقة، تحت حصار الشوق شعرت فجأة بأنني محظوظ لأنني على الأقل عبّرت عن حبي. إذ على حدّ علمي لا تتاح فرصة اختبار روعة الحبّ الأوّل لجميع الناس. على الرغم من أنني خسرت حبّي الأول ذاك اعتبرت نفسي أحد المحظوظين.

يمكن أن يصبح المرء نزّاعًا إلى الشكّ، وينحو إلى الارتياب دائمًا لأنه تعرّض يومًا للخيانة على يد شخص واحد. ولكن حبًا صادقًا واحدًا هو أكثر من كافٍ ليغيّر كامل تصوّر المرء عن الحبّ. أو على الأقلّ تلك كانت حالتي. ومع أن الحبّ عاملني كثيرًا بقسوة في سنّ الرشد، ما زلت أؤمن به، كلّ ذلك بسبب فتاة لديها أظفار سحرية في متجر «سنينار هارپان». أين هي الآن يا ترى؟ لا أعرف طبعًا، وفي الوقت الحاضر لا أريد أن أعرف. كانت صورة ذلك الحبّ بجمال بحيرة

لوتس، وأردتها أن تبقى كذلك. إذا التقيت آلينغ ثانية قد تبهت تلك الصورة. كانت بالنسبة لي فينوس بحر جنوب الصين، ولا أريد أن أتذكّرها إلا على هذا النحو.

أخرجت من حقيبتي «لو أنهم ينطقون فقط»، الكتاب الذي أعطتنيه آلينغ وأرادته أن يكون رمزًا لحبّنا الأوّل. وأنا هناك في الحافلة أدركت أن حياة البلوغ التي عشتها استُلهِمت من ذلك الكتاب، الكتاب الذي بلي لأنني حملته معي أينما ذهبت. مثال «هيريوت»؛ قرية إدنسور التي وصفها، وعلاقة الكتاب بتجربتي العاطفية مع آلينغ، كلّ ذلك نفخ فيَ روح التطلّع إلى المستقبل بتفاؤل.

بعد مرور أسبوع على إلقائي مخطوطة «تنس الريشة واكتساب الأصدقاء» في نهر سيليوانج، قرأت إعلانًا عن منحة لمتابعة دراسة الماجستير في الاتحاد الأوروبي.

ذهبت إلى البيت مباشرة. بحثت عن ورقة، أمسكت قلمًا وأجلست نفسي على كرسي. وضعت الورقة أمامي على الطاولة وبدأت في كتابة بنود خطّة. تلك كانت خطّتي ج: أردت متابعة تحصيلي العلمي!

درست كالمجنون لامتحان دخول الجامعة حيث تدرس إرين. بعد قبِولي بدأت أعيش حياتي كأنها معركة. عملت نهارًا وليلاً في فرز الرسائل وفي أعمال أخرى متفرّقة استطعت تأمينها لأسدّد الأقساط. لم أكن قد أنهيت درجتي الجامعية بعد، ومع ذلك تركّز ذهني على منحة التخرّج من الاتحاد الأوروبي. ركّز! ركّز! تلك كانت كلمتي السحرية.

أنهيت دورات التعليم الجامعي بسرعة، ودونما إهدار لحظة أمسكت استمارة منحة الاتحاد الأوروبي.

لم أصرف ولا دقيقة واحدة على أي شيء ما عدا التحضير لامتحان المنحة. قرأت أعدادًا هائلة من الكتب وبقدر ما أُتيح لي.

قرأت وأنا أفرز الرسائل، وأنا آكل، وأنا مستلقٍ في سريري أستمع إلى قصص «وايانغ» الإذاعية. قرأت الكتب وأنا في شاحنة النقل الصغيرة العامة. قرأتها وأنا

في العربات التي تجرّها الدرّاجات، وأنا في المرحاض، وأنا أغسل ثيابي، وأنا أمشي. قرأتها والزبائن يصيحون علي، قرأتها ومديري يوجّه لي إهانات مبطّنة، وخلال مراسم تحية العلم. ولو يستطيع البشر أن يقرأوا وهم نيام لفعلت ذلك بالتأكيد. جاءت أوقات قرأت فيها وأنا ألعب كرة القدم؛ بل حتى قرأت وأنا أقرأ. غطيت جدران غرفتي المستأجَرَة بصيغ التفاضل والتكامل، صفحات اختبارات «الجيمات» وقواعد الأزمنة.

في ليلة يوم سبت، ذهبت إلى سوق أنيار في بوجور. التقيت بائعًا متجولاً من مينانج يبيع ملصقات. لفت انتباهي وجه لطيف بنظارة مستديرة. عرفت أنني في هذه المرحلة من حياتي احتجت إلى الإلهام. اشتريت المُلصق. في تلك الليلة، ابتسم «جون لينون» وهو على جدار غرفتي. في أسفل المُلصق، كتبت العبارة السحرية التي ذكّرتني دائمًا بأن أكون أكثر فعالية: الحياة هي ما يحدث لك بينما أنت مستغرق في إعداد خطط أخرى!

سرعان ما أصبحت زائرًا مخلصًا لمكتبة المعهد الإندونيسي للعلوم في بوجور. وزيادة على ذلك طلبت تسلّم نوبة الفجر لفرز الرسائل، النوبة التي لطالما كرهتها من قبل، كي يسعني الرّواح مبكرًا إلى البيت لأدرس. وعندما يكون عبء العمل ثقيلاً علي، أُعدّ خلاصات صغيرة على قصاصات ورق؛ متّبعًا أسلوب الترابط الذهني الذي علّمنيه لينتانج مرة. وأقرأ تلك القصاصات وأنا أنتظر ريثما يُفرغ رجال التسليم حمولة أكياس الرسائل من الشاحنة.

في البيت، درست إلى وقت متأخر من الليل. وتبيّن لي أن أرَقي يعمل لصالحي. كنت أكثر المصابين بالأرق إنتاجًا. وكلما أتعبتني الدراسة فتحت كتاب «لو أنهم ينطقون فقط».

يجب أن أفوز بتلك المنحة. ليس لدي أي خيار آخر. لا بدّ أن أحصل عليها! تلك هي الكلمات التي ما فتئت تدقّ في قلبي كلما وقفت أمام المرآة. كانت المنحة تذكرة خروجي من حياة ليس فيها ما يجعلني أفخر بها.

استمرّ الامتحان المحطِّم للأعصاب شهورًا. بدأ بدورة إقصاء تمهيدية في ملعب كرة قدم ازدحم بالمتقدّمين للامتحان. بعد سبعة أشهر وصلت إلى مرحلة تسمّى الدورة النهائية، وهي تتضمّن مقابلة في مؤسسة كبيرة في جاكارتا. يُجري المقابلة النهائية وزير سابق وسيم التقاطيع ويعشق التدخين. «عادة مقرفة،» تذكّرت قول «مورغان فريمان» في أحد أفلامه.

وصلت إلى المؤسسة، وللمرّة الأولى في حياتي وضعت ربطة عنق. وتلك القماشة المتدلّية لم ترغب قطعًا في أن تكون صديقتي.

طلبت مني امرأة دخول غرفة. كان المدخِّن جالسًا هناك وثمّة سيجارة تتدلّى من بين شفتيه. دعاني إلى الجلوس قبالته وتفحّصني بعناية. لا ريب في أنه قال لنفسه إن هذا الفتى القروي سيحرج إندونيسيا في الخارج. ثم قرأ رسالتي التي تتحدّث عن حافزي لمتابعة دراستي؛ رسالة يكتبها أي متقدِّم للمنحة يشرح فيها سبب اعتقاده بأنه يستحقّها.

عبّ الوزير السابق نفسًا عميقًا من سيجارته، ثم، كالسّحر لم يظهر أثر للدخان، كما لو أنه ابتلعه تاركًا إياه يستقر في صدره للحظة. وبينما استمتع بسمّ النيكوتين استرخت عيناه ورمشتا ببطء بضع مرات. ثم، بابتسامة جدّ راضية نفث الدخان الذي حلّق أمام وجهي دفعة واحدة.

لسع الدخان عينيّ، وتعاركت مع السعال والغثيان، لكن ماذا يمكنني أن أفعل؟ فالرجل الذي أمامي بيده تذكرتي إلى المستقبل التي أريدها بكلّ جوارحي. تماسكت على الرغم من شعوري برغبة ملحاحة في التقيؤ، ورددت على ابتسامته بابتسامة مصطنعة كابتسامات مضيفات شركات الطيران.

«ممم.. أنا مهتمّ برسالتك التي تشرح حافزك. أسبابك وطريقة توضيحك للأمور بالإنجليزية مؤثّرة،» قال.

ابتسمت ثانية، هذه المرة مثل وكيل التأمين.

وفي سرّي قلت إنه لا يعرف بعدُ أن الرجال الملايويين حاذقون جدًا في استعمال الكلمات.

بعدئذٍ، فتح الوزير السابق مشروع بحثي الذي تضمّن حقل البحث وموادّه وموضوع الأطروحة الذي سأعمل عليه في حال حصلت على المنحة. يتعلّق مشروعي بالقيام ببحث موسّع على نموذج لتحديد الأسعار التحويلية. صمّمت النموذج خصيصًا لحلّ مشاكل تسعيرات خدمات الاتصالات، ويمكن أيضًا أن يُستخدم مرجعًا لحل نزاعات الترابط بين مُشغّلي الاتصالات عن بُعد. طوّرت ذلك النموذج مستخدمًا معادلات متعددة المُتغيرات؛ المبادئ التي تعلّمتها من لينتانج في كلّ تلك السنين السابقة.

«آه، وهذا أيضًا مثير للاهتمام!»

أراد متابعة الكلام، لكن سيجارته المحبوبة بدت أهمّ. عاد إلى إمداد رئتيه بالدخان.

«ممم... هذا موضوع يستحقّ مزيدًا من الدراسة، حافل بالتحدّيات. من وجّهك في كتابته؟» ابتسم ابتسامة عريضة فيما أخذ الدخان يتماوج خارج فمه.

عرفت أنه مجرّد سؤال بياني فاكتفيت بالابتسام. وفي قلبي قلت، مدرسة المحمدية وبو مُس وپاك هرفان ولينتانج ولاسكار پِلانجي.

«مضى وقت طويل وأنا أنتظر رؤية مشروع بحث كهذا. وها قد جاء أخيرًا، ومن عامِل بريد! أين كنت طوال هذه المدة أيها الشابّ؟»

سؤال بياني آخر. ابتسمت وفكّرت، إنِنسور. بعد فترة زمنية ليست طويلةً بدأت أدرس في جامعة في أوروبا. جعلني وضعي الجديد أرى حياتي بمنظار مختلف. وأكثر من ذلك، شعرت بالارتياح لأني وفيت ديني الأخلاقي لمدرسة المحمدية وبو مُس وپاك هرفان ولينتانج ولاسكار پِلانجي.

٤٥

وعده الثالث

مضت الحافلة المتفككة عابرةً السوق. وغاب متجر «سينار هاريان» عن مرمى البصر. وما لبثت أن ترجّلت من الحافلة في الشارع المقابل لدار أمّي.

سمعت من بيت أحد الجيران أغنية «رايان بولو كيلا يا» أو «إغراء جزيرة جوز الهند.» وهي الأغنية المعهودة التي تبثّها إذاعة صوت إندونيسيا إيذانًا بحلول موعد نشرة أخبار الظهيرة. كان يومًا حارًا وهادئًا. بيد أن الهدوء تبدّد فجأة بهدير بوق شاحنة ثنائية المحور، تستوعب حملاً من عشرة أطنان، وتقوم على ثمانية عشر دولابًا يبلغ عرض الدولاب منها مترًا.

جلس في مقعد السائق رجل ضئيل الجسم ما انفكّ ينطّ ويتقلقل وهو يقود الشاحنة التي بدت كبيرة جدًا بالنسبة إلى حجمه الضئيل. كان الرجل ينقل في شاحنته رمل الزجاج.

«أراك عدتَ أخيرًا يا إكال. إنه يوم حافل بالعمل! عرّج على الثكنات،» صاح. كان ذاك لينتانج.

لم أحظَ إلا بفرصة تلويح يدي بعد أن أنزلت الحقائب الأربع التي حملتها على كتفي. وبقيت واقفًا هناك ألوّح للغبار بينما مضى مبتعدًا.

زرتُ الثكنات في اليوم التالي. كانت تمتدّ على طول الشاطئ، وليس لها أبواب؛ مثل مرابط الماشية. في هذا المكان يرتاح عشرات سائقي حمولات الرمل أثناء تناوبهم على العمل سحابة أربع وعشرين ساعة، يطاردون دومًا الموعد النهائي

لنقل الحمولة إلى المراكب. مراكب تُحمّل بآلاف الأطنان من ثروات بيليتونج، ووجهتها مجهولة.

دخلت الثكنات وعاينت المكان من حولي. كان ثمّة موقد كبير في الوسط يستخدمه العمال ليدفئوا أنفسهم من رياح البحر الباردة. في الزاوية أكوام من صفائح الكيروسين وعلب السجائر والرافعات ومفاتيح مختلفة ومضخّات نفط وبراميل وإبريق ماء صالح للشرب، كلّها ملقاة بلا ترتيب. قدور سوداء، صفائح قصدير، علب مواد طاردة للبعوض، قهوة ورزم معكرونة فارغة، كلّها مبعثرة على الأرض الترابية حيث وُضعت سجّادة صلاة أيضًا. تقويم يعرض نساء يلبسن البكيني؛ عُلّق مائلاً على الحائط. وعلى الرغم من أننا كنّا في شهر أيار لا أحد اهتم بتغيير صفحة شهر آذار. يبدو أن الجميع هناك اتفقوا على أن صورة آذار هي الأجمل.

جلس لينتانج قبالتي على صوفا قريبة من الموقد. كان فقيرًا وقذرًا وأعزب ويعاني من سوء التغذية.

لم أقل شيئًا. بدا واضحًا أن صراعه مع مصيره قد استنزفه. ذراعاه صلبتان بسبب طبيعة عمله الشاقّ، وباقي أعضاء جسمه ضعيفة وهزيلة. وعلى الرغم من بشرته الجافة الملوّثة بالشّحم والمحروقة بالنفط، زيّنت وجهه ابتسامة حلوة ومرحة. أصبح شعره أكثر احمرارًا وتشعثًا. رثيتُ لحال المبنى وحال لينتانج؛ رثيتُ النَجابة المهدورة.

بقيت صامتًا وأنفاسي تُطبق على صدري. كانت الثكنات مبنية على أرض مرتفعة عن البحر. سمعت دويًا عاليًا، نظرت من النافذة عن يميني ورأيت زورق قَطْر يمرُّ جارًا خلفه مركب بضائع. اهتزّت أعمدة الثكنات على وقع دوي محرّك زورق القطر. تماوج الدخان الأسود المتصاعد. خرق الزورق سكينة البحر، باعثًا الصحوة في الأمواج والماء الرقراق الذي لاح مثل زجاج متعدّد الألوان بفعل بقع النفط العائمة.

واصلت مراقبتي زورق القطر ومحرّكه المقرقر. ثم تهيأ لي أنه كفّ عن

الحركة، وأنني أنا والثكنات مَن وما يتحرّك. قرأ لينتانج الذي جلس يتفحّصني منذ البداية ما يدور في رأسي.

«نسبية آينشتاين للاقتران الزمني،» قال مسفرًا عن ابتسامة مريرة. لا بدّ أن توقه إلى الدراسة قد أجّج لواعج قلبه.

يمكن القول إن لينتانج لم يختبر بالضبط ما اختبرته. عندما ينظر شخصان إلى الجسم نفسه من منظورين مختلفين لا تتطابق تصوّراتهما. وهذا ما جعل لينتانج يقول الاقتران الزمني. كانت استعارة مفيدة لفحص حياتنا في الوقت الحاضر.

سمعت الهدير ثانيةً. كان في الحقيقة زورق قطر آخر يمضي في الاتجاه المعاكس للزورق الأول. ولم تكن مؤخّرة الأوّل قد اختفت تمامًا من المشهد. نظرت يمينًا وشمالاً وقارنت أطوال زوارق القَطْر العابرة.

لاحظني لينتانج. قرأ مرّة أخرى ما يدور في ذهني.

«تناقض،» قلت.

ابتسم لينتانج. «نسبي،» أجاب. «لا ترى الأشياء الثابتة أبعاد أي جسم متحرّك كما تراه الأشياء المتحرّكة. فالزمن والمسافة ليسا مُطلقين بل نسبيين، وهذه فرضية مثبتة. تحدّى آينشتاينُ نيوتنَ بهذه الفكرة، وهذه هي البديهية الأولى لنظرية النسبية التي أطلقت شهرة أينشتاين.»

ياه يا لينتانج! منذ أن كنّا صغارًا لم أجد قطّ سببًا واحدًا يجعلني أكفّ عن احترامه. ما زال حاضر الذهن كالسابق، حتى وإن خبا بريق عينيه وأصبح كامدًا مثل الرخام المكدّر بالرمل.

تفرّست فيه مليًا وشعرت بالحزن يجتاحني. تخيّلته يلبس بنطلونًا أبيض وسترة أنيقة مُتقنة التفصيل فوق قميص طويل الأكمام بلون البحر، ماضيًا إلى المنصّة ليقدّم بحثًا في منتدى علمي مشرّف. والبحث يتعلّق على الأرجح بأهمّ الاكتشافات في حقل علم الأحياء البحرية أو الفيزياء النووية.

ربما هو يستحقّ ثقافة رفيعة المستوى أكثر من أولئك الذين يدّعون الثقافة ولكنهم مجرّد علماء مزيّفين، مساهماتهم في المجتمع تقتصر على علاماتهم ومشاريع

تخرّجهم، وهي لأنفسهم فقط، لأن جلّ همّهم ينصبُّ على جمع ثرواتهم الخاصة. أردتُ أن أقرأ اسم لينتانج في مقالة تخصّ مجلة علمية. أردت أن أخبر الجميع أن لينتانج؛ خبير علم الوراثة الوحيد في إندونيسيا، هو شخص تبحّر في مثلث «پاسكال» منذ أيام المدرسة الابتدائية، وفهم التفاضل والتكامل في سنّ صغيرة جدًا، وأنه كان تلميذًا في مدرسة المحمدية في بيليتونج، وكان رفيق مقعدي.

لكن اليوم هو مجرّد رجل هزيل يجلس على عقبيه بانتظار حلول نوبته في العمل. رجل يعمل ليلَ نهارَ مسلّمًا تطلّعاته في أن يصبح عالم رياضيات إلى مدراء رمل الزجاج من أجل أجر أسبوعي تافه. تذكّرت يوم أغلق عينيه لما لا يزيد عن سبع ثوان ليجيب على مسألة رياضية صعبة، يوم صاح «جان دارك!»، يوم حكم كأنّه الملك في مباراة التحدّي الأكاديمي مؤجّجًا شعلة معنوياتنا وثقتنا بأنفسنا.

تأمّلت الثكنات من حولي. كانت صورة زفاف والدي لينتانج معلّقة على الجدار. تذكّرت تلك الصورة. تذكّرت أنه جلبها معه إلى مباراة التحدّي الأكاديمي، وفيها تقف أمّه وأبوه أمام مشهد خلفي سخيف: مرج وسيارة تحيطها عائلة سعيدة المظهر، وأشجار غريبة ذات أوراق حمراء، وذلك لتبدو تلك الصورة كما لو أنها في مكان ما في أوروبا. كنت في أغلب الأحيان أتخيّل لينتانج وقد أصبح أوّل عالم رياضيات ملايوي. لكن ذلك الخيال تبخّر، لأنه هنا، في هذه الثكنات المصمتة عديمة الأبواب انتهى الأمر بإسحق نيوتن الذي يخصّني.

«لا تحزن يا إكال. فأنا على الأقلّ قد وفيت بوعدي لأبي بألا أصبح صياد سمك.»

غضبت. شعرت بخيبة الأمل لأن الكثير من الأطفال الأذكياء اضطرّوا إلى ترك المدرسة لأسباب اقتصادية. لعنتُ كلّ أولئك الناس المتغطرسين الأغبياء الذين يتظاهرون بالنجابة. كرهت أبناء الأغنياء الذين يتخلّون عن تعليمهم.

٤٦

بيليتونج جزيرة المفارقات الساخرة

هذا أكثر أجزاء القصة إيلامًا. ولا أرى هنا أنه من السخف مقارنة شركة الـــ پ ن ببرج بابل، لأنه ما من ورقة واحدة تسقط من غير علم الله. وهو تناظر ملائم: إذ عندما أنشِئت محافظتنا «بانجكا - بيليتونج»، أصبح رمزها الرسمي المختصر «بابل».

في أوائل التسعينات هبط سعر القصدير العالمي من ١٦,٠٠٠ دولار أميركي لكل طنّ متري إلى ٥,٠٠٠ دولار أميريكي، فرُكِعت الـــ پ ن. أُغلِقت منشآتها، وصُرف عشرات آلاف المستخدمين. وشهدت تلك الفترة أكبر عهد بطالة مرّ على إندونيسيا.

بلا سابق إنذار، انهارت في ظرف أيام شركة «جوليفير» التي حكمت لمئات السنين. وهكذا اتضح أن الرمز المختصر «بابل» كان نذير شؤم. أفنى الله الجبروت في بيليتونج كما أفنى الانحطاط في بابل.

لم يكن هبوط أسعار القصدير بسبب الأزمة الاقتصادية العالمية فقط، ولكن أيضًا بسبب اكتشاف موادّ بديلة. فضلاً عن العثور على مخزون ضخم من القصدير في بلدان أخرى مثل الصين. وهكذا تُركت الـــ پ ن تشهق طلبًا للهواء، مثل سمكة قُذفت خارج حوضها إلى أرض غرفة جلوس.

أما الحكومة المركزية التي تسلّمت لسنوات حصصًا وتقاضت عوائد أتعاب تساوي بلايين الروبيات فتصرّفت فجأة كما لو أن جزيرتنا الصغيرة لا تنتمي لها.

نظرت إلى الناحية الأخرى عندما تعالت أصوات أهل بيليتونج اعتراضًا على التعويض غير العادل لطردهم الجماعي. وهكذا أصبحت جزيرة بيليتونج كئيبة مثل سفينة أشباح هائمة معتّمة ومهجورة ووحيدة، بعد أن كانت مرّة تشعّ بالزرقة مثلما تشعّ الهلاميات المشطية المتجمّعة بالملايين.

تلّقى الموظفون الذين يعيشون في المُلكية الضربة الأعظم. ليس فقط لأنهم فقدوا مراكزهم وماء وجوههم بل أيضًا لأنهم استكانوا زمنًا طويلاً لعقلية إقطاعية منظمّة، وفجأة تحوّلوا إلى فقراء غير محميين من النظام.

وأصبح لزامًا الاستغناء عن دور ضيافة الـ پ ن الفاخرة في جاوة مقابل حرث الأرض والتسلّق وصيد السمك والحفر ونصب الكمائن والتنقيب والغوص لإقامة أَوَد العائلات. لقد تحققت أخيرًا رواية مهار عن رسوم العصر الحجري اللومرية في الكهف والتي همست له محذّرة من سقوط قوّة عظيمة في بيليتونج. تلك القوة الكبيرة كانت الـ پ ن تيما. اللومريون: الأرواح المُبعدة التي تعود من جديد. مفارقة تاريخية حلّت على سكان المُلكية؛ بحثوا عن الطعام في الغابات وعند النهر، وعاشوا حياة بدائية كما عاش قدماء الملايويين قبلهم.

عانى الموظفون من ضغط بالغ لأنهم لم يكونوا معتادين على مشقّات الحياة، هذا من غير التطرّق إلى ذكر أعباء أولادهم الذين رفضوا تقديم التنازلات، ورفضوا تغيير مستوى معيشتهم وهم يدرسون في جامعات جاكرتا الخاصّة والمُكلفة. ولم يعد من النادر أن ينتهي أولئك الموظفون بسكتة دماغية أو أمراض قلب أو موت مفاجئ مع تراكم ديونهم وانسحاب أولادهم من المدارس. كانوا ببساطة يغصّون بملاعقهم الفضية.

عاش الذين عجزوا عن تقبّل الواقع حياة يشوّهها خداع النفس. مشوا بخيلاء يتحكّم فيهم كبرياء زائف مستعرضين سلطة وثروة أُخذت منهم. أصبحوا ضحية نُكات أكشاك القوة. ولم يدم بهم الحال طويلاً، إذ سرعان ما حلوا نزلاء «زال باتو»، مستشفى الأمراض العقلية في جزيرة بانجكا.

ابتلعت بطن الأرض عظمة مدرسة الـ پ ن. ترك عدد كبير من التلاميذ

المدرسة أو حتى غادروا جزيرة بيليتونج مع أهاليهم، وعادوا إلى بلادهم التي جاؤوا منها، إذ ما الداعي لأن يكترثوا أصلاً ما دامت بيليتونج ليست بلدهم الأمّ؟ فلتتحوّل إلى جزيرة أشباح. وليتحمّل السكّان الأصليون النتائج. من بقي من تلاميذ مدرسة الــ ب ن نُقل إلى المدارس الحكومية في تانجونج باندان.

هُجرت المُلكية. في الليل غمر السواد الفاحم بيوتها الفيكتورية الطراز؛ أرض العجائب الأسطورية. وألقت أشجار «البانيان» الوارفة ظلالها على الطريق الرئيس كأنها مرتع تفقيس الأرواح الشريرة الجاهزة لقنص كلّ من يعبر تحتها. أصبحت البحيرات الاصطناعية مقرًا للزواحف.

في ١٩٩٨، طالب شعب إندونيسيا بالإصلاحات. وأسقط الطلاب الشجعان الرّئيس سوهارتو، الذي قضى في الحكم اثنتين وثلاثين سنة. وبهذا وصل حكم نظامه الجديد إلى نهايته.

رأى أهالي بيليتونج أن المُلكية كانت محمية من قِبل نظام الحكم الجديد، وافترضوا في الحال أنها ما عادت ملك أحد. وهكذا، في إحدى الليالي، وأسوة بالفوضى في جاكرتا اقتحم آلاف الأشخاص المُلكية.

نهب المواطنون البيوت الفاخرة في المنطقة السكنية؛ المواطنون الذين هُدمت أملاكهم، الذين احتُلّت أرضهم، والذين كتموا امتعاضهم عشرات السنين. فأطلق أفراد شرطة الــ ب ن الخاصّة سيقانهم للريح لينجوا بحياتهم. دكّ الناس الجدران، انتزعوا بلاط الأسطح، اصطادوا الإوز، أسقطوا الأسوار، سرقوا الأبواب، استولوا على أطر النوافذ، كسروا كلّ ما وقعت عليه أيديهم من زجاج، خلعوا الأرضيات، أنزلوا الستائر وفرّوا بها.

اقتُلِعت لافتات «ممنوع دخول من ليس له حق» وحُملت إلى البيوت كأنّها تذكارات من حائط برلين. كان الناهبون يأخذون فترات استراحة، ويجلسون على أرائك «تشيسترفيلد» الوثيرة، ويأكلون على طاولات الفخّار الثمينة، ويتظاهرون بأنهم من زمرة الموظفين قبل أن يعاودوا النهب.

بيت المسؤول الأعلى في الــ ب ن الذي انتصب رائعًا كأنه قلعة في قمّة جبل

ساماك تطلّ على منظر بديع لبحر جنوب الصين، نُهب ونُهب حتى انهار. وأكبر مولّد كهربائي في آسيا واسمه «آي سي» حُرق حتى لم يبق له أثر.

حُوّلت مستشفى الـــ پ ن العظيمة إلى ركام. تبعثرت الأدوية في الطرقات. نُقلت كراسي المعوقين وطاولات المعاينة إلى البيوت. في ذلك الحين كان يمكنني أن أشمّ رائحة شيء فاسد؛ رائحة صحاف مضادات الأكسدة. رائحة نتانة الثروات وتجاهُل الفقراء.

دامت أعمال السلب والنهب أيامًا. لُفَّت أسلاك الهواتف. قُطعت كابلات الفولتاج العالي بالفؤوس فتخلّف عنها ظهور شرر ناري كأنه حمم نيازك. نُشرت الجرّافات إلى قطع صغيرة وبيعت بالكيلو. انهارت سلالة حاكمة قوية ومتغطرسة.

تجلّت المفارقة الغريبة في أنه صار من الممكن أن ينقّب السكّان المحليون عن القصدير في باحات بيوتهم كما يشاؤون، ويبيعونه مثلما تباع البطاطس الحلوة في سوق قصدير أقاموها لهذا الغرض. في الماضي، كان هذا العمل يعتبر تخريبيًا وفق قوانين الـــ پ ن.

نخل المواطنون القصدير بأيديهم العارية. بل حتى فتحوا مدارس جديدة ساهمت في إنقاذ أطفال يشبهون لينتانج. ومن أعاد التعليم إلى مساره باعتباره الحقّ الإنساني الأساس لكل مواطن، لم يكن مؤسسة عملاقة ولا الحكومة إنما الفقراء أنفسهم.

٤٧

لا تتخلّوا عنها

صمدت مدرستنا بضع سنوات بعد أن غادرناها. صادقت بصمودها على تلك الحكمة القديمة المعروفة: *ما لا يقتلك يجعلك أقوى.*

فليعاود المرء النظر إلينا: نجونا من تهديدات السّيد صمديكون العنيفة، قاومنا الجرّافات التي أرادت مسح مدرستنا من على وجه الأرض، ونجونا من المتاعب الاقتصادية التي خنقتنا يوميًا. لكن قبل كلّ شيء نجونا من أسوأ تهديد مباشر: تهديد أنفسنا؛ إنكارنا قوّة العلم.

كان افتقارنا لتقدير الذات شديدًا، وذلك نتيجة تعرّضنا لتمييزٍ مدروس وتهميش منهجي لسنوات على يد شركة اخترقت جميع جوانب حياتنا. جعلنا الضغط الذي مورس علينا نفزع من التنافس ونخشى الحلم. لكن صديقينا الفذّين مهار ولينتانج زوّدانا بالشجاعة. وكان معلّمانا پاك هرفان وبو مُس الراعيين اللذين ساعدانا في قهر أي مشكلة تعترض طريقنا.

إنما في النهاية خسرت مدرستنا المعركة. اضطررنا إلى الركوع أمام عدوّ خفي هو الأقوى والأقسى والأعنف والأشدّ بأسًا. عدوّ عمل نخرًا في التلاميذ والمعلّمين وحتى في نظام التعليم نفسه. كان ذلك العدوّ: المادّية.

لن يرى العالم الحالي المدرسة كما رآها پاك هرفان. كانت المعرفة بالنسبة إليه هي ما يتعلّق بالقيمة الذاتية، والعلم احتفال بالخالق، احتفاء بالإنسانية، ذلك النوع من العلم الذي يدافع عن الكرامة ويحفظ متعة التعلّم ويكون نبراس الحضارة. آمن بأن

المدرسة لا ينبغي أن تعتبر مجرّد وسيلة للوصول إلى مستوى تالٍ، وإلى تحصيل المال وجمع الثروة. آمن بذلك في حين كانت المدارس تُعدّ جزءًا من خطّة رأسمالية للوصول إلى الجاه والسلطة.

لهذا السبب ما عاد الآباء يرغبون في إلحاق أطفالهم بمحمدية القرية. وما لبث أن ازداد انحراف المبنى نحو الأرض. واعوجّت الدعامة المقدّسة اعوجاجًا استعصى معه فعل أي شيء لإنقاذها. تلك الدعامة المقدّسة التي حملها پاك هرفان بنفسه عندما شرع في بناء المدرسة، الدعامة التي حفرنا عليها ما بلغته قاماتنا من ارتفاع.

وفي إحدى الأمسيات الحزينة بعد سقوط المطر، تشكّل في السماء قوس قزح نصف دائري من سبعة أطياف، بدأ من عند منبع مياه نهر مارانج، ومال ملقيًا نفسه في غابة «المانغروف» قرب جسر لينجانج. ولحظة ظهوره انحنت الدعامة المقدّسة أكثر قليلاً ثم تهاوت أرضًا. وهكذا انهارت مدرسة لا يعرفها أحد، مدرسة أسطورية، عمرها ١٢٠ سنة تقريبًا. ومعها انهارت المنصّة التي مثّلنا عليها مسرحية طفولتنا، مسرحية لاسكار پِلانجي.

بعد انهيار مدرستنا توقّفت بو مُس عن التعليم وتفرّغت للخياطة. لكن التعليم كان مهنتها الحقيقية. لم أر في حياتي قطّ أحدًا يعشق هذه المهنة كعشق بو مُس لها. وتاليًا لم أر أحدًا سعيدًا بعمله مثلها. قرّرت لاحقًا العودة إلى التعليم وأصبحت موظفة تابعة للحكومة في مدرسة ابتدائية رسمية. لكنها تعترف أنه لم يمرّ عليها مطلقًا طلاب استثنائيون مثل لينتانج ومهار.

آلمتني معدتي من محاولتي الامتناع عن الضحك عندما رأيت العامل يجاهد ليحمل عنوةً مجموعة من السلع دفعة واحدة خارج دكان «سينار پيراسكا». مضت سنوات وسنوات ولكني عرفت شمشون من فوري. لم يشأ أبدًا أن تخبو فيه صورة الرجل مفتول العضلات. حاول بمشقّة النجاح في الوصول إلى الشاحنة الصغيرة

ووضع السلع في مؤخرتها. مشى مثل الغوريلا، تمامًا كما فعل يوم ركلتُ إربتيه منذ سنين خلت: عندما نفخ عضلات صدره بشطري كرة تنس.

تسلّم شمشون ثمن السلع من المرأة المكتنزة صاحبة الشاحنة الصغيرة. شكرها، هزّ رأسه بأدب ثم عاد إلى الدكان. ناول صاحب الدكان المال. قام الأخير بتمريره فوق البضاعة لجلب الحظّ، فهزت زوجته رأسها مستنكرةً. عرفت صاحب الدكان من شكل رأسه: كان آكيونج، ورأسه ما زالت مثل صفيحة قصدير.

مع ذلك رأيت أن مآله كان أفضل من مآلي بكثير. فهو على الأقلّ قد وجد لنفسه زوجة. وزوجته ليست إلا خصمه الأكبر السابق؛ سهارى. وكلما سنح الوقت لهؤلاء الثلاثة ذهبوا لزيارة هارون. ما زال هارون يروي القصّة نفسها عن قطته ذات الألوان الثلاثة التي أنجبت ثلاث قطط لديها هي أيضًا ثلاثة ألوان في اليوم الثالث من الشهر. وكسابق عهدها تمامًا، تستمع له سهارى بصدق وإخلاص. ولو قلنا إن هارون كان في الماضي طفلاً عالقًا في جسم بالغٍ، فلا مانع من القول إنه أصبح بالغًا عالقًا في ذهن طفل.

بعد خروج تراپاني من «زال باتو» وعودته، حرص هارون على زيارته بانتظام. يركب دراجته ويقصد بيت تراپاني الذي يبعد مسافة أربعين كيلومترًا عنه في عصر كلّ يوم جمعة. ويغادر دائمًا في تمام الساعة الثالثة.

لم تتغير تطلّعات هارون مطلقًا؛ ما زال يريد أن يصبح تراپاني. وكثيرًا ما خيّم الحزن على هارون بسبب حلمه غير المتحقّق، أعتقد أن ذلك لأن هارون كان متقدّمًا في السنّ عن تراپاني.

إذا أردت أن تحكم على وضعنا الآن، سترى الآمال المحطّمة أينما نظرت. كانت هناك آمالي وآمال هارون، آمال تراپاني في أن يصبح معلّمًا، ولينتانج في أن يصبح عالم رياضيات. واضح أن آكيونج تناسى آماله في إخفاء رأسه الشبيهة بالصفيحة تحت قبعة قبطان، وزوجته سهارى فشلت في أن تصبح ناشطة في حقوق المرأة.

أما أكثرنا إثارة للحزن في رأيي فهو شمشون. إذ فشل حتّى في تحقيق هدفه

البسيط في أن يصبح قاطع تذاكر سينما. كان دائمًا أشدّنا تشاؤمًا. وقد رأيت هذا أينما ذهبت: الأشخاص الأسوأ حظًا في هذا العالم هم المتشائمون.

وما زال شهدان يطارد حلمه في أن يصبح ممثلاً، إلا أنه بالكاد يتلمّس طريقه في جاكرتا. وفي خضمّ محاولاته اليائسة انضمّ إلى فرقة مسرحية، لكن المشكلة تكمن في ندرة ارتياد الإندونيسيين للمسرح. كان شهدان أشبه بصبي ضائع في جاكرتا. ولم نسمع مطلقًا أي شيء عنه.

ومهار، مهار لم يتخلّ عن حلمه في أن يصبح شامانَ سحرٍ أبيض. إنما كحاله في الماضي لم يثقل قلبه بهذه المشكلة. وبقي على قناعته السابقة بأن الغد بيد الله، وأنه ينتظر دورته المستقبلية بشغف. علاوة على ذلك، كان مشغولاً بترتيب براءة اختراع للعبة أطفال تقليدية: ورقة «اليينانج هانتو» التي اعتدنا أن نتزلج بها في مواسم المطر.

فلو، آخر من انضم إلى لاسكار بِلانجي لم تبح يومًا بتطلّعاتها المستقبلية. واكتشفنا لاحقًا أنها تزوّجت صرّاف البنك، رفيقها في عضوية «السوسيتيت دي ليمپاي» البائدة. فبعد أن أسفرت نتيجة البعثة إلى جزيرة القرصان عن رسالة توك بيان تولا المضحكة، علّق مهار، بصفته زعيم «السوسيتيت»، نشاطاتها.

خلال أيام المدرسة، كان كوتشاي المستضعف دائمًا عندما يتعلّق الأمر بالعلامات. ولطالما كان ضحية إهاناتنا بسبب درجاته المتدنية. ولطالما سجّل عضويته في العدد اثنين في الرياضيات. والعدد ثلاثة في خانة العلوم الطبيعية. كان تصنيفه الأخير في الصفّ إلى جانب هارون. ولكن، انظروا إليه الآن؛ هو الذي اعتبرناه أغبانا؛ أصبح من بيننا كلنّا، تابع المحمدية الوحيد الذي حقّق أحلامه.

كان كوتشاي مخلوقًا اجتماعيًا بالفطرة، فهم في سن مبكّرة ثقافتنا وكيف تعمل قواعد السلوك في مجتمعنا. والشعبي الذي يتمتع بمهارة كافية ليقدّم نفسه بصفته حاميًا، يمتلك فرصة كبيرة للنجاح سياسيًا. وقد حافظ كوتشاي منذ البداية على خواصّه الأبرز: كان شعبيًا؛ ومحاورًا قهريًا، ومدّعيًا وقحًا. في النهاية أصبح مرشحًا عن حزب سياسي، ثم ما لبث أن حقّق خطّته: الحصول على منصب في

مجلس النواب. فمن كان العبقري الحقّ في هذه الحالة؟ لينتانج أم كونتشاي؟ لينتانج الأول دائمًا، أم كونتشاي الأخير دائمًا؟

عندما انتُخب كونتشاي نائبًا دعانا للاحتفال في كشك قهوة. هناك عبّر عن امتنانه لنا، خصوصًا لينتانج الذي قال كونتشاي إنه كان في الواقع مصدر إلهامه.

«يا صديقي لينتانج أشكرك لأنك جعلتني ما أنا عليه،» قال كونتشاي بأسلوبه السياسي من الدرجة الثالثة.

كانت عيناه كامدتين. نظر بحزن إلى لينتانج، لكن عيني لينتانج كانتا مستقرّتين على هارون.

لا يسعنا القول من خلال وجهة نظر مادية إن مستقبل أعضاء لاسْكار بِلانجي كان آمنا. مع ذلك شعرنا أن الحظّ قد حالفنا لأننا تعلّمنا في مدرسة فقيرة على يد معلّمين مميّزيْن زرعا فينا تقدير المعرفة وحبّ مدرستنا والاحتفال بمتعة التعلّم.

ما أصبحنا عليه اليوم تشكّل منذ عهد بعيد في تلك المدرسة. وأثمن درس تعلّمناه في تلك السنوات السحرية كان الدرس الذي تلقيناه من پاك هرفان، درس في وسعي أن أراه مسطورًا على وجوه جميع أعضاء لاسْكار بِلانجي. علّمنا أن روح العطاء هي أن نعطي بقدر ما نستطيع وألا نأخذ بقدر المستطاع. تلك العقلية جعلتنا شاكرين دائمًا حتّى في أحضان الفقر. منحني پاك هرفان وبو مُس الفقيرين طفولة جميلة وصداقات ثمينة ونفوسًا غنية؛ وهي أشياء لا تقدّر بثمن. لعلّي أجانب الصواب، لكن في نظري هذا هو نفَس التعليم الفعلي وروح مؤسسة تُدعى المدرسة.

شعرتُ أن الحظّ حليفي لأن الفرصة أتيحت لي كي أواصل تعليمي في بلد أجنبي بعيد كلّ البعد عن وطني، ولاحقًا حالفني الحظّ أيضًا بزيارة مناطق عديدة كمجرّد سائح جوّال. وأينما مضيتُ، استقرأت باهتمام تفاعل الناس مع بعضهم ضمن نظام اجتماعي معين، وكيف ينظرون إلى حياتهم. استمتعت بمهنة مراقب الحياة هذه غير الرسمية.

قابلت زعماء أديان مختلفة. سألتهم عن حكمة الحياة. رأيت الناس يبحثون عن

السلام في حياتهم. رأيت أناسًا يغادرون إلى مكّة والهند وبيت لحم وجبال الهمالايا، باحثين عن راحة البال بتكريس أنفسهم تكريسًا كاملاً لمعتقداتهم. بل حتى كثيرًا ما قابلت أناسًا يبحثون بيأس عن أنفسهم، ومنهم من يركب قطار المغامرة مجهدًا الشرطة أحيانًا في اقتفاء أثره.

حاولت التوصّل إلى استنتاج من جميع تجاربي. لكن على ما يبدو لم أكن بحاجة إلى الرحيل بعيدًا، لم أكن بحاجة إلى غزو العالم أو إلى مقابلة أناس متنوّعين. الاستنتاج النهائي، الحكمة التي آمنت بها، كانت الفلسفة البسيطة التي اكتسبتها من سنوات دراستي في مدرسة لاسكار بِلانجي، المدرسة التي نسفتها الريح في نهاية المطاف.

كانت تلك الحكمة بسيطة ببساطة المدرسة المتواضعة نفسها. القدر والجهد المبذول والمصير هذه الثلاثة هي مثل ثلاثة جبال زرقاء تهدهد الإنسانية. تتآمر تلك الجبال في ما بينها لتخلق المستقبل، ومن الصعب أن نفهم طريقة عملها معًا. أولئك الذين يفشلون في مظهر من مظاهر الحياة يحيلون الأمر على الله. يقولون إذا كانوا فقراء، هم كذلك لأن الله قدّر عليهم الفقر. أولئك الذين يتعبون من الوقوف بثبات ينتظرون من مصيرهم أن يغيّر قدرهم. أولئك الذين لا يريدون أن يعملوا بكدّ يقبلون بقدرهم لاعتقادهم بأنه غير قابل للتغيير لأن كلّ شيء مقدّر في النهاية، كما يرون. وهكذا، تحيط دائرة الشيطان بالكسالى وتحكم طوقها حولهم. لكن ما أعرفه جيدًا من تجربتي في المدرسة الفقيرة هو أن الحياة الحافلة بالعمل الجادّ تشبه التقاط المرء ثمرة فاكهة من سلّة وهو معصوب العينين. ومهما بدت الثمرة التي نحصل عليها، نكون في النهاية قد حصلنا على ثمرة ما.

لا أريد التوقّف عن التعلّم والعمل بجدّ. أنا مقتنع بأنّ هذا ما حرّضني على استكمال دراستي في أوروبا، لأعود بعدها إلى إندونيسيا وأعمل لدى شركة اتصالات.

عندما كنت أعمل في تلك الشركة سنة ٢٠٠٤، ضرب تسونامي منطقة آتشيه، ومات مئات الآلاف من الناس. سجّلت اسمي مع المتطوّعين وقضيت في آتشيه ثلاثة أسابيع.

في طريقي إلى مطار آتشيه بعد عملي التطوّعي رأيت شابّة تضع جلبابًا. كانت تقف عند جانب الطريق حاملة راية. وخلفها بقايا مدرسة حطّمها تسونامي. كُتب على رايتها: تعالوا لا تتخلّوا عن المدرسة.

صعقني المشهد. ربما كانت تلك الصبية معلّمة، معلّمة تحاول لمّ شمل من نجا من تلاميذها في أعقاب الكارثة. وجدت نفسي أكافح لأحبس دموعي عندما وقع نظري عليها. تأثّرت بصمودها وفي تلك اللحظة تذكّرت معلّمةً قالت لي مرّة أن أخسر تلميذًا كخسارتي نصف روحي.

عندئذ تذكّرت وعدي القديم؛ الوعد الذي قطعته على نفسي في الصفّ السادس عندما رأيت بو مُس تقطع باحة المدرسة، تحمي نفسها من المطر بورقة شجرة موز. يومها عاهدت نفسي في أعماق قلبي الصغير على أن أكتب لبو مُس كتابًا. الكتاب سيكون هديتي إليها، البرهان على أنني قدّرت حقًا وأكبرت كلّ ما فعلته من أجلنا.

بعد يومين في باندانج، رجعت إلى البيت من عملي وبدأت في كتابة الكتاب. في الأيام التالية، ضحكت لنفسي وابتسمت وتأثّرت وانزعجت ونشجتُ وحدي في جوف الليل. وقبل أن أدرك اكتشفت أنني قد كتبت مئات الصفحات.

لابدّ أن أذيّل هذا الكتاب باعتراف أعتبره اللمسة النهائية، وهو أنني شعرت بالارتياح في أن أفتتحه بقولي: أهدي هذا الكتاب إلى معلميّ، إيبو مُسلمة هفصري وباپاك هرفان إفندي نور، وإلى رفاق طفولتي العشرة الأحبّاء، أعضاء لاسْكار پلانجي. وقد سميت الكتاب لاسْكار پِلانجي أي عساكر قوس قزح.

تحصيل العلم حقّ جميع المواطنين

(دستور جمهورية إندونيسيا، البند ٣٣)

يقول هيراتا لقرائه: يشرّفني حقًا أن أتخيل روايتي "عساكر قوس قزح" بين أيديكم. وأتمنى لكم في رحلتكم مع هذا الكتاب أن تستمتعوا بقصة من قريتي في جزيرة بيليتونج الصغيرة، الجزيرة المجهولة التي لا تكاد من صغرها تظهر على الخريطة. قصتي هي قصة الناس المنسيين، وهي صوت من لا صوت لهم. وآمل أن تجدوا ما يجذبكم في جمال الطفولة، في المعلّمة الصبية المهمّشة وتلاميذها العشرة وهم يحاربون أعداءً لا يُقهرون، ويكافحون من أجل العلم، ومن أجل الكرامة. وأن تجدوا البهجة في أحلام أولئك الأطفال المفعمة بالطهر والبراءة، وفي مرارة الحبّ الأول الحلوة....


ISBN 978-91-87333-17-0
9789187333170

ولد آندريا هيراتا في غانتونج، بيليتونج، شرق سومطرة، إندونيسيا. نال منحة دراسية ليتابع دراسته العليا في جامعة شافيلد هولام، المملكة المتحدة، وحصل على الماجستير مع مرتبة الشرف. وتركز موضوع أطروحته على النظرية الاقتصادية.

بعد إنهاء دراساته، عاد إلى إندونيسيا وعمل لدى شركة تيليكوم، وهي أكبر شركة اتصالات في البلاد.

تطوع في سنة 2004 لإغاثة المتضررين من كارثة تسونامي في آتشيه. وهناك صادف مدرسة منهارة ذكّرته بوعده القديم الذي قطعه على نفسه في طفولته بأن يكتب لمعلّمة مدرسته الابتدائية "مُسلمة" كتابًا يخلّد به ذكراها ومآثرها. وهكذا ولدت روايته الأولى.

تدعى الرواية "عساكر قوس قزح" أو "لاسكار پلانجي"، ولم يكن في نية هيراتا عندما كتبها أن يطرحها للنشر. لكنها اليوم تعتبر من أضخم الروايات الإندونيسية التي لاقت شهرة كبيرة. وقد ساهم هيراتا بها في تطوير الأدب الحديث في بلاده.

شارك في برنامج الكتابة الدولي في جامعة آيوا في 2010. باعت روايته الأولى، عساكر قوس قزح (لاسكار پلانجي)، أكثر من خمسة ملايين نسخة في إندونيسيا، جاعلة منه الكاتب الأكثر شعبية في بلده، إضافة إلى أنها الرواية الأولى التي حققت نجاحًا دوليًا. وقد نُشرت رواية عساكر قوس قزح – أو في طريقها إلى النشر – في ثلاثة وعشرين بلدًا. في سنة 2008 ظهر فيلم إندونيسي مقتبس عن الرواية وحقق مكاسب كبيرة تعتبر الأعلى في البلاد. يعيش هيراتا في أندونيسيا.

الرواية الإندونيسية التي حطمت الرقم القياسي في المبيعات!

إكال، تلميذ في ابتدائية المحمدية في جزيرة بيليتونج الغارقة في الفقر على الرغم من ثروات أرضها الوفيرة. وفي ظل الفقر وقلة الحيلة والظلم والبنى التحتية المتداعية لا تنفكّ اختبارات الحياة القاسية تشلّ من عزيمة إكال ورفاقه وتفقدهم الثقة بأنفسهم والثقة بجدوى تحصيل العلم. لكن بزرة الأمل التي يزرعها فيهم معلّماهم پاك هرفان وبو مُس لا تلبث أن تزهر حاملة معها التصميم والثقة والتحدي.

أطلقت عليهم معلّمتهم لقب عساكر قوس قزح، ومن يومها وقفت هذه الكتيبة البريئة في وجه الصعاب يدًا واحدة وقلبًا واحدًا.

سنفرح في هذا الكتاب مع عساكر قوس قزح يوم تحول إنجازاتهم المشرِّفة دون أن يغلق المفتش الجائر مدرستهم. سنفرح معهم يوم يتفوقون على طلاب المدارس الراقية. وسنفرح معهم يوم يهزمون الشركة الجشعة التي تريد هدم مدرستهم لاستغلال ثروات الأرض تحتها.

سنشعر في هذا الكتاب بدفء الحب الأول مع إكال، وسنهلل فرحًا بعبقرية لينتانج وسنضحك مع إبداعات مهار، وسنتمنى لو أننا تتلمذنا على يد پاك هرفان وبو مُس.

فاقت مبيعات هذا الكتاب 5 ملايين نسخة عندما صدر أولاً في إندونيسيا. ثم أسر قلوب القراء في مختلف البقاع بعد نقله إلى العديد من اللغات الحية. هو كتاب يطرق أبواب عالم لا نعرف عنه الكثير، ولكن ما ينضح به من السحر والحيوية يجعلنا نعيش ذلك العالم بأدق تفاصيله.